



الطبعة الثالثة

أيام معه

كوليت سهيل



منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر
بيروت - لبنان

إهداء

فكرت طويلاً ، قبل صدور الطبعة الاولى لهذا الكتاب ، في موضوع الأهداء ، واحترتُ .

احترت لأنني لم ادرِ أي مكان سيحتلّ كتابي في قلوب القراء .

ودامت حيرتي اسابيع ، حتى آثرت أخيراً ان أتركه يسير على غير هدى ، ويشق طريقه بنفسه في عالم الحبر والورق .

أما الآن ...

وبعد ان سمعت الكثير ... وقرأت الكثير ... مما قيل في القصة ، وكتب حول موضوعها ، فقد رأيت أن أضع الأمور في نصابها ، وان اعطيَ كل ذي حق حقه .

ولذا يطيب لي أن أجعل من كتابي هدية صغيرة أقدمها إلى عزيز عليّ وغال في قلبي :

قارئي العزيز

« أيام معه » قصة املاها عليّ واقع جيلنا الحاضر كما أراه أنا .

إذا كنت قد اخطأت ـ كما قال البعض واكد ـ في إثارة الموضوع اصلاً ونشره ، او في سرد الحوادث وتصويرها ، فأنا إنسانة والمرء يخطئ ويصيب ، والعصمة لله وحده .

وفي هذه الحال يسرني أن اهدي قصتي هذه ، إلى الجيل نفسه ، إلى جيلي ، إنها منه فلتهد اليه ، علّه يتخذ من أحداثها عبرة .

وأما إذا كنت قد أصبت وأحسنت ــ كما قال الذين يرَون الحياة كما أراها ، ولا يخافون مجابهة الواقع ــ وكان كتابي يستحق فعلاً القراءة ، فإنه يشرفني ويسعدني أن أرفعه إلى الشيخ الكبير الذي علمني القراءة والكتابة ، وغرس في نفسي حبّ اللغة العربية ، وزيّن لي عبادة الحرف ...

إلى أحد اساتذة هذا الجيل

إلى جدي الحبيب

فارس الخوري

مع احترامي وحبي



سأملأ كأسي برحيق الفن ...
فالفن نبع فياض ، دفق وجود لا
ينضب ...
مهما غرفنا منه يظل يغرقنا بالجمال ...
ومهما نهلنا معه يظل يسكرنا بالآمال
والحب ...
سأهب حياتي للحرف ...
سأجعل منه إلهي ورفيقي وعبدي
فآمره ، ساجدة... وأعبده ، سيدة ...
وأشكو اليه همومي كإنسان حبيب ...

*

القِسمُ الأوّل

❊

زحفتْ نظراتي ببطء وبرود ...

فتسلقتْ قامته المديدة ... وتوقفتْ ، غريبةً ، عند ثغره ... ثم راحت تنبش في عينيه ... وتبحث فيهما عن شيء ... عن اي شيء ... عن اثر من احساساتي الماضية ...

ولكن عبثاً !

هذه العيون التي كانت تشعّ ، وتوحي اليّ بالوف المعاني ، تبدو فارغة ...

وهذه الشفاه التي كانت تصبّ الحياة في وجهي ... وفي مقلتيّ ، تبدو متدلية ... تدلّ على السذاجة ...

هذا الرجل المنتصب امامي ...

طالما وددت لو اتلاشى في ظله ...
طالما تمنيت ان اضمحل بين ذراعيه ... يبدو مترهلاً ... عادياً ...
إني أنظر اليه ، وكأني أراه لأول مرة !
أخذت من يده الكتاب ... ومشيت نحو الباب ...

*

خرجت إلى الشارع بخطوات ثابتة .
شعرت بأن شيئاً قد حرّر قدميّ من القيود ... ما أجمل هذه الليلة .
الجو هادئ ، والسماء تعكس على صفحاتها صفاء قلبي . وهناك ، بين النجوم المبعثرة تلمع آمالي ، فتشق لحياتي آفاقاً جديدة ...
ركبت سيارتي وقدتها على غير هدى ... احسست بحاجة الى التحليق في الفضاء ، أردت أن أطير ، لأستقبل على وجنتيّ بوح النسيم العليل ... ولأستنشق عبير الحرية ... حريتي من نفسي ...
وعاد بي التفكير إلى الماضي ، وتوالت الأيام صوراً في مخيلتي ، وأخذت أستعيد الذكريات دون أن احياها ، كأنني أشاهد شريطاً سينمائياً ، تدور حوادثه أمام عيوني ، ولا يؤثر في نفسي بشيء .

*

١

على حطام امنيات بعيدة ... وعلى اشلاء ماض بدا طويلاً برغم قصره ... وفي نفسية كرهت الحياة من حبها الحياة عاشت قصتي منذ سنة تقريباً ...

أيام وأيام قبلها مرت ، وسنون طواها الدهر وغابت ، وذكريات حزينة نامت في حنايا النسيان ... كلها تنبعث الآن من ذاكرتي ، ليمرّ بعض حوادثها صوراً خاطفة أمام ناظريّ ، يمهّد سبيل هذه القصة ، ويعطيها معناها الحقيقي .

أعود إلى السنة التي تركت فيها المدرسة ، بعد ان حصلت على شهادة « البكالوريا » ، وكنت في السابعة عشرة .

وملأ النجاح حاضري بالنشاط ، وزيّن مستقبلي بالآمال ،

لكن والدي رفض أن اكمل دراستي وأدخل الجامعة ، لأن الفتاة في بلدي ، لا حاجة بها الى الشهادات العليا !

زلزلني رفضه !

كيف ... كيف أقبل أن اعيش حياة تافهة ؟

كيف ارضى أن أعيش بين اربعة جدران ، أقتل طموحي بالملل ، وادفن آمالي في انتظار العريس ؟

لا !

أنا لم اوجد فقط لأتعلم الطهي ثم اتزوج فأنجب اطفالاً ثم أموت !

إذا كانت هذه هي القاعدة في بلدي فسأشذ أنا عنها ... أنا لا أريد ان اتزوج !

أنا أريد ان اعيش حياتي ، لا ان تُرسم حياتي ! اريد ان أحصل على شهادات عالية ... أريد ان ادرس الموسيقى ... ان اتعلم الغناء ... ان اكتب الشعر ... ان أرسم ... ان اعمل .. ان اشتغل ... ان أسافر ... أريد ... أريد ... أريد ...

وكم وكم يريد طموحُ السابعة عشرة !

يريد ابتلاع الدنيا لأنه لم يتركز على فكرة معينة بعد : يتبعثر في كل نواحي الحياة ، لأنه لم يجد توجيهاً من الأهل ، يجعله يختار مجرى حياته الحقيقي الواحد ، فيصب فيه تياره الجامح .

حاولت بجميع الطرق أن اقنع والدي كي يتنازل عن رأيه ؛ غضبت ... ثرت ... حزنت ... مرضت ... واخيراً ، رضخ

الأمر مستاء ، وقبل أن أدرس ولكن ... بالمراسلة . ومع انني لا أومن بطريقة الدراسة هذه ، فقد وجدت فيها عزاءً بسيطاً ، ومنفذاً ولو ضيقاً ، انفث فيه بعض طموحي .

وبقيت في البيت ، أهرب من جفاف أوراق الحقوق ، لأرتمي في نداوة الشعر .

ولم يكن في البيت سوى والدي واختي الصغيرة رانية ، وكانت في العاشرة من عمرها ، والمربية والخادمة دنا .

ولكن ... حتى كتابتي الشعر كانت لا تخلو من معاكسات .

فقد كان عمي يقول للجميع :

– هذه الفتاة ليست متزنة ! لماذا تنشر أشعارها في المجلات ؟ وماذا تفيدها كتابة الشعر ؟ إنها فتاة غريبة الأطوار ... منطلقة ... تصرفاتها لا تعجبني مطلقاً ... إنها تخلق لنا مشاكل ...

وكانت هذه الآراء تسرّ الناس طبعاً ، وتلقى في نفوسهم ترحيباً ... وكانت تجرحني أنا .

ألمجرد أنني شابة ، وصريحة ، واكتب الشعر ، يجب ان احاكم في هذا البلد ؟

حتى أنني كنت في بعض الأحيان اشك في نفسي ، واتساءل إذا كنت فعلاً تلك الفتاة التي تخلق مشاكل لأسرتها ، لسبب وحيد ، هو ان نفسها لا تخلو من الطموح ، وانها تطالب بكرامتها كأنسانة تريد أن تحيا ...

وبعد شهرين من دراسة غير مجدية ، قررت أن اذهب

إلى الجامعة مهما كلفني الأمر ، وعدت أقنع والدي ، فاستاء وغضب ، وابتدأتْ مناقشاتنا ، وتعكّر جو بيتنا ، فلم أجد بداً من الرضوخ ، يائسة ناقمة ، وطرحت فكرة العلم من دماغي ، وساعدتني على ذلك الظروف : ففي تلك الفترة بالذات تعرفت بألفريد .

كنت أعلم منذ صغري بأن لوالدتي ابنة عم متزوجة في فرنسا بثري كبير ، وأن ابنها الوحيد ، ألفريد ، قد يأتي في يوم من الأيام ، لزيارتنا في دمشق .

واقبل ذلك اليوم .

ودهشت حين قال لي والدي ان ألفريد سيقيم عندنا ، برغم معارضة عمي الذي ثار على هذا الرأي ، وانتقده ، ثم فهمت ان تصرف أبي كان بدافع احترامه لذكرى أمي ، فاحترمته ، وشكرته في اعماقي .

لم اكن اعرف عن ألفريد سوى أنه في الثانية والعشرين من عمره ، وانه يتكلم الفرنسية والانكليزية ، وقليلاً من العربية ، وانه رسام من الطراز الأول .

ومنذ اللحظة الاولى من لقائنا تبادلنا الأعجاب . فقد رأيته من بعيد يتحدث مع والدي ، وخالي سمير ، وزوج خالي نادياً ، فركضت اليهم ، وتطايرت خصلات شعري الطويل في الهواء ...

ووقفت ...

مذهولة ، أمام جمال إطلالته ، وشبابه المتدفق ، وتوقف

الحديث بمجيئي ، والتفتَ إليّ ألفريد ، يتأملني ، مستغرباً ، وتهلل وجهه ، وكأنني حورية هبطت عليه من السماء ...

وقبل ان ينطق ايهم بأية كلمة ، قلت له بعفوية ، اقدّم نفسي بالفرنسية :

— Bonjour ... Mo i ..,
je suis Rime ...

أشرق النور في وجهه ، وأطربتني الابتسامة الهادئة في عينيه الخضراوين ، وتمتم ، بعد لحظة سكون :

Moi ,.. je suis en extase !

*

إقامة ألفريد بيننا جعلتني اكتشف معاني جديدة في حياتي .

فمن احاديثي معه ، ابتدأت أعرف آرائي . ومن تصرفاتنا ، صرت أفهم عاداتي . ومن اعجابنا المتبادل ، نما احساسي بأنوثتي

ومع الأيام تحول اعجابنا هذا إلى استلطاف ، لست أدري الآن إذا كان من الصواب ان أسميه حباً .

كنت أريد الهرب من جو ثقيل ، أعيش مرغمة تحت وطأته ؛ وكان ألفريد إلى جانبي دائماً ، يمثّل الشباب ، والقوة ، والطموح ، والمستقبل ، فلجأت اليه .

أما هو ، وكان لا يعرف شرقنا إلاّ من خلال الروايات ، فقد كان يخيّل لي أنه يعتبرني اميرة صغيرة شرقية ، من اميرات الف ليلة وليلة ! كنتُ نموذجاً غريباً ، نادراً ،

يلذّ له أن يُبقيه دائماً إلى جانبه .

وكان ألفريد يُشعرني بأنه في حاجة إليّ ، وكنت أنا في حاجة ماسة إلى حاجة إنسان إليّ ، فازداد تعلقي به ؛ وحين طلب مني ان أتزوجه ، قبلت فوراً ، مع انني كنت دائماً اكره الزواج ؛ إلا انني اعتقدت ان زواجي به هو الوسيلة الوحيدة التي تجعلني أحقق آمالي ، فأكمل دراستي ، واغذّي ميولي الفنية ، واكوّن شخصيتي بحرية .

وعقدنا خِطبتنا ، برغم ثورة عمي ايضاً .

لم يعارض عمي لأن ألفريد مبدئياً لم يعجبه ، بل ثار لأنني أنا التي قررت ان أتزوجه ، ولأن والدي وافق على قرار اتخذته أنا !

ومتى كانت الفتاة تقرّر ... وتنفّذ ... في بلدي ؟

ولكن آمالي الجديدة خابت في مرحلة الخطبة ؛ فقد ابتدأت اشعر بأن زواجي بألفريد سوف يرميني في بئر من اليأس اسوأ من التي اودّ الخروج منها ، إذ نحن لن نتفاهم مطلقاً ، لوجود اختلاف كبير في آرائنا ، وعاداتنا ، وطباعنا ؛ ثم ان ألفريد أناني ، أناني جداً ، وهذه الأنانية ستطفئُ آمالي ، وتحد من احلامي

والسبب الأساسي في خلافاتنا ، هو ان ألفريد لا يريد البقاء في دمشق ، وأنا يمزّقني فراقُ بلدي .

وصارتْ مناقشاتنا تشوب علاقتنا ، وبدأنا نفهم ان طباع كل منا ، تخنق شخصية الآخر .

وفي ذات ليلة ، وكنت غاضبة ، طلبت منه ان نفسخ

الخِطبة فقال محتدماً ان لا حاجة إلى ذلك ، فهو سيسافر الى بلده ، فيتم دراسته التي اهملها مدة عشرة شهور ، وانه سيعود إلى هنا بعد سنة .

وقال إن هذه الفترة التي ستفرق بيننا ، ستجعلنا نتّخذ قرارنا النهائي في قضية خطبتنا ، واتفقنا على ان يعتبر كل واحد منا نفسه ، حراً طَليقاً خلال هذه الفترة .

وسافر ،

ولم يدرِ أحد أنه قد لا يعود مطلقاً إلى هذه البلاد ، وانني لم أعد اعتبر نفسي خطيبته .

تسلّمت منه رسالتين بعد ذهابه مباشرة ، وفيهما يؤكد لي حبّه . ثم انقطعت أخباره ، ومع الأيام ، ظننته نسيني .

ومرت أشهر ...

وابتدأ اليأس يتسرب إلى نفسي ، وشعرت بأن جميع المنافذ قد سدت في وجهي ، فصرت أحاول ان اخلق آمالاً جديدة من « عدم » ، وان اجمّع قوتي لمجابهة الواقع ، والصبر عليه .

ولكن ، جرى حادث مؤلم سوّد بقايا آمالي ، وسحق انقاض قوّتي ، حادث لن اتوقف عنده الآن ، جعل مني ومن رانية يتيمتين ... وحيدتين في بيتنا الفارغ ...

ولم أجد حولي في مصيبتي سوى ناديا ، زوج خالي ، وهي في الثامنة والثلاثين ، جميلة ومثقفة جداً ، وكانت صديقة أمي منذ الصغر ، وبرهنت على اخلاصها بما كانت تقدمه لي ولرانية من حنان ، وصداقة وتشجيع .

وتوالت الشهور ، والفراغ يمتص عمري . هذا الفراغ

ـ لقد قرأت في صحيفة انكم تريدون موظفات وها أنا اتقدم لأعمل هنا .

اتسعت عيناه دهشة ، ثم استغرق في الضحك :

ـ ما هذا المزاح ؟ تعملين هنا ؟ أنتِ ؟ لماذا ؟

أجبته بشيءٍ من التحدي :

ـ ولماذا لا أعمل ؟

ـ لأنك لست في حاجة إلى مال على ما أعلم ...

عجبت كيف يتفوه هذا الرجل الذي احترم ، بجملة تافهة كهذه ... وقلت :

ـ أتعتقد ان الغاية من العمل هي كسب المال فحسب ؟ ألا تعتقد مثلي ، ان العمل مسؤولية ، وان المسؤولية تعطي نوعاً ما ، هدفاً للحياة ؟

كان يستمع إليّ ، ويبتسم باعجاب :

ـ يسرني أنك لم تتغيري منذ أيام الدراسة . كنت دائماً معجباً بجرأتك وبإرادتك ... ثقي أني أرحّب بموظفة نشيطة مثلك ... ولكن وظيفتك ستكون صعبة .

ضحكت :

ـ ثق أني ارحب بالوظيفة مهما تكن .

هزّ رأسه :

ـ أنت مثال الفتاة القوية ، المندفعة بإيمانها بالحياة ، والتي لا تتقهقر أمام الصعاب ...

راحت نظراتي تكتب على حائط المكتب هذه الكلمات :

« قوية ! مندفعة ! نشيطة ! لا تتقهقر ... لا تتقهقر ... لا تتقهقر ... »

وابتسمت هازئة ... يا للسخرية !

انه لا يعلم ان إرادتي ان أعمل ، هي نتيجة تقهقري المتواصل أمام الفراغ ... وأمام الوحدة ... وأمام الملل ...

– اذكر انك كنت قوية في مادة الرياضيات ، سيكون عملك في هذا المضمار ... الحسابات ... وستبدئين غداً ... ما رأيك ؟

كدت الاّ أصدق ، وهتفت :

– عظيم ... « الف شكر »

وجاء بأوراق ، ملأت بعض الفراغات فيها ، ووقّعت اسمي في نهايتها .

من يومها ، ارتبطت بالوظيفة .

*

لم يفهم الأهل ...

فقد تذكرني عمي ، لأول مرة ، وجاء إليّ في مساء اليوم التالي . استقبلته متهللة ، لكن الغضب في عينيه أنذرني بالتروي ، وجمّد كلماتي بين شفتيّ . ابتدرني :

– أصحيح انك ستعملين ؟

أجبته بهدوء :

– لقد ابتدأت العمل اليوم ...

زأرتِ النقمة في اساريره :

ـ ماذا تقولين ؟ اليوم ؟ كيف لا تفكرين في عواقب الأمور ، ماذا سيظن الناس ؟ ماذا سيقولون عنا ألا تكفينا الأقاويل التي تلاحقك في كل مكان ؟

كنت احاول ، أمام سهام كلماته ، ان أُدرّع نفسي بالهدوء ، وقوة الايمان .

أقاويل الناس ! ماذا يظن الناس ! ماذا يعتقد الناس ! كيف يكون عمي كباقي الناس ؟ كيف يجعل من الأقاويل ومن آراء المجتمع غذاءً لروحه ؟ ألا يملك قوة داخلية ، تمكّنه من ان يفرّق بنفسه بين الخير والشر ، فيميّز الأول من الثاني ، دون ان تسيّره آراء الآخرين ؟

وددت لو أقول له :

« لماذا جئت تزورني ؟ أنا بحاجة إلى صديق لا إلى عدو ! ابتعد عني ... دعني احي الحياة التي أريد ، خارج الدوائر السخيفة التي تودّ رسمها حولي ... ابتعد ... »

لم أقل شيئاً ، فاحترام الأهل الذي غُرس في نفسي منذ الصغر ، جعلني اتمالك . حاولت ان اشرح :

ـ هل من العيب ان يعمل الانسان ؟ هل يسيء ذلك إلى سمعتي ؟ هل يمسّ اخلاقي ؟

لم يجابه سؤالي البسيط ، بل انبجست كلماته من نقمته علي :

ـ أنت دائماً تؤمنين بآرائك الخاطئة ، وتعتقدين أن منطقك المعوجّ هو قانون الحياة ! نعم ... الناس كلهم سخفاء ... وأنت

الذكية ! يا لك من مغرورة ! تطلعين كل يوم ببدعة جديدة ، وتعتقدين ان من واجبنا أن نوافق ! إن طريقة حياتك تزعجني ! رفضتِ أن تسكني معنا ، أنا وجدتك ، فبقيت هنا مع رانية ، تستقبلين من تشائين ، وتذهبين انىّ تشائين ... ان مجرد اقامتك وحيدة دليل على استهتارك ...

شعرت بأمواج من الدموع تصخب في قلبي ...

يا له من ظالم قاسٍ ! يلومني لأنني اعيش وحيدة ولا يفهم ان وحدتي ترهق شبابي ! يلومني لأنني حرة ، ولا يفهم ان حريتي لا تفيدني ، وانني افتتها ارباً ارباً ، وانثرها ريشاً تحت اقدام رجل أحبه ويعطف عليّ .

ولم يكتفِ بما اسمعني من كلمات مُرّة ، وتابع :

ـ نعم ، ان طريقة حياتك لا تعجبني مطلقاً ! ألا ترين كيف انني لم اتدخل في امورك ؟ ولكنك الآن تريدين ان تشتغلي ! موظفة ! ابنة اخي موظفة ! هذا ما لا احتمله !

ابتدأت افقد أعصابي ... هذا الغرور يثير اشمئزازي ! ما اغرب الطبيعة البشرية وما احطها ؛ عمي الأناني ، الذي ينكر وجودي ، يعترف الآن بأنني ابنة أخيه ! لماذا ؟ لا بدافع العطف والمحبة ، لا ! بل لأنه يرفض أن أقوم بعمل يجرح غروره ! لأنه لن يحتمل ان يحطّ الناس من قدره ويقولون : « ابنة أخيه موظفة ! »

ـ ابنة أخي موظفة ! أنت مستهترة ! مسكين والدك كم تحمّل منك ! لماذا لا تتزوّجين ، فننتهي من قصصك ... ونرتاح !

أصابني في الصميم !

لماذا يذكر والدي الذي أُحب ، والدي الذي كان يعطف عليّ ؟ لماذا يُشعرني بأن وجودي يثقل عليه ؟

وأحسست بالنزف يفيض في اعماقي . وكنت كالحيوان الجريح الذي يصبح كاسراً إذا ما اصيب في صميمه ...

فرفعت نحوه عينين مليئتين بالألم والكبرياء ، وقلت بحزم :

– ارجوك ان تتابع سياستك الاولى فلا تهتم بأموري ... نهائياً ... أنا مستهترة ... وسأظل مستهترة ...

– أنت وقحة ! فلتذهبي إلى الجحيم ...

وانصرف مزمجراً ، وصفع الباب وراءه ، تاركاً جواً من النقمة والألم .

شعرت بحاجة إلى عطف ... إلى كتف رحيمة تنشّف دموعي . شعرت بحاجة إلى صديق أستمد من ودّه دواءً أمسح به الجراح التي خلفها الأهل في صدري . شعرت بحاجة إلى أب يحميني .

لكن نقمتي تغلبت على ألمي ، عندما جاءت جدتي بعد لحظات ، تثير جوّ الحقد الذي أحياه عمي :

– ماذا دهاك يا ريم ؟ الفتاة لا تعمل إلا إذا كانت بحاجة ماسة إلى كسب عيشها ... هل ينقصك شيءٌ ؟ لباس ... أكل ... اي شيءٍ ..؟ لديك المال الكافي يا حبيبتي ... ثم الا تعلمين ان كل ما املك لك ولرانية ؟

ثارت ثورتي ، وافرغت في وجه جدتي كل ما ينهش قلبي :

ـ أنا لست بحاجة إلى أموالكم ! أنا لست بحاجة إلى وجودكم حولي ! أنا في حاجة إلى حياتي ... إلى شخصيتي ... الى فرديتي إلى اثبات وجودي ... كيف لا تفهمون ذلك ؟ أنا لست عبدة ! عبدة لكم ... للمجتمع ... لآراء الناس ... ألا تشعرين بأنني اموت ؟ اموت في هذا الفراغ ؟ اموت من الملل ؟ ألا تشعرين ...

واختنق صوتي بالعبرات .

بكيت من النقمة ، ومن الثورة ؛ وتأثرتْ جدتي :

ـ ريم .. لاتبكي ... نحن لا نريد إلا صالحك ... نحن ...

ولم أسمع بقية كلماتها ، فقد خرجت من البيت ساخطة ، وهرعتُ إلى ناديا ، الانسانة الوحيدة التي ارتاح اليها . تلقتني بابتسامة عذبة ، سرعان ما تحولت إلى نظرة جزع وتساؤل . وعندما اخبرتها بما جرى ، قالت بجزم :

ـ ان ما تفعلين هو الصواب ، امضي عليه . ليت جميع الفتيات يعملن ويتوظفن . ان تحرر المرأة مادياً يحررها معنوياً . يا ريم ان ما يضع المرأة في مستوى دون مستوى الرجل هو ارتباطها المادي به . نعم ... أنت لست في حاجة إلى مال ، ولكن الشعور بأنك قادرة على كسب عيشك يجعلك تثقين بنفسك ... يجعلك قوية ومستقلة تماماً ... لا ... إياك ان تتركي الوظيفة . ولا تبكي ... البكاء سلاح الضعفاء ، وأنت لست ضعيفة !

وبقيت في الوظيفة .

وطبعاً لم يفهم المجتمع :

ـ احقاً توظفت ريم ؟ لماذا تعمل وهي « بنت عائلة » ؟ الا يكفيها مالها ؟ هل تركها خطيبها ؟ انها فتاة بطرة ! ان عمها غاضب عليها ... »

لم تزعجني الأقاويل ، وكان يصلني معظمها . كنت اسمعها بأذن مجردة ، واشعر بنوع من التسلية ، وأنا اكتشف كم خيال الناس واسع وخصب !

واستحوذت وظيفتي على جميع وقتي ، حتى نسيت انه يوجد في الدنيا شيْ سوى عملي وبيتي ... ولذة الأكل !

نعم ... كنت أتلهى ... بالأكل !

أوليس الأكل من لذات الحياة ؟ بل اللذة الوحيدة المباحة للفتيات في بلدي ، والتي لا ينتقدها المجتمع ؟

واهملت شكلي .

وكيف اعتني بشكلي ، ووجهي مطفأ نورُه ، وعيوني مُختفٍ بريقُها ؟

عيوني تنادي ... تلحّ ...

ولكن ...

من أين آتي اليها بالحياة ؟ والحياة هنا ، تقتل الحياة ...؟

٢

ومرت سبعه شهور ، وبدّد العمل بعض مللي ، وبلور شخصيتي ، لكنه لم يملأ فراغي ... فراغ حياتي .

وفي يوم غائم من أيام نيسانِ الماضي ، ولا اذكر الآن سبب التعطيل في ذلك اليوم ، جاءت إلي السيدة سناء ، وهي سيدة مسنة ، طيبة ، اعرفها منذ زمن بعيد لكونها صديقة لأسرتي ، ورجتني أن أقلها بسيارتي إلى شارع « البرلمان » ، فهي تريد ان تشتري وروداً .

كنت أحب أيام العطلة ، لأنها تسمح لي بأن أتلذذ بكسلي ؛ فأقضي نهاري أغوص تارة في مقعد ، أستمع شاردة الى المذياع ، او أستلقي تارة على الديوان الأخضر ، اقرأ كتاباً ؛

او أستقبل بعض الأصدقاء ، فنقتل الوقت بلعب الورق .
وكنت اكره الخروج من البيت وخصوصاً في الصباح .

وحين حاولتُ ان أقنعها ان باستطاعتنا ان نخابر هاتفياً بائع الورود ، ونطلب منه أن يرسل الينا باقة ، قالت مستبعدةً الفكرة :

ــ لا ... لا يا بنية ... ستكون نزهة قصيرة . كلها عشر دقائق ، ونعود . وبالمناسبة ، سنسأل بائع الورود عن الأحواض التي ذبلت عندك ... هيا بنا ...

لم أجد بداً من القبول .

فارتديت ثيابي على عجل ، وربطت خصلات شعري الأسود الطويل في مؤخرة رأسي ، والقيت على كتفي معطفي الأخضر القديم ، وذهبت معها .

لم ازين وجهي ، بل لم الق نظرة إلى نفسي في المرآة ، فقد اعتدت منذ زمن بعيد الاّ أهتم بشكلي .

وقفت سيارتي قرب الرصيف ، امام بائع الورود ، في نفس اللحظة التي وقفت فيها سيارة اخرى صغيرة ، ونزل منها رجلان ، احدهما لبنانيّ ، من معارفي .

اما الثاني ...

ويتراوح عمره بين الثامنة والثلاثين والاربعين ، فقد استرعى انتباهي طول قامته ، وامتلاء جسده ، وارتفعت نظراتي تخطف صورة الهامة الشقراء ...

وخيل لي انني رأيت هذا الوجه من قبل ... ولكن اين ؟

اين رأيته ؟

اقتربا منا ، وألقيا بالتحية على السيدة سناء ، وابتسم الاول ، ويدعى عصام :

– ريم ... صباح الخير ... أعرّفك بصديقي زياد مصطفى ... الآنسة ريم غالي ...

تذكّرتُ .

انه ذلك الموسيقي الذي سمعت الكثير من مقطوعاته ، وأنا اعزف بعضها على البيان . وقد رأيته منذ شهر تقريباً عندما رافقت صديقتي الصحفية اللبنانية نجوى ، الى حفلة أُقيمت من أجْله في بيروت . لكنني ، لسبب لا اذكره ، لم امكث في الحفلة سوى خمس دقائق لمحته خلالها من بعيد .

مددت ليده يدي ... فاختفت يدي ... حين أطبق أصابعه وصافحني . ولم ينطق بأية كلمة ، بل تأملني وهو يرفع حاجباً ، وينفث دخان غليونه ، وكأنني لحن عرض عليه ليعطي فيه رأيه .

هرول البائع يقدم الكرسي الوحيد في المكان إلى السيدة سناء ، وجلستُ أنا على الواح من الخشب مكدسةٍ قرب الحائط .

التفتَ إليّ عصام :

– منذ زمن بعيد لم نرك ... اين أنت ؟

ابتسمتُ :

– أنا في البيت دائماً ... متى اتيتَ إلى دمشق ؟

ـ منذ ثلاثة أيام ، وقد جئت لحضور حفلة زفاف صديقي عزيز ... والحفلة اليوم ...

هتفت السيدة سناء :

ـ العقبى لك ... العقبى لكم انتم الثلاثة ... أنا ايضاً ذاهبة إلى هذه الحفلة ... احب حفلات الزفاف بعكس ريم التي تكرهها . اتعلم ان زواج عزيز هو ختام حكاية حب طويلة ؟ الله ... كم تغير الزمان ! أنا عقدت قراني على زوجي دون ان أعرفه ! كيف حال اختك يا عصام ؟ وهل تزوجت « فلانة » ؟ وهل ...

ابتدأت الثرثرة !

وفي جو تكتنفه الثرثرة ، أنا املّ دائماً ؛ فنهضت ، واقتربت من البائع أساعده في انتقاء الورود ، وترتيبها .

وكنت اسمع مقاطع من الحديث ؛

وفجأة تجمّع فكري في جملة قالها عصام ردّاً عليها :

ـ لا ... سأذهب وحدي إلى الحفلة . زياد لن يرافقني ، فهو ، مثل ريم ، لا يحب هذه الحفلات .

شعرتُ بأن هذا الرأي ، على بساطته ، يقربني قليلاً من الموسيقي . وضحك عصام وهو يتابع :

ـ وظيفة زياد اليومَ سائقُ سيارة تقلّ الورود التي سأشتري !

ابتسمتُ ، والتفتّ الى الموسيقي لارحب بزمالته : ففي هذا الصباح الغائم ، نحن نقوم بنفس الوظيفة !

كان متكئاً الى الحائط ، رأسه مائل الى الوراء ، والغليون في فمه يستعطف انفاساً رحيمة ... وكانت نظراته الناقدة تنسكب عليّ من عليائه ... تتفحصني ... تقيسني ... تحملني على أمواج الدخان . ثم اختلطت هذه النظرات بخصلات شعري الهاربة من الربطة .

احمرت وجنتاي ، وارتبكتُ ! وبحركة غريزية أرتفعت يدي تحاول ان تخفي في أعماق كتلة الظلام ، هذه الخصلات الشاردة .

ونقمت على نفسي : لماذا لم أزّين وجهي قبل ان اخرج من البيت ؟ لماذا ارتديت هذا المعطف القديم ، ولم أهتمّ بتصفيف شعري ؟

إن هذا الرجل الناقد لا يهمني أمره . ولكن نظراته الفاحصة توقظ غرورَ المرأة النائم في كياني ، فيأبى ان أبدو قبيحة حتى لرجل لا يهمني أمره .

وحَمَلَتنا إلى الواقع — أنا من صخب محاكمتي نفسي ، وهو من رحلة نظراته في الدخان — صوتُ السيدة سناء :

— يا زياد ... منذ عودتك من اوروبا لم تأت لزيارتنا ... انت هنا منذ سنة تقريباً ...

— آسف ، لقد حالت أشغالي دون ذلك ، ولكن من واجبي ان ازوركم .

قال عصام :

— ما رأيك يا زياد ، ما دمتُ أنا الآن في دمشق ، في ان

نزور السيدة سناء نهار الجمعة ؟

تردّد الموسيقيّ ... والتفتَ اليّ . استدرك عصام :

– طبعاً ... ريم سترافقنا ... أليس كذلك ؟

تعلّق الجواب في عينيّ الموسيقي على كلمة ستلفظها شفتاي ، فتجاهلت ان زيارة السيدة سناء معناها رؤيتي ، وقلت :

– طبعاً .

– إذن نهار الجمعة اي بعد أربعة أيام .

– اهلاً وسهلاً ... يا اهلا وسهلا ... سانتظركم ...

ثم تلفتتْ ، تسأل البائع :

– الم تنتهِ بعد ؟

وأردفتْ :

– ان الأحواض التي اشترتها ريم منذ شهرين قد ذبلت ، فماذا تفعل ؟

ابتسم الموسيقي ، ولأول مرة وجّه إلي الكلام :

– وهل من الممكن ان تذبل الورود في بيتك ؟

أضحكني أسلوب مديحه ، فقلت هازئة :

– أأنت شاعر ام موسيقي ؟

أجاب عنه عصام :

– ألا تعلمين ان الشعر والموسيقى يجتمعان ؟ ... اتعلم يا زياد ان ريم شاعرة ؟

لم ادع للموسيقي مجالاً لكي يردّ على عصام ، وقلت :

– لقد كنت منذ شهر في الحفلة التي اقيمت من اجلك

في بيروت ...

– أحقاً ؟ هذا غريب ! كيف لم أرك ؟

– لم امكث سوى خمس دقائق .

– هذا هو السبب ، إذ انك لو بقيت لرأيتك حتماً .

دار تفكيري بسرعة :

– ان هذا الموسيقي من نوع الرجال الذي يعرف كيف يحدث المرأة ... المرأة اجمالاً ! لكنّ هذه الأساليب السطحية لا تعجبني أنا . تجاهلت ردّه ايضاً واردفت :

– لكنني آسفة لتركي الحفلة ، فقد اخبروني انك في نهايتها ، عزفت بعض الحانك .

– انا الآسف يا آنسة ؛ لكنني مستعد لأن أعزف لك كل ما عزفت هناك .

فعلّق عصام :

– على هذا ، يجب ان نزوركِ انت ايضاً ، إذا لم يكن عندك مانع . ما رأيك ... زياد ؟

– بكل سرور ...

وأحاطتني العيون السائلة ، فقلت حالاً :

– اهلاً وسهلاً ...

وكان البائع قد انتهى من اعداد الباقتين ، فحمل عصام احداهما ، لتقع الثانية بين ذراعيّ . واتجهنا نحو الباب .

اكدّ عصام :

– إذن سنجتمع عند السيدة سناء مساء الجمعة .

هززت رأسي ، موافقة . فردّد الموسيقيّ :

ـ الجمعة ١٨ ... لا تنسيْ ... سجّليها ...

ضحكت :

ـ لا حاجة بي إلى تسجيلها .

ـ انت شاعرة على ما سمعت ؛ والنسيان مرض الفنانين اجمالاً ، والشعراء خاصة !

نظرت اليه وقلت بكل هدوء :

ـ انا أنسى ما أريد ان أنسى ... ولا أنسى ما يهمني

خيّل إليّ انه لم ينتبه لما قلت ، إذ سأل :

ـ ما رقم هاتفك كي اذكّرك ؟

ألقيت ارقام هاتفي في الفضاء ، وخلتها لم تصل إلى اذنيه . وهزّ رأسه دون اكتراث ، ثم حيا السيدة سناء ، وفتح لنا باب الدكان ، وهو ينفث دخان غليونه .

وخرجتُ ...

احمل بيديّ وروداً ... وفي عينيّ دخاناً ... وفي قلبي بضع كلمات ...

٣

كانت ساعات النوم من اهنأ ساعات أيامي ... هذه الساعات التي تشبه الموت ... يغيب فيها الأنسان عن الواقع ، ويركد تفكيره ، فلا يقضي يومه متأسفاً على حياة لا يحياها ...

وكان اكثر ما يزعجني ان يخترق جوّ احلامي ليقذفني الى عالم اليقظة نباحُ الهاتف مبكراً .

كانت الساعة السابعة . تساءلت في غيظ : « من يكون هذا المتكلم النشيط ؟ هل هو احد المعجبين الرخصاء الذين يلوّثون بأصواتهم وحدتي كل يوم ؟ هؤلاء الذين لا يملكون الجرأة على التصريح بأسمائهم ، والذين يدفعهم الكبت والحرمان إلى صبّ غرائزهم في اسلاك الهاتف ، إذا ما حملت اليهم هذه الأسلاك صوتَ امرأة ؟ »

وخرجتْ تنادي دنا .

وليلى صديقتي منذ سنين . وقد متّن صداقتنا شعورَ كلتينا بالوحدة والفراغ . وكان مللها « المزمن » يخفف من مللي ، وسخطها الدائم يلهيني .

كانت لا تعمل لأن اهلها لا يوافقون ! ولم تتزوج لأن العريس الذي قد يعجبها لم يأتِ بعد ... ولا تذهب إلى أي نادٍ او حلقة او مطعم ، لأن المجتمع قد يقول ... ولأنها تخاف المجتمع !

وسمعتها تناديني :

– هيا يا ريم ... تعالي ... ستحضر القهوة ...

ولجت القاعة ، فابتدرتني :

– لعن الله هذه البلدة التي لا أجد فيها مكاناً اذهب اليه سوى بيتك !

قلت مازحة :

– يجب ان تعتبري نفسك سعيدة جداً ! أليس بيتي الجنة بعينها ؟

– « ما أثقل دمك » ! انتِ لا تطاقين !

ودخلت دنا تحمل القهوة .

– شكراً يا دنا ... يا ريم لقد انتهى ثوبي الجديد انه رائع ... رائع حتى انني حزنت حين ارتديته ، ونظرت الى نفسي في المرآة . لمن احوك اثواباً جديدة ؟ لمن ارتدي هذا الثوب ؟

تأملتها .

انها وردة في اوج تفتحها ، بحاجة الى من يسقيها ويسكر بعبيرها . لكنها تذبل ، وحيدة ، يوماً بعد يوم .

وسبح تفكيري ، وحملتني ذاكرتي إلى الوراء ، فرأيت شاباً في الثالثة والعشرين ، جميل الطلعة ، يفيض حيوية ، يأخذ الكتاب من يدي ليرميه جانباً ، وهو يقول بالفرنسية :

« تعاليْ ... تعاليْ معي لنزهة ؛ فانا أودّ أن آخذ صوراً « فوتوغرافية » لوادي اليرموك ... »

اقول : « اني تعبة ولا اودّ الخروج » فيمسك بيدي ، ويشدني : « تعالي ... يجب ان آخذ صوراً » احاول ان اقول : « انتظرني قليلاً كي اعتني بشكلي » لكنه يتابع : « هيا بنا ... يجب ان نصل الى هناك قبل غياب الشمس » .

فكّرتُ :

هل يسرني ان ألبس من أجل ألفريد ثوباً جديداً ؟ هل يروقني ان اقرأ تحت إرشاده كتاباً جديداً ؟

لا ... ان ألفريد يرى في شخصي الصديقة التي يجب عليها ان ترتدي البنطال ، وتهمل شعرها ، وتبقى رهن اشارته ؛ فتركب إلى جانبه في سيارته الفخمة ... او تظل واقفة ، وهو يأخذ صوراً لمشهد من المشاهد ... او تتسلق معه جبلاً من جبال سورية !

انه يحب مجرد شعوره بوجودي الى جانبه ، ولا يكترث ابداً لشكلي ، او عملي ، او احساسي ...

– فيم تفكرين يا ريم ؟

أجبتها بصراحة :

– في ألفريد ! فقد وصلتني منه رسالة ...

– الله ! وماذا يقول ؟

– يقول انه لن يستطيع المجيءُ في اوائل الصيف كما كان مقرّراً .

– هل ازعجك ذلك ؟

– لست ادري ... ربما ...

حدجتني ثم سألت :

– هل تحبينه ؟

– انت تعلمين يا ليلى انني لا احبه ، ولكن فضولي يُشوّقني اليه ... يسرني ان أراه بعد كل هذه الأيام ... ثم أنا اعزه كثيراً ...

ومزّقَ سمعي نداء الهاتف ، فمددت يدي اوقف النداء ، وتوقف معه حديثي عن ألفريد .

– « آلو » ... اهلاً ... سيدتي سناء ... نعم ... اليوم ؟ لماذا ... لا ... لا مانع ... في الساعة الخامسة ... شكراً ...

واعدت السماعة ببطء ، وشرحت لليلى :

– كنا قد اتفقنا ، عصام والموسيقي وأنا ، على زيارة السيدة سناء نهار الجمعة . ولكن ... يظهر انهما يريدان ان يسبقا الموعد !

– هل اعجبتك طلعة هذا الموسيقي ؟

ضحكتُ :

– لا ... انه اشقر !

– اتعرفين شيئاً عن حياته ؟

– ابداً يا ليلى ... سوى ان بعض انغامه رائع .

– أنا سمعت عنه قصصاً وحكايات ... يقولون إنه مغامر ، معدوم الأخلاق ... يلهو بالمرأة ... يغريها ... ثم يرميها ... ويظهر انه يعرف كيف يغري .

قلت بخبث :

– لاحظت ذلك ...

وتابعتُ ضاحكة :

– نعم ... انه من هؤلاء الرجال الذين يجب ان تتحاشاهم فتاة عاطفية شاعرة ... مثلي !

*

لم تطل زيارتنا للسيدة سناء ، فقد كان عندها بعض الجيران ، وكانت الأحاديث تافهة ، والجو ثقيلاً .

وعلى باب بيتها ، القى اليّ الموسيقي نظرته الناقدة ثم التفت يوجّه كلامه إلى عصام :

– الآنسة ريم تدّعي أنها لا تخرج من بيتها الا نادراً .

قلت متسائلة :

– هذا صحيح ... لماذا ؟

– قد خابرتك البارحة صباحاً ... فلم أجدكِ !

انفجرت ضاحكة :

– إذن ... إذن ... هذا انت !

نظر إليّ دهشاً :

– اكنتِ في البيت ؟ لماذا لم تجيبي ؟

– لست ادري ... وما الذي دفعك إلى مخابرتي ... مع الفجر ؟

– خابرتك قبل ان اذهب إلى مكتبي ...

– ما ظننت لحظة ان المتكلم سوف يكون انت ! كيف حفظت رقم هاتفي ؟ أليس النسيان مرض الفنانين ؟

صبّ نظراته في عيوني وقال :

– آنستي ... أنا انسى ما اريد ان انسى ، ولا انسى ما يهمني ...

اعجبتني ذاكرته ، فابتسمت دون ان اردّ . وقال عصام :

– لقد وعدتِ بأن تقدمي انا فنجاناً من القهوة .

– بكل سرور .

– هل تستقبليننا بعد ظهر الغد ؟

قاطعه الموسيقي :

– عفواً ... انا ، غداً ، اكون في المعهد ... بعد غد مساءً إذا كان ممكناً ...

– اهلاً وسهلاً ...

تساءلت وأنا اقود سيارتي متجهة الى البيت : ايكون هذا الشاب كأكثر شباننا الذين يظنون سوءاً بالفتاة اذا دعتهم الى بيتها لأخذ فنجان من القهوة ، ويجدون في ذلك سبيلاً للتبجح امام رفاقهم ؟ هؤلاء الذين يخترعون ، وينسجون قصة طويلة خيالية ، يروونها بخيلاء ... ولا يكون لهذه القصة ايّ اساس سوى فنجان من القهوة ؟

ولكن لا !

هذا الموسيقي قد عاش سنين في اوروبا ... انه حتماً يفهم تصرفاً طبيعياً كهذا ، ومن غير الممكن ان يكون سخيفاً الى هذا الحد .

٤

دخل عصام يقول :

ـ مرحباً ريم ... آنسة ليلى مساء الخير ...

وقف الموسيقيّ على عتبة الباب ، ولفّني بنظرة سريعة ، ثم تدحرجت نظراته الفاحصة شمالاً ويميناً ، تنْفضُ القاعة نفضاً ، وتعلقت على الستائر الملونة الضاحكة ... ورأيت اساريره تنبسط ، وتمتم :

ـ الله ما اجمل هذا البيت ... جميل ... جميل جداً ...

وتمشى ، متهيّباً ، وكأنه في معبد :

ـ اهنئك آنسة ريم ...

وانتبه لوجود ليلى فقال :

ـ عفواً ... مساء الخير ... كنت مأخوذاً ... ان هذا البيت

لحن ... لحن جميل ...

ضحك عصام :

– ان زياد لا يرى في الدنيا سوى الألحان ...

– ولكن ... يا عصام ... الحقيقة ... انني لم اتوقع ان اجد بيتاً كهذا في نهاية هذا الشارع النائي ... الألحان فعلاً تنبع من كل شيء فيه ... ان ذوق مضيفتنا يستحق الثناء .

لست ادري لماذا سرتني كلماته ؟ الأنه امتدح بيتي بلسان الفنان ؟ ام لأنني فهمت أنه ... سيعود اليه ...؟

وتقدمتهم الى الردهة الصفراء ؛ وابتدرتُ ليلى الموسيقيّ :

– كم مضى على وجودك في دمشق ؟

– سنة تقريباً ...

– وهل تحب دمشق ؟

– احبها ؟... انا مرتبط بها لأنها بلدتي ... لكنني امل فيها ... امل كثيراً ... حتى الحياة تموت هنا ...

– في اي بلد كنت في اوروبا ؟

– مكثت في اوروبا سبع سنوات وانا اتنقل ما بين لندن وباريس واوسلو ...

سألتُ بعفوية :

– اين تقع أوسلو ؟

اجابني عصام :

– اوسلو هي عاصمة النرويج .

التفتَ اليّ الموسيقي مستغرباً ، مدهوشاً :

– الا تعرفين اين تقع اوسلو ؟
اجبت بحياء ، موكدة :
– لا ... لم اكن اعرف ! ويؤسفني ان اعترف لك بأنني امية تماماً ، وخصوصاً في الجغرافيا ...
تأملني جيداً ، وكأن ما قلته فلسفةٌ عميقة يحاول ان يستوعبها ... ثم قال :
– تعجبني صراحتك ... قلما توجد فتاة تعترف بجهلها في هذا البلد !
سألته ليلى متحدية :
– ألا تحب فتيات هذا البلد ؟
أجاب ضاحكاً :
– يا آنسة ... احب المرأة في كل مكان !
لحظتْني وهي تبتسم بخبث ، ثم سألتْ :
– ما رأيك في نساء اوروبا وفي نسائنا ؟
– الفارق شاسع ، ولا مجال للمقارنة . الفتاة هنا اولا ليست مثقفة ... و ...
قاطعتْه محتجة :
– بل كثيرات من فتياتنا مثقفات ويحملن الشهادات العالية ..
– انك تخلطين ما بين العلم والثقافة ... الثقافة ليست في حفظ بعض الكتب المدرسية او الجامعية ... الثقافة هي الالمام بكل شيء ... هي تفهم الحياة التي نحيا ، من جميع نواحيها ... الفتيات المثقفات هنا نادرات جداً ... اما الفتاة المتعلمة فهي

لا تطاق ، لأن علمها عوضاً عن ان يمحي السخافة التي تتحلى بها ، يزيدها غروراً !

وقال هذه الجملة الأخيرة وهو ينظر اليّ . فقلت حالاً وأنا ارفع يديّ بصورة عفوية ، كأنني اريد ان احتمي من كلماته :

– لا تنظر اليّ ... انا لست متعلمة ... ولست مثقفة ايضاً ...

غرق في الضحك ... ثم سأل :

– انتِ ؟ كيف تقضين اوقاتك ؟

تبادلت مع ليلى نظرة ساخرة ، واجبت :

– نحن ... نأكل ...!

فغر فاه :

– ماذا ؟

أجبته مؤكدة :

– نأكل ! الأكل من لذات الحياة !

هزّ رأسَه مستنكراً :

– أليس من الحرام ان تعيشوا للأكل ؟

أجابته ليلى :

– من قال إنّا نعيش ؟ وهل يسمح مجتمعنا للفتاة بأن تعيش ؟

– المجتمع ... المجتمع !!! لماذا تلومون دائماً المجتمع ؟ الفتاة هي الملوم . لقد حرّرها المجتمع هذه الأيام ، لكنها ما زالت متحفظة الى درجة السخافة لأن تفكيرها محدود ...

وتحفظها مصطنع ! نعم مصطنع ! فهي مستعدة لأن تذهب في كل وقت مع الرجل ، لكنها تخلق مشاكل ، وتحاول ان تظهر بثوب المتحفظة وتجعل الرجل يعتقد انه يعيش في رواية بوليسية ! وبعد كل هذا تتطلب عاطفة وحباً ... في اوروبا ، كنت ادعو فتاة إلى العشاء فتقبل ... وفي نهاية السهرة كانت تتبعني الى شقتي بصورة طبيعية جداً ... مع علمها بأنني قد لا اجتمع بها مرة اخرى بعد تلك الليلة .. هذه الفتاة احترمها ...

ذهلتُ ... وحدقت اليه متفحصة :

ما نوع هذا الرجل ؟ وهل يمكن ان يحترم هؤلاء الفتيات ؟

واردف :

– نعم ... الفتاة الاوروبية تفكيرها واسع ... ان الحياة هناك عملية ، واقعية ، بينما نحن نعيش في الخيال ... وتفكير فتاتنا ... محدود ... محدود ...

أزعجتني آراؤه ، وتضايقت من احكامه الخاطئة ، وقيَمه المغلوطة ، فقلت بانفعال :

– الهي ... كم انت مخطئ ! نعم ... قد تكون الفتاة هنا متحفظة اكثر من اللزوم ... قد تكون خبيثة ولكن هذا ليس سخفاً ! فالفتاة تخاف المجتمع ... تخاف ان تلوث سمعتها ألسنةُ السوء ، وان تحطّم مستقبلها الأقاويل ... اما هذه الحياة التي تتحدث عنها انت ، فهي « انحلالية » ! انا لا اقبل ابداً ان تتدهور العاطفة عندنا الى مستوى الأكل والشراب !

انا لا افهم اية علاقة تقوم بدون عاطفة ! أما ان تصبح العاطفة مادية فهذا موسف !

ابتسم وقال :

– وهل تؤمنين بالحب العذري ؟ حقاً أنت شاعرة وصغيرة ... أما انا فقد علمتني التجارب ان العاطفة كلها زائفة ، والحب ليس الا المادة ... والواقع ... استعمل خيالك للشعر ... وعيشي الواقع ...

فكرت متعجبة : كيف يستطيع هذا الشخص ان يؤلف مقطوعات موسيقية رائعة وهو لا يعترف بالعاطفة ؟ ويظهر ان الفكرة خطرت في بال ليلى ، اذ سألتْه :

– أنت مؤلف فقط أليس كذلك ؟

– نعم ...

– كيف تستطيع ان تؤلف مقطوعات تفيض عاطفةً وأنت لا تعترف بالعاطفة ؟

– انا احب فني ... انا اعبد فني ... ومن فني استمدّ العاطفة لأردّها اليه ...

أطربني جوابه ، فابتسمتُ . وسألتْ ليلى بفضول :

– حين تؤلف مقطوعاتك على اية آلة تعزفها قبل ان تدفعها إلى الجوقة الموسيقية ؟

اجبتُها ضاحكة :

– على الأهداب ... الجميلة ...

ابتسم :

ـ هذا شعر يا آنستي ... لكنه حقيقة ! اهداب العيون الجميلة هي الحان ، وأعزفها على أوتار قلبي ...

ثم التفتَ الى ليلى :

ـ الحقيقة انني اعزف على القيثارة ، ولو كانت قيثارتي معي لعزفت لكم ...

قالت :

ـ سمعت البارحة مقطوعة لك اذيعت من محطة دمشق ...

ـ احقاً ؟ وهل اعجبتك ؟

ـ جميلة جداً ... وريم ايضاً سمعتها .

التفتَ اليّ فقلت :

ـ أنا لم تعجبني !

انقلبت سحنته ، وحملق فيّ ، وكأنه لم يسمع هذه الجملة في حياته من قبل :

ـ لم تعجبك ؟ كيف لم تعجبك وقد اعجبت الجميع ؟

ـ انا لست « الجميع » يا سيدي ! ثم ... اما ان ذوقي يختلف عن ذوق الآخرين ... واما انني صريحة اكثر من اللزوم!

ظل ينظر اليّ مستنكراً ، ثم سأل بالرغم منه :

ـ وماذا لم يعجبك فيها ؟

ـ مطلعها الخفيف الضاحك الذي لا يتناسب مطلقاً وبقية المقاطع !

شعرتُ بأنه يفكر فيما اقول ... ثم سأل مازحاً :

ـ كيف تتجرئين وتنتقدين مقطوعتي ؟ وهل تفهمين أنت

الموسيقى ؟
– لا !
ضحك :
– الحمد لله ... الحمد لله ...
وتوالت التعليقات ، ثم قال :
– آنستي ، لقد شاهدت المكتبة في القاعة ، فهل استطيع ان القي نظرة على الكتب ...
– طبعاً ...
وخرج اربعتنا الى القاعة .
قال :
– ان مكتبتك قيّمة ! هل قرأت جميع هذه الكتب ؟
علا رنين ضحكي :
– مجرد سؤالك مديحٌ كبير لا استحقه ... وأشكرك عليه .
ضحك بدوره :
– تعجبني أجوبتك السريعة ... في بعض الأحيان !
ودخلت دنا تحمل القهوة .
فاخذت منها ليلى الصينية ، واتجهت نحو الردهة الصفراء يتبعها عصام .
وبقي هو ؛ ينظر الى المكتبة ، وانا ... انظر اليه ...
ما الذي يستهويني في هذا الرجل ؟
عيناه ؟
انني اكره العيون الزرق !

لكن سماء عينيه تجعلني اتمنى لو اجد فيهما شيئاً من الحنان... شيئاً من الأنسانية ... شيئاً من السماء ذاتها ، عوضاً عن هذه النظرة المادية الفاحصة التي تنبع من الأرض ... وتريد أن تلتهم الحياة ... وما فيها من جمال ...

كان يقلّب صفحات كتاب لكافكا – *Kafga* – سألته :

– هل قرأتَ هذا الكتاب ؟

– لا ... ولكني سمعت عنه ... هل قرأته انتِ ؟

– قرأت جزءاً منه ولم استطع المتابعة ، فالنفس تنقبض لقراءته ، يشعر الأنسان بأنه في قاع بئر مظلمة ، لا يستطيع الخروج منها ... منذ الصفحات الاولى ... كدت اختنق ..

نظر اليّ نظرة ماكرة ، وقال فوراً :

– ليتك تابعت قراءته !!!

غرقت في الضحك ، وفي صخب ضحكي فكرت ؛ غريب ! يخيل الى الفتاة ، عندما تتحدث مع فنان ، وخصوصاً مع موسيقي ، ان سمعها سيمتلىء بكلمات تنبض بالعاطفة ... كلمات يُزهر فيها المديح ، وتذوب فيها الرقة ... تعتقد انها ستستمع إلى انغام رصّعت بنظرات عينيها ... واشعار غُزلت من سحر اهدابها ... وان الفنان سيكون قبالتها كالشمعة ... تنهمر كلماته لهباً ، ويذوب ... يذوب عاطفة ...

هكذا كان يخيل لي انا على الأقل ! وإذا بي أمام رجل لا يمتّ الى الخيال او العاطفة او النعومة بأية صلة ! وسرني ذلك ، اعجبتني واقعيته وصراحته ، وتذكرت فجأة والدي ، واجوبته

الحادة اللاذعة ... فابتسمت بحنان ... وعدت اسأل الموسيقي :

ــ ألا تريد ان تشرب القهوة ؟

اجابني بلهجة متحذلقة ، بدت طبيعية لأنه تعوّدها :

ــ كما تريدين يا حبيبتي ...

امحت حالاً الابتسامة من على ثغري ، وتجمدت الدموع في عينيّ ، وسكتّ ...

ولاحظ امتقاع وجهي المفاجئ ، فقال بسخرية قاسية :

ــ ارجو المعذرة ان أنا خدشت طهارتك بهذه الكلمة ! كم شرقنا متأخر !

حادثة بسيطة ... وكلمة صغيرة : « حبيبتي »

لا ... لا ... لم يفهم ...

لم يفهم ان نظرتي بائسة ... معاتبة ...

لم يفهم انني محرومة من هذه الكلمة ، وانني مستعدة لأن ادفع حياتي ثمناً لها ، اذا همسها رجل باخلاص وهو ينظر إليّ برفق وحنان .

اما هو ، فقد اصبحت هذه الكلمة عنده نقداً متداولاً او نغمة ناشزة يدفعها الى شفتيه كل وجه مشرق يصادفه ...

ما اقبح النغمات الناشزة ... على شفتيّ موسيقي !

ولكن ...

ماذا يجدي تأثري وانزعاجي ؟ سيعتقد انني اتصنع التحفظ والحياء ، ولن يفهم ... لا ... لن يفهم ان هذه الكلمة الصغيرة اصابت وتراً حساساً في اعماقي ، وما تعابير وجهي الا اهتزاز

هذا الوتر وارتجافه ...

لا ... لن يفهم ! انه مادي ، واقعي ، فلماذا لا أخاطبه بلغته ؟

ملكت اعصابي ، وقلت بهزء وترفع :

ـ لم تخدش طهارتي ... إنما اسأت إلى ذوقي الفني ... فأنا اعبد الحرف كما تعبد انت النوته ، واحب الكلمة كما تحب انت النغمة ... لذلك يزعجني كثيراً ان تُستعمل الكلمة في غير موضعها ، ولغير مدلولها ...

ادهشته كلماتي ، فتأملني ملياً ... وتمتم بطفولة :

ـ قد تكونين على حق ! فالكلمة عندي قد فقدت معناها الصحيح ...

ثم ضحك وقال :

ـ سأحاول جهدي ان أراعي في المستقبل ذوقك الفني ...

٥

بعد يومين ، وصلت صديقتي الصحفية اللبنانية نجوى لتقيم عندي بضعة أيام .

ونجوى صديقة من أيام المدرسة ، لكنها ، بعد حصولنا معاً على شهادة « البكالوريا » ، رحلت الى بيروت ، والتحقت بالصحافة ، وأصبحتُ لا أراها إلا نادراً ، حين تأتي الى دمشق ، او في بعض الأحيان حين اذهب انا الى بيروت .

سررت لمجيئها ، فقد يتغير هذا الجو البليد في منزلي لبضعة أيام . فهي مرحة ، تفيض حيوية ؛ وحلوة ، يضيءُ سمرتها الحادة بريقُ الذكاء في عينيها .

وقد جاءت هذه المرة بمهمة صحفية ، وطلبت مني ان اساعدها ، وان آخذ لها موعداً من ثلاثة اشخاص معيّنين :

سياسي ، واديب ، وفنان .

تكرم علينا وزير المعارف بربع ساعة من وقته ، اما الأديب الدكتور عدنان ، وهو صديق لوالدي ، فقد دعوته شخصياً ليسهر معنا بعد يومين .

وترددتُ ... حين اقتربتْ مني تقول :

— هيا ... لم يبق إلاّ زيـاد مصطفى وانت تعرفينه ... ارجوك ... خابريه ...

هذا الموسيقي يثير في نفسي الكبرياء ! لماذا اخابره ؟ أنا لا اريده ان يظنني مهتمة به ! انا لست مهتمة به !

لكنني عدت اسائل نفسي ؛ لماذا علت شفتيّ الابتسامة هذا الصباح عندما قالت لي دنا :

« لقد خابرك الاستاذ زياد فقلت انك نائمة ... »

ثم لماذا ، وانا في سوق الحميدية مع نجوى ، راود خاطري هذا الاسم ، وعدت اسأل دنا بلهفة ان كان قد خابرني احد ؟

لماذا احمرت وجنتاي ، وبلعتُ ابتسامتي حين قالت :

« الاستاذ زياد ... وهو يرجوك ان تخابريه ... »

لقد خابرني مرتين اليوم ، وأعترفُ بأنني سررت ...

ورددتْ نجوى :

— ارجوك ريم ... اتصلي به ...

اقتربتُ بحزم من الهاتف ، وبتحدٍ ، ادرت رقمه ، فردّ حالاً وكأنه في انتظار مخابرتي :

– واخيراً ... يا آنستي انه من المستحيل ان يتصل بك الانسان ... اما انك لا تردّين ، لسبب اجهله ! او انك نائمة ... او انك غير موجودة !

– اهلاً ... اصحيح انك خابرتني اليوم ؟

لفظتُ هذه الجملةَ السخيفة ... كبريائي ، فقد اردت ان اقنع نفسي بأنني احدثه فقط ، لانه طلب ذلك !

– نعم آنستي ... خابرتك مرتين ... لا لشيءٍ سوى سماع صوتك والسؤال عنك ...

ضحكتُ :

– شكراً لك ...

– هل كنتِ هذا الصباح في السفارة الالمانية ؟

– لا ... لماذا ؟

– لقد شاهدت من نافذة غرفتي سيارة تشبه سيارتك تقف الى جانب الرصيف . فبقيت انتظر صاحبها ... ثم اعتقد انني شردت لحظة ، فاختفت السيارة ولم ارك !

تساءلت حالاً : أأنا مهتمة به ؟ ام مهتمة باهتمامه بي ؟

حدثته عن نجوى ، ثم اعطيتها السماعة ، وسمعتها تقول :

– اهلاً وسهلاً ... تشرفنا استاذ ... من لبنان ... نعم ... انا عند ريم طبعاً ... نعم سأزورك ... سأحاول ... شكراً ... نعم ... انها الى جانبي ... ساقول لها . شكراً ... مع السلامة ...

واقفلت الخط وهي تقول :

– يريدني ان اخابره غداً لنتفق على موعد . وهو يهديك

السلام .

*

عدت في اليوم التالي من الوظيفة مرهقة الاعصاب ، فقد تراكمت أوراق الحسابات خلال عطلتي ، وتغيّب الكثيرون من الزملاء .

خلعت ملابسي ، وارتديت ثوباً منزلياً بسيطاً ، وجلست اقرأ كتاباً بانتظار نجوى .

ولم يطل انتظاري ، فقد وصلت كالعاصفة بعد لحظات .

ــ لقد تأخرتُ ... آسفة ...

ــ لا بأس ... انا لست جائعة ...

ــ كان حديثي مع وزيركم ممتعاً ... انه لطيف جداً ... جداً ... ستكون المقالة رائعة ! قابلت ايضاً الامين العام ، وقال انه يعرفك ، وهو يبعث اليك بسلامه ... أتعلمين ان برنامج « البكالوريا » سيطرأ عليه تعديل في السنة المقبلة ...؟

ودخلت دنا تقطع ثرثرة نجوى :

ــ آنسة ... الطعام جاهز ...

ــ شكراً يا دنا ...

ــ ريم ... هل تشرحين لي كيف لا يعترفون هنا في الجامعة السورية بقسمي « البكالوريا » الفرنسية ؟ انها مقبولة في كل جامعات الدنيا ...! نعم انا اعرف ان سوريا على خلاف مع فرنسا ، ولكن السياسة والمشاعر شيء ، والعلم شيء آخر ! العلم فوق كل شيء

قلت بدون مبالاة :

– قد تكون هناك اسباب نجهلها ...

– نعم ... سألت عن هذه الأسباب فقيل « إنه قانون »

قلت مازحة :

– اذن... هذا هو السبب... انه قانون! والآن هيا بنا نأكل..

وتقدّمتها الى غرفة الطعام . تبعتني اقوالُها :

– انت ايضاً ! هل تكفيك كلمة قانون لتتقبلي اشياء لا تفهمينها ؟ اشياء غير منطقية ؟

– الحقيقة ان هذا الموضوع لا يهمني ! تعالي لقد برد الطعام.

وجاءت :

– ريم ... هذا الموضوع لا يهمك لكنه قد يهم الكثيرين ؟ فماذا تراهم يقولون ؟

ضحكتُ :

– لا تتعبي نفسك بالبحث عن هؤلاء الكثيرين لأنهم سيقولون : انه قانون !

– انا لا افهم ... لا افهم ! الافضل ان نأكل !

والتهمتْ طعامها بسرعة :

– يجب ان اكتب حديثي مع الوزير وأنقحه .

وخرجتْ الى القاعة ، وجلستْ وراء الطاولة ، وغرقت في تسجيل الاسئلة والأجوبة .

تبعتُها ، واستلقيت على الديوان الأخضر ، احدق الى السقف ، باحثة عن نقاط سود ... او خيط عنكبوت يلوّن

بالحياة هذا البياض الواسع الذي يشبه العدم ، واستمعُ الى حديث نجوى المتقطع :

– هل حدثتك عن مشاريعي ؟ في السنة القادمة ، سأصدر مجلة فنية ...

وترجع الى مقالتها ، لترفع رأسها بعد قليل :

– هل اخبرتك انني قد اذهب الى اوروبا بمهمة صحفية ؟

وتسكت فترة :

– اتعلمين ؟ يخطر ببالي احياناً ان اتزوج !

كنت اعرف قصصها ، ومشاريعها التي لا تنفد ابداً ، وحيويتها التي لا تعرف الكلل !

وقاربت الساعة السادسة ، واذا بها تقول فجأة :

– انتهيت ! ارجوك الآن ان توصليني الى بيت زياد مصطفى

– ماذا ؟ هل اخذتِ منه موعداً ؟

– لا ... يجب ان اخابره اليوم ، لكنني اعتقد أنه في البيت ، وسأذهب اليه حالاً ... فانا اريد ان انتهي من حديثي معه ايضاً ..

– انا لا اعرف بيته !

– كيف لا تعرفين بيته ؟

– أؤكد لك ...

وفجأة تذكرت حديثه ، حين خابرته البارحة ، فقلت :

– اعرف على الأقل الحي ... سأوصلك إذا شئت بشرط ان اعود حالاً ...

– هيا بنا ... لا حاجة بك الى ان تُعنيْ بشكلك ، ما دمت

ستعودين .

نهضت متثاقلة ، وخرجنا من البيت معاً .

*

أوقفت سيارتي قرب السفارة الالمانية ، وقلت لنجوى إنه يسكن في احدى شقات هذه البناية المواجهة ، فنزلت من السيارة وهي تقول :

ــ ارجوك ... انتظريني قليلاً ... فقد لا اجده ... دقيقة واحدة ...

وانتظرت ...

وانتظرت ... لم تعد ! وفجأة ، كان هو يفتح باب سيارتي ويقول :

ــ لماذا انت هنا ؟

ــ مساء الخير ... اين نجوى ؟

ــ انها تنتظرك عندي ... فقد اخبرتني انك ستعودين حالاً لى البيت ، فأسرعت كي ادعوك .

ــ شكراً ... ولكن ... يجب ان اعود ....

ــ آنستي ... انه لشرف لي ان تزوريني ... يسرني كثيراً ان تريْ بيتي ...

ورنا اليّ بطفولة ... راجياً ، وجاءت يده تنشد قبولاً ، وتمتم :

ــ ارجوك ...

اعجبتني نظرته ، وسرني اهتمامه ، فراحت يدي تتكئ

على يده ... ونزلت من السيارة .

*

– هذه غرفتي الخاصة ...

وقفت مستغربة ، ثم جذلى ، وسط هذه الغرفة الأليفة ، احاول ان التهم بعيوني كل ما يحيطني . شردت عن كل شيء ... ونسيت كل شيء ...

نسيت انني هنا ، لأول مرة ، ازور الموسيقي ، نسيت ان اردّ عليه وهو يردّد « اهلاً وسهلاً ... اهلاً وسهلاً ... »

نسيت ان نجوى تنظر الي مغتاظة ، وتنتظر متحرقة ، جلوسي كي تبدأ حديثها معه ، ونسيت غروري كامرأة ، ولم يعد يعكّر صفوي ان شعري مهمل يتهدّل على اكتافي ، وانني البس الخفّ المقطع ، وثوباً منزلياً بسيطاً ...

فالدفء الذي يهفّ من كل زاوية ، من كل ناحية ، يُشعرني بأنني لست غريبة في هذا الجو الشاعري ...

وكيف اكون غريبة ؟ وانا حبيبة الشعر ... وابنة الدفء والحياة ؟

شعرت براحة تتغلغل في روحي ، ودارت نظراتي بسرعة . خيل لي ان اثاث بيت بكامله حُشر في هذه الغرفة فبدت صغيرة على سعتها .

الفوضى تتربع على عرشها ، لكنها فوضى منسقة ، فوضى لها جمالها ، ومنسجمة وروح الألحان ...

... كتب نائمة على الارض ، في الركن ، تترقّب بصبر

صديقاً يقرأها ...

... ديوان أحمر ينتظر من ينفخ في احضانه همسات حب فيختلج الحديد في جنباته ...

... لوحات مكدسة ، تئن ، وترفع وجوهها نحو الجدران تسألها : « هل من مكان ؟ » ..

واسترعت انتباهي كثرة منافض السجاير المبعثرة في كل مكان . واقتربتُ من المقعد المجلل برسوم « البيكاسو » ، وتخيلت هذا المقعد ، حين تُسدل الستائر المشابهة له ، وتنعكس عليه الأنوار الخافتة ، ويملأُ فراغَه انسانٌ شارد ، تتسرب من انامله الحان ساحرة ... هذا المقعد يصبح نبعَ حياة ... والتفتّ الى الموسيقي .

كان يراقبني قلقاً ... قال بابتسامة طفلة :

– هل اعجبتك غرفتي ؟

– رائعة ... رائعة ...

واردفتُ ضاحكة :

– لكن يلزمني فترة طويلة ، طويلة كي استوعب كل محتوياتها ...

وسألتْ نجوى :

– استاذ زياد ... هل نبدأ حديثنا .

– تفضلي .

ابتعدت عنهما ، وجلست على كرسي صغير قرب الكتب ، ومددت يدي ابحث عن كتاب ... او سطر في كتاب ... او

حرف في كتاب ... يحدّثني عن مضيفي . لكنّ الحديث جاء من تلقاء نفسه يروي فضولي :

– استاذ زياد كم عمرك ؟

ضحك ، فاستدركتْ :

– هل يضايقك سؤالي ؟

– لا ... ابداً ... انما جوابي يضايقني ! أنا يا آنستي في التاسعة والثلاثين ...

– منذ متى ابتدأت تؤلف ؟

– منذ الازل ! انا لا استطيع ان افكر انني لم اؤلف دائماً .

– عظيم ... استاذ ... عندي سؤال : لماذا لم تتزوج ؟

عجبتُ ! هذا سؤال شخصي لا يسأل ! اين ذوق نجوى وحسها المرهف ؟ هل قتلتهما مهنة الصحافة ؟ وازداد عجبي حين ردّ عليها بلهجة طبيعية ... لهجة من تعوّد اسئلة الصحفيين .

– قضيت سبع سنوات في اوروبا وما اردت يوماً ان اتزوج فتاة اوروبية . اعتقد ان هذا هو السبب الرئيسي ...

– ما رأيك في الزواج ؟

اجبتها انا فوراً :

– مؤسسة فاشلة !

ضحك وقال :

– سجلي آراء الشاعرة ، فمن الغريب ان آراءنا دائماً متشابهة ... نعم مؤسسة فاشلة خصوصاً اذا كان احدهما

فناناً . فالزواج رتابة ، والرتابة تقتل الفن ! ثم انا شخصياً اعبد الحرية ...

– ما رأيكَ في الحب ؟

– الحب عاطفة سخيفة وزائلة ... الحب وهم ...! انا لا احب !

لماذا شعرتُ بانقباض ؟ ما همني اذا احب ام لم يحب ؟ ما همني اذا كان مادياً وكانت عواطفه سطحية ؟

حاولتُ ان ادفن انزعاجي في صفحات كتاب في يدي ، فلا استمع الى اقوالهما . لكنّ سؤال نجوى اعادني الى الانصات :

– هل تحب الشعر ؟

التفت اليّ وتأملني ضاحكاً ، وكأن الشِعر قد تجسم في شخصي ، وهتف :

– احبه كثيراً ...

ضحكتُ بالرغم مني وقلت :

– لا ... من دون مجاملة ... إذا كنت لا تحبه فهذا لن يزعجني !

– أؤكد لكِ انني احبه ... احب الشعر ... والشعراء ... اما الشاعرات ...

قاطعتُه :

– دع جملتك من غير تعليق ... تكن اجمل !

– لكِ الحق .

– هل انتَ من محبذي الشعر الحديث ؟

قلت فوراً :

– طبعاً !

هزّ اكتافه مطاوعاً :

– هكذا امرتْ !

– إذن ما رأيك في الشعر الحديث وفي الشعر القديم ؟

اجبت أنا ايضاً :

– لا مجال للمقارنة ... فلكل عصر نوعه وأسلوبه ...

ضحك :

– هنا ايضاً سجلي آراء الشاعرة ... من الخطأ ان نحاول وضع الأسلوبين في ميزان واحد ؛ أنا مغرم بالشعر القديم ولكن هذا لا يعني انني ناقم على الشعر الحديث وانني احاربه . على العكس ، انا اعتقد ان الشعر الحديث هو الذي يتماشى وعصرنا ... انه يصوّر حياتنا الآن ... الحياة اليومية التي نعيش ... بسرعتها ، وتقدمها ، واشيائها الصغيرة ، وتفاهاتها ايضاً ...

– اما فكرت في ان تكتب الشعر ؟

– بلى ... حاولت ان انظم ، حاولت ان ارسم ، ثم تركت جميع هذه الفنون لأصب كل اهتمامي في الموسيقى ...

– هل تتكرم وتعزف لنا شيئاً الآن ؟

ضحك مرة اخرى :

– أهذا ايضاً من جملة اسئلتك ؟

– انه الأخير ... إذا أردت ...

حمل القيثارة ، فحملتُ الكرسي الصغير ، واقتربت منه ... وانطلقت الألحان ...

ولأول مرة ، غابت نظراتي في أنامل سحرية بدت كحوريات صغيرات يرقصن على أسلاك من نور ، وسبحت نفسي في دنيا عبقة ، ومرت ساعة ، وعجبت ، كيف تمر ساعة من عمري دون ان اشعر بطولها ...

وحين وقفنا نبغي الأنصراف ، صافح زياد نجوى وسألها :

– هل تبقين طويلاً في دمشق ؟

– خمسة أيام .

– إذن يجب ان نجتمع مرة ثانية قبل ذهابك ... ما رأي الشاعرة ؟

التفتّ اليه ؛

كان مكتّف اليدين ... ترفّ أهدابه لدخان لفافته ، والجمر الأحمر يلتهم الهيفاء البيضاء ببطء ... ولكن حطامها يظلّ متماسكاً ، وكأنه يأبى مفارقة شفتيه ، والسقوط على الأرض .

بصورة عفوية مددت يدي ، وبسطتها ، التقط في راحتي الرمادَ المتماسك المرتجف ...

حدق إليّ مذهولاً ... وارتفعت يده فوراً تضمّ يدي ... فاشتعلت يدي ... واحسستها هي الأخرى تمسي رماداً ...

سحبتها برقّة وحذر ... واستدركتُ اجيبه :

– طبعاً ... يجب ان نجتمع ... بالمناسبة ... هل تستطيع

غداً ان تقضي سهرتك معنا ؟ سيأتي بعض الاصدقاء ...

ظل ينظر إليّ ، مأخوذاً بالحركة البسيطة ... ثم دمدم :

– بكل سرور ...

– إذن ... الى الغد ...

٦

ماذا ارتدي ؟

الثوب الرمادي العريض ؟ ام البنفسجيّ الضيق ؟ عذّبني الاختيار ... واخيراً قررت ان البس الثوب الأسود لأن هذا اللون يوحي اليّ بالرفعة والسمو ...

ولأول مرة تأخرت في تصفيف شعري وعقصه ، أردت ان ابدو جميلة ، فالجمال يعطي الفتاة قوة وكبرياء ...

امتلأ جو الردهة بالضوضاء ... كانت نجوى في الركن تتحدث مع الدكتور عدنان ، وتلقي عليه اسئلتها المعتادة : « كم عمرك ... ما رأيك ... الخ » وكانت ليلى تلغط معهما ، ولا تترك مجالاً لأجوبة الأديب !

وكان خالي سمير ، وعصام ، وناديا وصديقان آخران يتحدثون ويتناقشون ...

اما هو ، فكان يستمع إلى الجميع ، ويهز رأسه ببرود . شعرت بأن الملل يتسرب الى نفسه ، وصدق شعوري ، إذ لم يلبث ان وقف ، وانسلّ من بينهم ... الى القاعة . تبعتُه .

نظر إليّ وقال دون اكتراث :

– ثوبك جميل ...

ثم التفت يتفحص الكتب من جديد . جلست اداعب اصابع البيان .

اعاد كتاباً في يده الى مكانه ... واقترب ... وجلس قبالتي على كرسيّ صغير ... يقول :

– أنت مثلي تملّين بسرعة ...

هززت رأسي ، وابتسمتُ ...

– لماذا تعيشين في هذه البلدة ، وباستطاعتك ان تذهبي اينما تشائين ؟

– بل أنا ابنة هذه البلدة ، واحبها ... احبها من كل قلبي ...

استوضحني هازئاً :

– وماذا تحبين في هذه البلدة الميتة ؟

شعرت بشيء من الشفقة عليه : كيف لا يقدّر جمال بلدتنا ؟ وشردت نظراتي ، وانسابت كلماتي مفعمة بالحنين :

– احبّ ... احبّ لياليها ... وسماءها الواسعة الرحبة ...

احب شمسها المحرقة ، واللهب الذي تزفره شوارعُنا ايام الصيف. احب في الشتاء شوقنا إلى المطر ... وخوفنا من الرعود ... وهذياننا أمام الثلج ... احب أنهارها ... هذه الشرايين التي تلوّن بالاخضرار واحتنا ... ماذا احب في بلدتي ؟ وماذا لا احب فيها ؟ احبّ حتى الأحجار المهملة التي ترتمي على الرصيف الى جانب بيتي ... والهواء الحار الممزوج بالغبار الذي يوجع عيوني ... وفنجان قهوتنا ؟ وهل هناك ما هو اطيب من فنجان قهوتنا ؟ نعم احب بلدتي ... وكم تمنيت لو كان اهلها كأرضها ، طيبين ... لكنني احبّهم برغم سيئاتهم ، نعم احب حتى هذا المجتمع الذي يحاول احياناً تحطيمي ، وتحطيم كل فرد يريد ان يحيا ...

كان يصْغي إليّ ، ساكناً ، مبتسماً ... ثم قال :

— غريب ... غريب جداً ... انك عكس ما كنت اتصور ... انك حساسة جداً ... جداً ... وروحك ، وأنت تتحدثين ، تُطلّ من عينيك ... ان ما تقولينه لشعر ... هل تكتبين كل هذه الاشياء التي تقولين ؟ لماذا لا تكتبين دوماً ؟ لماذا لا يكون انتاجك ضخماً ؟ نحن بحاجة الى شاعرات ، إلى اديبات ، الى أصوات نسائية ترتفع ... وترتفع ...

ابتسمتُ بحزن ... سأل :

— هل تحبين الموسيقى ؟

— كان هدفي فيما مضى ان ادرس الموسيقى ، بل لقد درست قليلاً منها في الماضي ... لكن هدفي تحطمّ ، ككل

الأهداف التي رسمت ، فقد رفض اهلي ان أكمل دراستي ، ولم يشجعني احد ... نعم حطّموا كل اهدافي ، ويومها لم اكن املك الامكانيات المادية والقوة المعنوية للتمرد على الجميع ...

قاطعني :

ـ ولكن ... الآن ؟

ـ الآن ؟ تأخرتُ ... لكن ... من يدري ربما اكملت دراستي ...

وسكتّ ... وأنا أراقب امتزاج اصابعي باصابع البيان ، وهو الى جانبي يراقبني ...

ـ أنا اعزف بعض مقطوعاتك ... واحب خصوصاً هذه ...

وحاولت ان اعزفها وانا اشرح :

ـ احبّها ... انها توحي اليّ بعاطفة تنمو ... تزهر ... يضوع طيبها ... هنا مثلاً ... هذه النوتة ... جميلة جداً ... اوج العاطفة ... قمة الحب ... ثم هنا ... تفقد من حدتّها ... تنخفض ... وتتلاشى شيئاً فشيئاً ... ثم هنا كان لا بد ان تموت ... وماتت ...

كانت الدهشة في عينيه تستقبل كلماتي :

ـ اتعلمين ان هذه هي مقطوعتي المفضلة ؟ وانك اول انسانة تفهمها تماماً ... تماماً ... هذا غريب ...

ـ انها واقعية جداً ... تصوّر حياتنا ... هي قصة الزهور ... قصة الأنسان الذي يوجد في الدنيا وحين يعتقد انه سيؤكد

وجوده ... يموت ... قصة الحب الذي قد يصل إلى درجة الجنون ... ثم يفتر ... وينطفئ

ابتسم :

– هل تصدقين فعلاً ان هناك شيئاً يدعى حبّاً ؟

لم اردّ ، وانتظرت آراءه :

– الحب هو الأعجاب بكل شيءٍ جميل ... هو لذة موقتة ... لذة اللحظة ... هذا هو الحب .

لم اكن موافقة مطلقاً على رأيه ، لكنني ابتسمت دون ان اجيب ، وتابعت مداعبة اصابع البيان ...

قرّبَ وجهه ... حتى كاد ان يلامس يدي ، وقال بهمس :

– ما اجمل يديك ... تقطران انوثة ... بعد روحك الشفافة ، اجمل ما فيك يداك ...

وبكل هدوء ، امرّ شفتيه على أناملي ...

احسست بقشعريرة تسري في جسدي ، ما قصتي مع هذا الرجل ؟ انا اعرف الكثيرين من الرجال ، بل ان اكثر اصدقائي من الرجال ، فما بالي ارتجف لشفتين تلامسان أناملي ؟ أهو سحره ؟ ام وقاحته ؟ ام التحدي الذي اشعر به في داخلي ، نحو رجل لا يريد سوى اللهو ؟

وملأتني النقمة .

أنا بحاجة الى ان اقول له : « انا اعرف قصدك ... اعرف انك تبحث عن وجه جديد تضيفه الى ضحاياك ، اعرف ان وحدتي غرّتك ، اعرف قصصك ... ومغامراتك الكثيرة ،

أعرف ... اعرف ... »

هذا الرجل وقح ... يعتقد ان الفتيات « مواد » او بضاعة يشتريها بهمساته ...

لماذا لا اصفعه ؟

ما الذي يمنعني ، وانا في بيتي من ان اقذفه إلى الشارع ؟

ولكن لا ...

شعرت بضرورة افهام هذا الرجل ، انني غير تلك الفتاة التي يظن !

وكأن التحدي ، الذي كبر في نفسي ، دفعني الى احتماله ، والتغاضي عن تصرفه ، لأعلمه ، مع الأيام ان الحياة قيم يجب مراعاتها ، وان تجارة العواطف خاسرة لا محالة ...

وحاولت جهدي ان ابتسم ، وان اغلف صوتي بلهجة المزاح :

ـ لا شك انك فنان ... فإن الجميع يقولون انّ يديّ قبيحتان ...

وانتصبت واقفة ، ومشيت وانا اضحك ، نحو الآخرين ، وتبعني ...

٧

تساءلت ، وانا اخرج من الوزارة ، لماذا تكرهني احدى الزميلات ؟ بمحض الصدفة ، وانا اخترق الدهليز الطويل متجهة الى مكتبي ، بعد ان حملت الى المدير اكداساً من الأوراق التي انهيتها في الصباح ، وصلت الى اسماعي احاديثُ مرّ فيها اسمي .

توقفتُ ، وإذا بصوت زميلة اعرفها تسأل احدهم :

– ما رأيك في ريم ؟

– انا لا اعرفها ، لكنني احترمها فهي لطيفة ، متواضعة وتعمل بجد ...

اجابته بسخرية ولؤم :

– انت ايضاً تغرك ابتساماتها الرقيقة ؟ تعمل بجد ! وهل

تفهمُ شيئاً في عملها ؟ انها تعمل فقط ليقال عنها انها تتحدى المجتمع ! إنها بطرة ... إنها ...

لم اتوقف لاسمع المزيد ، فقد كفاني ما سمعت ، وفهمت ما هو معدن زميلتي ، فعدتُ الى مكتبي ، وحزمت أوراقي وانصرفت .

زميلتي احدى الفتيات الكثيرات اللواتي يتحلين بمركب نقص ! تريد ان تحطّ من شأن غيرها كي يرتفع شأنها هي . ان رأيها لم يزعجني ، على العكس سرني واعتبرته مديحاً . فلو كانت شخصيتها « قمةً » لما حاولت تحطيم كل القمم التي تحيطها كي تعلو هي ... وتعلو ... على حطام هذه المرتفعات .

تفاهة ... تفاهة ... تفاهة ...!

وشعرت بحزن ، حزنت لأن التفاهة تحيط بي ، ولأنني اكره التفاهة .

وكنت اقطع الشارع إلى الرصيف الثاني ، حيث تركت سيارتي ، وإذا بي وجهاً لوجه مع عمي .

ابتسمت . فجاءت ابتسامته صفراء ، لئيمة ، وقال :

– ايه ... انت دائماً في الطرقات ...

وددت لو اقتله في هذه اللحظة ... لكنني اسرعت الخطى ، وركبت سيارتي اهرب الى بيتي وعيوني مغرورقة بالدموع . لماذا يهاجمني اناس لا اريد لهم سوى الخير ؟ لماذا يحقد عليّ اشخاص لم اسئ اليهم ابداً ؟

وشعرت بحاجة الى عطف ... ودخلت بيتي .

استقبلتني نجوى حالاً بقولها :

— ريم ... هل تمانعين ... إذا دعوت الدكتور عدنان والأستاذ زياد في الساعة السادسة لأخذ فنجان من القهوة ؟ اريد ان اقرأ لهم ما كتبت .

طبعاً لم امانع ، مع ان حالتي النفسية لم تكن مستعدة لاستقبال احد ... خصوصاً هذا الموسيقي المغرور ...!

وارتميت على الديوان الأخضر ، اغمر نفسي بموسيقى شوبان واغمر بالجفون ... دموعي الحبيسة ...

*

جاء هو قبل الموعد المحدّد بساعة ، فقد حصل سوء تفاهم ، واعتقد اننا ننتظره في الخامسة . فاعتذرت نجوى ، ودخلت تعتني بزينتها ، وبقيت ... احادثه عن شوبان ، واستمع الى آرائه عن هذا الموسيقي ؛ وتطور الحديث الى الفن اجمالاً وقال فجأة :

— يعجبني شعرك الأسود .

ضحكت ساخرة :

— انا لا اعتني به مطلقاً ...

— لاحظت ذلك ... لماذا ؟

قلت لا مبالية :

— ولماذا اعتني به ؟

تأملني طويلاً ، مستكشفاً ، ثم قال :

- غريب ... انك تبعثين في نفسي الحيرة ... غريب ... أنت تضحكين دائماً ... ولكن ... ولكن يخيل لي ان وراء رنين ضحككِ نفساً تتمزق ... ما قصتك ؟ هذه الابتسامة ليست إلاّ ستاراً ...

فجأة ...

احسست بحزن دفين ... يُبعث ... يطفح في قلبي ... ليفرّ درراً من المقلتين ... ولم اقل شيئاً ... وماذا اقول ؟ أأخبره عن جميع الحوادث التي مرت بي وادمت قلبي ؟ أأحدثه عن هذا الفراغ الذي ينهش شبابي ...

ماذا اقول ؟

اني احاول بجميع الطرق ان اجد معنى لوجودي ، لكنني اكتشف يوماً بعد يوم ، ان وجودي تافه !

ماذا ... ماذا اقول ؟ إنني يائسة من هذه الحياة ، ومحرومة من عطف والديّ ، وضائعة في مجتمع سخيف ؟ وبحاجة الى حب صديق ... صديق مخلص ؟

هل اقول له ان هذه البلدة تعج بالوصوليين امثاله الذين يركضون نهمين ... وراء المرأة ... ويثيرون الإشمئزاز في نفسي ؟

لم اقل شيئاً .

كان لدموعي وقع غريب على نفسه لم اكن انتظره ... في برهة ثانية ، انقلب هذا الشخص المادي المستهتر الى أب حنون :

– ريم ... ريم ... لا تبكي ... لم هذا اليأس ؟ صغيرة انت ... والمستقبل امامك ... والحياة مليئة بالمباهج ...

كانت هذه اول مرة يناديني فيها باسمي مجرداً ، ومدّ يده يريد مسح خدودي ، لكنه ردّها ... بصورة لا شعورية وكأنه خشي ان يدنس طهارة دموعي ... بأصابعه الخشنة .

شعرت براحة ، وودت لو ابكي على كتفه :

– ريم ... اخبريني ما بك ؟ ماذا يحزنك ؟ ما قصة خطبتك يا ريم ؟ لماذا تعملين ؟ كل هذا يشغل بالي ... ماذا بك ؟ من كل قلبي اريد مساعدتك ...

رفعت نحوه محجريّ الطافحين بالدموع ، فسرى صفاء عينيه الزرقاوين في نفسي . في هذه اللحظة ، كانت عيناه نقيتين كعينيّ طفل أحزنه بكاء أمه ...

سررت ، وبين خطوط الدمع اللامعة اشرقت ابتسامتي :

– لا شيءُ ... ارجو المعذرة لضعفي ... انه يأس عابر ... ملل بسيط ... وكما ترى انا ابتسم الآن ...

– صدقيني يا ريم ، انت الفتاة الوحيدة التي شغلتني وتشغلني قصة نفسيتها ، وكل ما يجذبني نحوك هو روحك ... هذه الروح الشفافة . انا لست مادياً وواقعياً وعديم الشعور كما تظنين ... انا انسان يقدر ويشعر ... لا تعتقدي ان الماديات تهزني ! اتذكرين حين مددت يدك لتتلقيْ رماد سيجارتي ؟ ان هذه الحركة البسيطة هزّت اعماقي ... وتساوي في نظري اجمل امرأة في العالم ... لماذا تبكين يا ريم ...

كيف يبكي الشباب ؟

مرت في خاطري كلمات ... كنت سأهمسها :

« صاحبي ، لا تسلْ .. مقلتي للملل .. ساجدة .. »

« لا تلمني ، انا .. نغمة في الدنا .. شاردة .. »

لكنني سمعت وقع خطوات نجوى تقترب ... فمسحت دموعي على عجل ، والتفتَ هو اليها يقول :

– اهلاً بك آنسة نجوى ... الله ما اجمل ثوبك ...

وتغيّر مجرى الحديث ، وتغيرت معه هذه النظرة الانسانية ، لتعود كما كانت فاحصة ، مادية ، نهمة ...

*

مضت بضعة أيام ، ودعا نجوى عملُها الى العودة الى بيروت . جلستْ بالقرب مني على حافة السرير ، لأن التهاب الجيوب الذي اشكو منه كان قد الزمني الفراش .

– آسفة ان اتركك يا ريم وانت مريضة لكنني ارجو لك الشفاء العاجل ، وآمل ان اراك عما قريب في بيروت . كانت اقامتي في دمشق موفقة جداً ...

وسكتتْ ... لتسأل بغتة بلهجة جدية :

– ما نهاية علاقتك بزياد ؟

ذهلتُ !

– وهل هناك علاقة بيني وبين زياد ؟ هل جننتِ ؟

– لماذا تستغربين ؟ الا تشعرين يا ريم بانه مهتم بك ؟

ضحكت من سذاجتها :

ــ انت لا تعرفين هذا الرجل ... انه يهتمّ دائماً بالجمال ويحوم حوله كما تحوم النحلة حول الزهور ... هو يريد ان يتمتع بالمرأة ثمرة يانعة ... ليلفظها نواة ... انها نغمة يضيفها الى نغماته ليبحث بعدها عن نغمة جديدة ... وهو قد اغراه سني ... ووضعي كفتاة وحيدة ...

ــ انت تبالغين في وصفك هذا الشخص ! ثقي ان ما يجذبه نحوك ليس جمالك بل روحك ، انت تشبهينه بشكل غريب .

ــ انا اشبهه ؟ الهي كم انت مخطئة ! يا نجوى ... انا مثالية الى حد السخافة ، وهو واقعي الى درجة الابتذال ... انا ارى الدنيا من خلال عاطفتي ، وهو لا يعترف بأن هناك عاطفة !

هزت رأسها تشرح :

ــ انت تنسين ان تسعة عشر عام تجارب تفصل بينكما ... هذا هو الفارق الوحيد ...

واستدركتْ :

ــ طبعاً ... طبعاً ... انا لا اتحدث عن الفارق المادي فهناك فوارق شاسعة ... الدين ... والبيئة ... والسن ... نعم يا ريم ... انك على حق ... اية علاقة بينكما ستكون مستحيلة ...

ثم نظرت الى ساعتها :

ــ حان وقت سفري ، يجب ان اخابر جميع الذين

قابلتُ ... فأودعهم ...

واقتربتْ من الهاتف .

حملت اليّ الأسلاك أصوات الأصدقاء وسلامهم ... كلهم سألوا عني وحدثوني ، كلهم ... إلا هو ...

وسافرت نجوى ، وبقيت وحدي ...

وحدي !

لماذا انا اليوم اشعر بالوحدة اكثر من بقية الأيسام ؟ وحدي في هذه الحجرة ، انظر حولي ، واتمنى لو امزق هذه الستائر ، وهذا اللحاف ... وكل ما فيه زرقة ولون سماء ... حتى دفتر اشعاري الصغير ...

انا اكره اللون الأزرق ، فلماذا كل هذه الاشياء تستحيل عيوناً زرقاً ... تحماق فيّ ... وتذكرني بوحدتي ؟

لا شيءُ يوحي اليّ بالحياة هنا ، سوى هذه الساعة التي تهوي دقاتها الرتيبة على اعصابي فتؤلمني ... تؤلمني ... لانني لا اريد ان اعرف للوقت حدوداً ...

وتسمرت عيناي على الهاتف الجاثم على مخدتي . لماذا اخترعوا هذه الآلة ؟

برمت من صمتها !

السماعة ترمقني ... تغريني ... تسخر مني ...

ما الذي يمنعني ...؟ ما الذي يمسك يدي عن مداعبة ارقام تشغلني ؟

ولكن لا ...

انا لن اعترف للأسلاك ... بأن الانس لديه !
وتغلغلتُ في فراشي ،
احجب باللحاف الهاتفَ عن عينيّ ، وبالكبرياء ...
لهفتي النامية ...

٨

مرّ يومان قبل ان يمزّق غلالة السكون التي تحيطني هتاف الهاتف ...

يومان كباقي الأيام ... فارغان ... الا من الملل ... ملل من هذه الساعات الرتيبة ، ملل من الثواني الطويلة ، المتشابهة ... ملل من مرضي ، ومن الألم الذي لا يزيد ولا ينقص ...

مرّ يومان ... ثم سمعتُ صوته ...

ولأول مرة ، مذ عرفته ، تنبهت لنبرات هذا الصوت :

صوت عريض ... بطيء ... تلفّه البحة ...

صوت فيه كثير من الرجولة ... كثير من الكسل ...

صوت يوحي بالهدوء ... ويشع دفئاً ...

كان يتكلم ...

ومذْ تفوه بأولِ جملة :

– آنستي ، مساء الخير ... ألا يجوز ان تتكرمي عليّ مرة بمخابرة ؟

نعم ... مذْ تفوّه بأول جملة ، شعرت بالفراغ كله ينهار ! وعجبت من نفسي كيف نسيت حالاً ملل اليومين السابقين ، وكأن هذا الملل لم يكن الا انتظاراً وترقباً ...

واردف يقول :

– توقعت ان اسمع صوتك عندما خابرتني الآنسة نجوى ... لكنك ابيت عليّ ذلك

قلت متحدية :

– وهل سألتها انتَ عني ؟

– لم اسأل لانك لم تسألي ...

وضحك :

– الم اقل لك اننا نتشابه ؟ نضع كبرياءنا في غير موضعها ... لكنني نسيت كبريائي اليوم ...

اخبرته انني كنت مريضة ، ودعوته الى اخذ فنجان من القهوة ... وقبلَ .

رفست اللحاف عن جسدي ، وهببت واقفة وانا اتساءل : لماذا لزمت الفراش ثلاثة أيام ؟ هل كنت حقاً مريضة ؟ ابسبب هذا الألم البسيط الكامن في جبهتي ، وفي اعلى خدودي ، والذي يسمونه « الجيوب » ؟

انني جبانة ! ولكن ...

كانت اوجاعي البارحة اقوى مما هي عليه اليوم ... انا اليوم قد شفيت ...

ونظرت الى نفسي في المرآة ... وضحكت .

ضحكت من ضعفي ، ومن كبريائي ... لماذا لا اعترف بأن مرضي ما زال كما كان وان الألم لم ينقص ، انما نفسيتي هي التي تغيرت !

ارتديت ثيابي على عجل ، واقتربت من النافذة انتظر مجيئه

استقبلته رانية على الباب بابتسامتها المرحة ، فابتسم لها ، وامسك بيدها ، واقتربا مني ، وبعد ان حدثني باقتضاب ، استجاب طلبها ، وراح يلعب معها بالكرة وكأنه طفل صغير ... ونسيني .

جلست على المقعد ، اتفحصه بعين مجردة . ما الذي يعجبني في هذا الرجل ؟

كنت فيما مضى اتخيل ان الموسيقي ... ان الفنان ... يجب ان يكون نحيلاً ... هزيلاً ... ذا وجه ضيق شاحب ، وانف طويل حاد ، وشفتين رقيقتين ترتجفان ، وعينين غائرتين يستولي عليهما الشرود ...

انه ليس كذلك ، بل ان هيأته مناقضة تماماً للصورة التي رسمت في مخيلتي للفنانين ...

فهو طويل القامة ، مليئها ، ينحني ظهره قليلاً ، وكأنه ينوء بتاريخه الثقيل ...

اما زرقة عينيه فهي لا تتناسب مطلقاً ونظرته المادية ، وهاتين الشفتين المكتنزتين .

لا ... انه ليس جميل الطلعة . ولكن شيئاً ما في وجهه شيئاً ، لا ادري كنهه ، يجعلني اؤمن بأنه ليس غريباً ... يجعل الانسان يرتاح اليه منذ المرة الاولى التي يقابله فيها ...

وجاءت المربية تصحب رانية ، فعاد اليّ ، واخذنا نتحدث بصورة طبيعية وكأننا اصدقاء قدماء ...

اخبرني انه ، هو ايضاً ، يشكو من التهاب الجيوب ، وضحك وهو يقول :

– حتى امراضنا ... متشابهة ...

سألته اذا كان يؤلف في هذه الأيام ، فأجابني انه مشغول جداً ، اذ ان الامتحانات قد اقتربت ... ودهشت ! ما علاقته بالامتحانات المدرسية ؟ وساءه انني لا اعرف عنه الا القليل ، واخبرني انه يعطي دروساً باللغة الانكليزية في احد المعاهد ، إذ ان وظيفته في الشركة لا تشغله كثيراً .

ولم تطل زيارته ، وانصرف بعد ان وعدته ان اخابره في الغد ...

وخابرته في الغد ... وبعد الغد ... وزارني بعدها مرة ... ثم ثانية ... ثم ثالثة ...

وكانت هذه الزيارات دائماً قصيرة ، لذيذة ، تسرني ، وترضيني ...

لم يعد يتفوّه بأية كلمة تجرح شعوري ، ولم يعد يجزئني

بتلك النظرات الفاحصة ، على العكس ، أصبح ينير عينيه بريقُ طفولة ظمأى الى حنان صافٍ ...

ورفرف بيننا نوع من التفاهم الودي والصداقة الهادئة .

لكن آراءه ظلت تضايقني . كان كل شيء برأيه مادة : الحب ، امرأة جميلة ، والمرأة جسد ! الصداقة مصلحة شخصية ، كلها زيف ! الأهل انانية ، روابط سخيفة ! التضحية ضعف !

نعم ، كان لا يؤمن بشيء اسمه سموّ ، وعاطفة نبيلة ، وحين كنت اعترض آراءهُ كان يقول :

ـ أنت طفلة ، تعيشين في الخيال ! متى تصبحين امرأة واقعية ؟ المثل العليا لا تفيدك بل تحطمك ... ارميها وعودي الى الواقع ...

وعرفت الكثير عن أشغاله ... الوظيفة في الشركة التجارية والتدريس في المعهد ... وعن حوادث وحوادث جرت له في الماضي ؛ فقد انس إليّ وأصبح يخبرني بما يجول في خاطره .

لكنني لم اعرف شيئاً عن حياته الخاصة ... ولا عن صديقاته الكثيرات ... وما أردت ان اعرف !

فقد اعتبرت ان لكل منا حق الاحتفاظ بحياته الخاصة لأن ما يربطنا لم يكن سوى مجرد علاقة فكرية صافية ... صداقة شفافة ... وليس هناك موجب لأن يحشر الواحد منا أنفه في حياة الثاني ... يكفينا ان يرتاح احدنا الى الآخر خلال الساعات القليلة التي نقضيها معاً .

وكان يحيطني باهتمام ورعاية ، فيسأل عن عملي ... ويهتم برانية ، ويشجعني على الكتابة دائماً ، ويقنعني بالعودة الى الجامعة واكمال تحصيني .

برغم كل ذلك ، كنت دائماً حذرة ، لأنني كنت أعلم انني لست بنظره ، سوى امرأة !

لا شيءً سوى امرأة ... امرأة كباقي النساء ... يستهويه شبابها ، وتغريه وحدتها ، وتسليه مشاكلها .

*

وخابرني مرة يقول :

– ريم ... استمعي ، في الساعة الرابعة الى مقطوعة لي ، ستذاع من محطة دمشق ...

– اية مقطوعة ؟

– تلك التي لا تحبين ... استمعي اليها على كل حال ... سآتي اليك بعد ان تذاع .

غصت في المقعد الأخضر ، وأنصتّ الى المذياع . وعلت الألحان ... وامتلأ الجو بنغمات رائعة حزينة ، وامتلأ قلبي بالتساؤل ... والحيرة ... والعجب ...

انا لم اسمع هذه الألحان من قبل ، وأُخذت بروعتها وانفرجت اصابعي بدون شعور ، وكأنها تريد التقاط النغمات الساحرة ...

وفجأة ... تحركتُ مرتعشة : بلى ... هذه هي المقطوعة

نفسها ... انما مطلعها قد تغير !

وبين الألحان ، تراءى لي طيف زياد ، فابتسمت له بحنان ، شاكرةً ، طروباً ...

وما هي إلاّ لحظات ، حتى تجسمت رؤيتي ... وكان هو الى جانبي .

– هل استمعتِ الى المقطوعة ؟

هتفت :

– انها رائعة ...

– هل اعجبتك كلها ؟

– اعجبتني كثيراً ... واعجبني فيها ... مؤلفها !

ضحك :

– نعم غيرتُ مطلعها ! من الغريب ان رأيك ظل يلاحقني ، ويضايقني ، ومنذ يومين ، عزفتها على قيثارتي في البيت ، فاقتنعت بانك على صواب ... وغيرتها ... يا ريم ، الساعة السادسة ... اشعر بان حلقي جاف ... هل تقدمين لي فنجاناً من القهوة او اي شيءٍ آخر ؟

تذكرت انني اشتريت في الصباح زجاجة من مشروب حلو المذاق ، سمعته مرة يقول انه يحبه .

أتيت بالزجاجة وبكأسين صغيرتين .

وحين لمحها ، اورق الحنان في تعابيره ... وتجمعّ الشكر دمعاً في عينيه ، ولم يقل شيئاً ...

سألته برقة :

– الست تحبه ؟

تمتم بضع كلمات متقطعة :

– كيف تذكرت ..؟ كيف ... تذكرتِ ؟ لا استطيع ان اقول سوى انك عظيمة ... لم اعرف امرأة مثلك ... انت انسانة كاملة ...

ومدّ يداً مرتجفة تأخذ الكأس من يدي . تضعها على طاولة السجاير وتعود حالاً ... الى يدي ، ترفعها الى الشفتين ، ليقدم لها شكره في قبلة دافئة ...

تعجبت للاثر العميق الذي تركه شرائي الزجاجة في نفسه ... حادثة صغيرة لا قيمة لها . كان يجب ان يلومني لو لم اشترِ هذه الزجاجة ، لا ان يشكرني وقد اشتريتها ...

وتأثرت من تأثره ... لم اعتد في حياتي هذا النوع من التقدير . كان والدي يقول لي في الماضي :

« أنا لن امدحك اذا فعلت شيئاً حسناً . فالمفروض ان تفعلي شيئاً حسناً ، لكنني الومك على اخطائك ... لانك تفهمين ويجب الاّ تقعي في الأخطاء ... »

اما ألفريد ، فكان لا ينتبه ابداً لما افعل ... كانت افعالي ملتصقة بي ، وكان من الصعب عليه ان يراها ، ويحكم عليها كاشياء مستقلة ...

والآن ... ارى امامي رجلاً يحبس دموعه . وينتفض من الفرح كعصفور مبتل ... لانني اشتريت . صدفة ، زجاجةً من مشروب يحبه !

شعرت حالاً بالتحدي الذي غذيّته في قلبي من قبل ، يموت ... لينبع مكانه عطف وحنان ...

ونقمت على ظروفه الماضية ؛ ما نوع النساء الذي تعرف به ومرّ في حياته ؟

كيف لم تشعر اية واحدة منهن بان هذا الرجل طفل يجب الاعتناء به ؟

كيف لم تفكر أحداهن في ان تغمره بالعطف والمودة والصداقة ؟ حتّى بات يعتقد ان المرأة عاجزة عن اعطاء اي شيْ سوى جسدها !

هذا الرجل ليس إلاّ طفلاً افهمه واعذره ، وليست ماديته سوى رواسب تجارب تافهةٍ سطحية ... وليست واقعيته سوى قناع يخفي وراءه الحسّ المرهف ، والعطش الى العاطفة الصحيحة .

سأحيطه بحناني ، سابرهن له ان المرأة قادرة على ان تكون صديقة وانيسة ومواسية ، وان العاطفة الحقيقية المخلصة ، اغلى من المادة ... واسمى من الحياة ...

*

القِسمُ الثاني

١

– كلما طالت معرفتي بك ، كلما ازداد اعجابي بشخصك.. انت عظيمة ...

واردف ، وكان في لهجته استغرابٌ ولوم ، وكأن اكتشافه انه من الممكن ان تكون امرأة ما عظيمةً يضايقه :

– آنستي الصغيرة ... كيف ... ولماذا انت عظيمة ؟

أجبته على الفور :

– لانك لا تعرفني بعد !

استغرق في الضحك ، وقال بمكر :

– هل تخبريني من اين لك هذه الأجوبة الطريفة في بعض الأحيان ؟

ثم أرشق اليّ نظراته الفاحصة وغمغم :

- نعم ... ان اعجابي بك يزداد ... تعجبيني كثيراً ... سانصرف الآن ... اسمعي يا ريم لقد اخبرتك انني مسافر بعد غد الى الأردن لأسبوع ...

- إذن ، ستأتي غداً لوداعي ؟

- ما رأيكِ في ان نذهب غداً الى السينما ؟

رددت مدهوشة :

- الى السينما ؟

قال :

- انا اعرفك منذ اكثر من شهر ، وما دعوتك قبل اليوم الى السينما لانني اعلم ان الفتيات هنا لا يقبلن دعوة شاب ... ولكن ... انتِ ؟

- أنا ...

وخفت ان اقول « لا » فيظنني جبانة ... او أتصنع التحفظ ؛ وخفت ان اقول « نعم » فابدو سهلة ومبتذلة ... وحاولت ان اخفي ترددي ، فقلت :

- من الآن حتى الغد لدينا الوقت للتفكير ... سأخابرك في صباح الغد ...

- إذن الى الغد ...

وانصرف ، وبقيت أفكر ...

انا أمام مشكلة ! مشكلة سهلة جداً وبسيطة جداً ... ولكنها مشكلة !

هل أرافق زياد الى السينما ؟

ولكن ... لماذا لا ارافقه ؟

طبعاً ان اول جواب يتبادر الى ذهني هو : **لأن التقاليد تمنع ذلك .**

وفجأة ، ضج رأسي بالاسئلة : ما هي التقاليد ؟ وأخذت أجمع معلوماتي الضئيلة لأجد جواباً لهذا السؤال .

ما هي التقاليد ؟

كلمة « تقاليد » كما افهمها انا ، هي نموذج للعيش ... عادات ، اتفق عليها مجتمع منذ مئات بل الوف السنين .

لكننا الآن في القرن العشرين . لقد تبدل المجتمع ، وتغيرت العقليات ، وتطور تفكير شعبنا ...

كل شيء تطور إلا التقاليد ... هذه التقاليد التي خلقها مجتمع ولى ، واتفق عليها أناس تواروا تحت التراب من الوف السنين ...

ومجتمعنا راض عن هذه التقاليد ...!

وانا ؟ انا ايضاً راضية عن بعض تقاليدنا بل اتمسك بها . انا مثلاً اعتقد انه من واجب الفرد ان يحترم من هو اكبر منه سناً ... احب ايضاً عادة الكرم في بلدي ، وغيرها ... وغيرها من العادات النبيلة .

لكن الناس اليوم ساوا هذه التقاليد !

أصبحوا يتحلون بالبخل ، واصبحت المنفعة الشخصية هدف كل فرد ! صار الأخ يخون أخاه ، وامسى الشباب ينكرون واجب احترام الكبار ، لان الحضارة بمفهومهم هي

الغرور ... والوقاحة !

نعم ... لقد سلا الناس التقاليد التي احب ، ليتمسكوا فقط بالتقاليد التي تقيّد حرية الفتاة ... حريتي انا ...

وهذه التقاليد تمنعني من مرافقة زياد الى السينما ... تمنعني ... تمنعني !

اذن يجب ان اخابره وأقول له انني لن أرافقه !

واتجهت طائعة نحو الهاتف ... ولكن افكاري اوقفتني :

اذا لم أرافق زياد الى السينما ، فهل يمنعني ذلك من رؤيته ، ومن الاجتماع به غداً ... وبعد غد ... وبعد بعد غد ...؟

وعادت الاسئلة تحفر دماغي :

« هل تمنعني التقاليد عن الاتيان بافعال لا يرضى عنها مجتمعنا ؟ »

وطار تفكيري الى سؤال أوسع : « هل تفيدنا هذه التقاليد ؟ »

كيف اجد الجواب ، وأنا لا املك دماغ فيلسوف ، ولم ادرس في حياتي علم الاجتماع ؟

أنا لا املك سوى عصارة اعترافات صديقاتي الكثيرات ، ونتيجة ملاحظاتي الخاصة . أفلا تكفي هذه المواد لأكوّن رأياً شخصياً في هذا الموضوع ؟

كم من فتاة تذهب وحيدة الى السينما ، وعندما تطفأ الأنوار ، يأتي صديقها ، ويجلس الى جانبها ، ويتحاشى البقاء معها حتى نهاية العرض فيخرج قبل ان تضيء القاعة

الأنوار ؟

كم من فتاة تذهب خلسة الى موعد مع شاب في ركن ، من البلد ، منعزل ، او لنزهة في سيارته دون ان يراها احد ... ولا تلقي عليه السلام ، إذا صادفته في الطريق العام ؟

وكم ... وكم من فتاة تذهب الى شقة شاب اعزب ، متسترة باجنحة الظلام ، وتخرج من عنده على رؤوس اصابعها ، وتعود الى بيتها لتخبر امها انها كانت ... « عند الجارة » ؟

ستار الخبث !

لماذا تسدله الفتاة على افعالها في بلدي ؟ طبعاً لانها تحترم التقاليد !!

هل اكون انا كالأخريات ؟ هل احترم التقاليد ؟ وهل اتقيد بها ، وانا اعلم أنها في بلادي منبع الخبث والنفاق ؟

وماجت الثورة في أعماقي فأخذت اروح واجيْ في الغرفة ...

لماذا لم أرافق شاباً الى السينما قبل اليوم ؟ لماذا ؟ ألأنني آمنت بهذه التقاليد البالية ؟ ابداً ... ولكن لأن اكثر شباننا يسيئون فهم الصراحة والروح الرياضية ، ويعتقدون ان الفتاة ، اذا قبلت دعوتهم ، فمعنى ذلك انهم تملكوها ...

وزياد ؟

هل هو كالآخرين ؟... هل هو كالآخرين ...؟

وارتميت على الديوان ؛ لقد اتعبني تفكيري ، ولكنني لم اقرر شيئاً .

وعاد السؤال يلحّ في رأسي وينتظر الجواب :

– هل أرافق زياد الى السينما ؟

انا أراه كل يوم تقريباً ، فلماذا اخفي ذلك ؟ انا احب الصراحة ، وأؤمن بانها تسمو بافعال الفتاة ، هذا رأيي انا ... لكن المجتمع لا يفهم ذلك ، بل يحذر منه !

فاصبحت الفتاة تأتي افعالاً لا ترضى عنها الأخلاق الصحيحة ... افعالاً منكرة لم تكن لتفعلها لو فهم المجتمع .

نعم ... ان حنان ، جارة ليلى ، لا تجرؤ على الاقتراب من الهاتف حين يكون اهلها في البيت ... لكنها ، كل ليلة ، بعد ان ينام الجميع تخرج خلسة لتلاقي صديقها .

والوالد راضٍ عن ابنته ! والمجتمع يتحدث عن حسن سلوكها !

وشعرت باشمئزاز !

ما اغبى الأهل الذين يجبرون فتياتهم على اقتراف مثل هذه الأفعال ! وما اقبح المجتمع الذي لا يحب الصراحة ! المجتمع الذي يُؤثر الدعارة في الخفاء على الابتسامة الطاهرة علناً !

وهببت واقفة ...

لا ... لا ... لن اتدهور الى وادي الكذب ... انا اكره الخبث واحتقر النفاق ...

سأرافق زياد الى السينما ...

ستشرئب الأعناق ... وتتسع الأحداق ... وتلوكني الألسن :

« هذه الفتاة القليلة الأخلاق ... هذه الفتاة الوقحة ... كيف تجرؤ على مرافقة شاب ؟ يا لها من فتاة مستهترة ..! »

نعم ...

سيسيئون فهمي ... سيشوّهون حسن تصرفاتي وسيخطئون ، مرة اخرى ، في احكامهم على الأخلاق الصحيحة ...

*

ذهبنا الى السينما وغرقنا في زحام كبير .

مدّ ذراعه بصورة طبيعية ، واحاط كتفيّ وظهري ليحميني اولاً من الجموع المحتشدة ، ثم من ظلام الممر .

وددت لو يبقى دائماً هكذا ، كبيراً ... جدياً ... قوياً ... يشعر بضعفي فيحميني ...

تمنيت لو تظلّ هذه الذراع تحيط كتفيّ ، وترفع عنهما مسؤولية الحياة ...

وتنهدت حين تلقاني المقعد ، لانه خيل إلي ، للحظة ، انني لن استطيع متابعة السير إذا بعدت هذه الذراع عن كتفيّ .

كان الفيلم سخيفاً جداً ، وكانت تعليقاتي لا تنتهي ، وكان يضحك دون اكتراث ، ويقول :

– إلهي ... كم انت تثرثرين ...

لم يمسك يدي ، كما كان يفعل اكثر الشبان مع رفيقاتي ، ولم يحاول ان يمسني ، او ان يستثمر ظلام القاعة ، ولم يطلب مني ، وأنا في سيارته ، ان أرافقه الى نزهة قصيرة ، بل

اوصلني الى البيت ، وهو يقول :

– انا مسرور جداً لانك قبلتِ دعوتي سأخابرك حالما عودتي من الأردن ... تصبحين على خير ...

ومع ان غرور المرأة السخيف في نفسي أخفى بين طيّاته قليلاً من الخيبة ، الا انني في اعماقي ، شعرت براحة عظيمة ، وشكرت ، في قرارة نفسي ، هذا الصديق النبيل ...

٢

سافر زياد ، وعدت الى عملي ، والى فراغي ...

لكن الفراغ في هذه المرة اصبح لذيذاً ... ناعماً ... موحياً ...

صرت اميل الى السكون . والهدوء . وأضيق بصحبة الآخرين . اصبحت اجد في فراغي عالماً جديداً ، لم افهمه تماماً ، يختلط فيه اليأس بالسرور ...

يأسٌ هانئٌ ... وسرور حزين ...

وتغلغلتُ في الشرود . فبتّ اشعر بأنني اتنقل بين الغيوم ، وانظر . من بعيد بعيد ، الى ما يدور حولي .

رافقت ليلى الى السينما ، وعدنا الى بيت خالي نتسلى مع بعض الأصدقاء . بلعب الورق ، كما اعتدنا ان نفعل في

اكثر أيام الأسبوع .

وبدت لي هذه الحادثة العادية « الروتينية » ، غير طبيعية ؛ احسست نفسي غريبة بينهم !

ماذا افعل هنا ؟ وطار تفكيري الى ... الأردن !

وأفقت من شرودي على صوت ناديا :

- انت حالمة ... اين انت ؟

وسألني « صديق » ضاحكاً :

- هل تنظمين قصيدة ؟

وتوالت التعليقات ... وعلا الضحك .

وددت لو اكون في غرفتي يغمرني الهدوء . تحايلت انني تعبة ، ورجعت الى البيت ابتعد عن الضوضاء ، والى نفسي اسائلها ماذا دهاها ؟ هل تدهورت دون ان تدري الى هاوية الحب ؟

ماذا اصابني ؟ أانا احب هذا الرجل ؟ هذا الرجل الذي تجرحني آراؤه المادية ، والذي لا يعرف كيف يحبّ ، بل لا يؤمن بالحب مطلقاً ؟

يا للسخرية !

هل ابتدأت احب هذا الرجل الذي اردت ان اتحداه كي ابرهن له ان المرأة ليست ضعيفة ، كما يظن ، وليست بضاعة تُشرى بالكلمات الناعمة ، وبالنقد الزائف ؟

شعرت بغصة في حلقي ، وانا اعترف بأنني خسرت الجولة ، وان تجربتي فشلت !

يجب عليّ حالاً ان أتخذ قراراً ، وان اكون حازمة في رأيي .

هو لا يحبني . ولكن ... ما هو شعوره نحوي ؟

قد اكون نغمة جميلة ، يريد ان يضيفها الى الحانه . وقد يعتبرني رعشة ، يحشوها في سجل مغامراته ...

انه يبدي لي شيئاً من الأهتمام ، ولكن ... هل كان اهتمامه يتغير ، لو انني كنت ... فتاة اخرى ؟ انا برأيه فتاة ... فتاة ككل الفتيات !

لكنني لست كسائر الفتيات !

ابداً ... لن أراه بعد اليوم

*

خرجت من الوظيفة في اليوم التالي ، وأردت ان اعود الى بيتي سيراً على الأقدام ، مع انني اكره السير . لكنني شعرت بحاجة الى التسكع في الطرقات ، والضياع بين الناس .

ورحت انظر ، شاردة ، الى واجهات المحلات ، وأنا ابتسم بظفر ، هذه العاطفة الطارئة لم تكن الا وهماً ... وهماً مضى .

واخذت أعوامي التسعة عشر تضع قصتي في قالب « رومانتيكي » ، فتاة احبت ... ثم تغلبت على عاطفتها ...!

وفجأة ...

توقفت عند واجهة مخزن ، ودخلت اليه مسرعة ، وانا

اسأل البائع :

– كم سعر القيثارة التي في الواجهة ؟ اريدها ...

وعدت الى بيتي فرحة ، اضم القيثارة الى صدري ، وكأنني طفلة تخاف على لعبتها الجديدة .

ووضعتها على البيان . وانا احاول ان الفها بغلالة من عنايتي وعطفي .

في المساء ، جاءت اليّ جدتي ، وكان الاستياء يتطاير من عينيها ، ليتجسم في كلمات على ثغرها :

– ريم ... اصحيح انك كنت في السينما ، منذ يومين ، مع شاب ؟

اجبتها بصورة طبيعية :

– نعم ... لماذا ؟

– ريم ماذا دهاك ؟ هل جننتِ ؟

– على العكس يا « تيتا » ... لقد ابتدأت اعقل ...

– يا الهي ! ومن هو هذا الشاب ؟

اجبتها متكمة :

– انت لا شك تعرفين اسمه ! فالذين نقلوا اليك الخبر ، لا بد انهم ذكروا من هو ؟!

– ابداً والله ، لقد قالوا إنهم شاهدوك في السينما مع شاب ..

صدقتها ... ولم استغرب ! هذه هي الحال في بلدي . يقولون : « ريم او هدى او حنان كانت مع شاب » ولا

يقولون ابداً : « زياد او حسن او يوسف كان مع فتاة »
عيون الناس تراقب الفتاة دائماً لا الشاب .

« ريم كانت مع شاب ... »

سيان عندهم ، اكان هذا الشاب « فارس » او « ادوارد »
ام « بشار » ... المهم انه شاب ، وان ريم كانت مع شاب ...
يا للوقاحة ! وضحكت ساخرة ، وقلت ببساطة :

ـ لقد كنت مع زياد مصطفى !

ـ مع هذا الشاب ؟ هذه كارثة ! هل تعرفين من هو هذا
الشاب ؟ انه معدوم الأخلاق ... يلعب دور « الدون جوان » !
انا اعرف عنه الكثير ... الكثير ... متى تعرفت به ؟

اجبتها بعفوية :

ـ منذ زمن بعيد ...

ولم اشعر بكذبي ، إذ خيّل اليّ انني عرفت زياد دائماً ...
وتابعتُ :

ـ وقد كنت مع السيدة سناء ...

ـ هذا لا يبرر مرافقتك له ... لماذا ترافقينه ؟

ابتسمت وقلت بهدوء :

ـ لانني اجد لذة في مرافقته ، وهو يعجبني ...

جنّ جنونها :

ـ لا شك انك فقدت صوابك ! وماذا يعجبك به ؟ كلماته
المعسولة ؟ ام نظرته الوقحة ؟... ثم هو بعمر ابيك !

ضحكت في نفسي ، كيف أفهمها ان اكثر ما يعجبني

في شخص زياد هو عمره ؟ قلت :

ــ هو ليس معدوم الأخلاق ، كما تقولين ، وقد كان معي مهذباً جداً ...

ــ انا واثقة باخلاقك يا حبيبتي ... لكنك صغيرة والرجل في بلادنا لا يؤتمن ، وهذا الرجل بالذات سافل ! ساخبرك عن مغامراته ... انني اكرر قولي بأنه معدوم الضمير ... انه ...

كانت كلماتها ترتسم صوراً سوداً في جو الغرفة ، ومن بين الكلمات كانت نظرات زياد تطل بريئة ... صافية ...

تراءت لي نظرته الطفلة وهو يريد مسح الدموع عن خدودي ... ومرت صورة عينيه المليئتين بعبرات الشكر وانا اقدّم له كأس المشروب الذي يحب ... واخيراً غابت جميع الصور السود خلف سماء زرقاء نقية ... تحنّ نجومها لكلمة عطف ...

لا ... لا احد يفهم زياد ...

وسمعت جدتي تقول :

ــ هل تسمعين ما اقول ؟ ارجوك يا ريم ... ابتعدي عن هذا الرجل ...

هززت رأسي :

ــ سأحاول ...

وانصرفت جدتي ، وبقيت منزعجة ، احاول الهروب من كلماتها ، والضياع في سماء ... بعيدة ...

٣

– ريم ... كم انا مسرور برؤيتك ... لقد ذكرتك مرارا وانا اتنقل ما بين عمان ... ونابلس ... ورام الله ... وقد ...

ولم يكمل جملته ، اذ وقعت نظراته صدفة على القيثارة .. وقف ،

واقترب من البيان ، وحمل القيثارة ، واخذ يتحسسها ... ثم التفت اليّ ، يستوضحني .

هززت رأسي ، وقلت ببساطة :

– وانا ايضاً ذكرتكَ ... وانا اتنقل ما بين عملي ... وبيتي ..

نبض الحنان في عينيه وتمتم :

– ريم ... ريم ...

واعاد القيثارة الى مكانها ، واقترب مني .

لكن دنا دخلت في هذه اللحظة تحمل القهوة .

شكرت الله ،

فقد ندمت على ما قلت ، اذ قد يعتبر جملتي تصريحاً ... وخفت مما سيقول بعد ان خرجت دنا ، فاردت ان اغيّر مجرى الحديث ، ورأيت المجلة التي كان يحمل ، تنام على الطاولة ، فاخذت اتفحصها ، وانا احاول ، كالعادة ، ان اعلّق على شتى المواضيع ...

كان يراقبني ، ولا يتكلم ...

وبينما كنت اقلب الصفحة ، وقعت المجلة من يدي ، فانحنينا معاً بسرعة ... والتقطتُها ... وانتصبنا معاً ...

وفي اعتدالنا ... تلامس وجهانا ... ثم تعانقت نظراتنا ... فبقينا ثانية ، وكأننا مبهوران بهذا الوضع ...

فجأة ...

امسك وجهي بين يديه ... وقبّلني !...

بقيت واقفة كالصنم ...

كالصنم الحائر ...

لا ادري ماذا افعل بيديّ ... وبجسدي ... وبقامتي ...

ولكنني ظللت مطبقةً اصابعي على المجلة ، وكأنها الخيط الوحيد الذي يربطني بالواقع ، والخشبة الصغيرة التي يجب ان اتمسك بها كي لا اغرق ...

ولم ادرِ اي سحر اسبل جفوني ، ولا اي اكسير انعش شفاهي ...

والذي علمته . ان كل هذه الأيام الفائتة ، وكل ثواني حياتي الماضية ، لم تكن الا خوفاً ... وهرباً من هذه اللحظة ...

ولم تدم هذه اللحظة الخارجة عن الزمن ، فقد ولىّ ذهول الصدفة ، واضمحلت وطأة المفاجأة ، فاستجمعت وعيي ، وهززت رأسي بعصبية ، وعدت خطوة الى الوراء ، وراحت نظراتي ، في وجل ، تتلمس طريقها في غياهب عينيه ...

حاولت ان اتكلم :

– زياد ...

قاطعني :

– ارجوك ... لا تقولي شيئاً ...

لم استجب لطلبه ، وتابعت متلعثمة :

– زياد ... لقد قررت ... لقد قررت في غيابك ... زياد ... يجب ... يجب ...

ثم قلت ، دفعة واحدة ، وبسرعة :

– يجب الاّ أراك بعد اليوم ...

نظر اليّ باستْغراب ، وقال ، وهو يبتسم :

– ما هذه الأحكام التي تتخذينها في حقي دون علمي ؟ ماذا بك يا ريم ؟ اخبريني ..ه

– زياد ... الا تدرك ؟ ما نهاية هذه القصة ؟ الى اين سننتهي ؟

رفع حاجباً ، وقال :

– انا احبك يا ريم ... و ...

كنت اعرف ان ذلك غير صحيح وانه لا يفهم ان الأعجاب ليس حباً ، فقاطعته :

– زياد ... انت ترمي الكلمات ولا تفهم معناها ، وانا ابني من الكلمات قصوراً ... أقضي اياماً وليالي ابحث في حروف كلماتك ... كلماتك البسيطة ، عن المعاني المختبئة ... واصوّر هذه الحروف بالف لون ولون ... زياد ... انا فتاة عاطفية جداً ...

– اعرف ذلك يا ريم ... انت عاطفية ، وفنانة ... ولكن... هل تعتقدين ان من الحرام ان يحب أحدنا الآخر ؟

غلب الجواب على لساني ، وقلت فوراً :

– بل من الحرام الاّ يحب احدنا الآخر ...

أدهشه جوابي ، فجاءت نظرته الفاحصة تدرس تعابير وجهي ، ثم ابتسم وقال :

– هذه اجمل واعقل جملة نطقت بها منذ عرفتك حتى الآن

واردف جاداً :

– يا ريم ... الحب خلق من اجلنا ، من اجل امثالنا ... لا تكوني جبانة ...

– ولكنني إنسانة يا زياد ... إنسانة تخاف الحب ... وقد ... وقد احبك كثيراً في يوم من الأيام .

– هذا يسرني ، من الآن سأحيا من اجل هذا اليوم .

– زياد ... لا تورّط نفسك في مشكلة ، ان حبي جنوني ... ان عاطفتي تيار جارف ، لا يقف شيء في طريقه ... قد

يزعجك كبرُه ، انه مدمّر ... قد تضيق به ...

– حبيبتي ... انا احبك ... وسأحب حبك ...

– زياد ... انت لا ...

ولم اكمل جملتي ، فلقد ضاعت بقية كلماتي بين شفتيه ...

٤

استيقظت ، في الصباح ، قلقة ، تائهة ، مرتبكة ...
اقتربت من المرآة .
الحيرة تتراقص في عيوني ، وعلامات الاستفهام تتراقص حولي .
تأملت في انحاء الغرفة ، في السرير ، في الخزانة في الطاولة ، في الستائر ...
هذه الغرفة ليست باردة ، وليست دافئة ، ليست اليفة ، وليست موحشة ، ليست واسعة ، ليست ضيقة .. ليست منسقة ، وليس فيها فوضى ...
غريب ...!
ليس لهذه الغرفة وجود مجرد ، ليس لها اشعاع مجرد ،

هي انعكاس لشعوري ، نفسيتي هي التي تعطيها حياة .

القيمة ليست في اثاثها ، ولا في تنسيقها ، قيمتها في نظرتي .

هي دافئة واسعة ، عندما اكون سعيدة ... هي مضطربة ، عندما اكون ساخطة ... هي باردة في وحدتي ... وهي اليوم علامة استفهام !

كل شيء فيها علامة استفهام ... علامة استفهام لا لون لها ، حتى هذا اللون الأزرق يبدو اليوم رمادياً ، واللون الرمادي ، بنظري ، ليس لوناً بل رماد جميع الألوان !...

هذه الغرفة ستأخذ شكلاً خاصاً ، وسيخلق فيها جو خاص ، عندما تزول حيرتي ، واجد حلاً لمشكلتي .

ماذا افعل ؟ أاترك زياداً ... ام ابقى معه ؟

أاهرب من صقيع الفراغ ، لارتمي في لهيب الحب ؟

وعادت الحيرة تتراقص في عيوني ، وعادت علامات الاستفهام تتراقص حولي ...

*

لم استطع ، وانا في الوظيفة ، ان اتخذ قراراً ... وحاولت ان احوّل تفكيري عن هذا الموضوع . ولكن علامات الاستفهام كانت تتراءى لي في كل شيء ...

سألتني زميلة :

ــ ما بك ؟ انت شاردة ، ومضطربة ...

كنت بحاجة الى التحدث الى اي شخص ، فقلت :

ــ انني امام مشكلة صعبة .

ضحكتْ هازئة وقالت :

ـ انت دائماً تعقّدين امورك ، وتخلقين مشاكل من لا شيءٍ ...

سألتها بفضول :

ـ الا تجدين نفسك احياناً امام مشكلة من الصعب حلها ؟

ـ دائماً ... ولكنني لا اعقد اموري ... انا الآن مثلاً امام مشكلة صعبة ، وهي الزواج ، ولكنني سانتظر وحين يأتي العريس الصالح تحل هذه المشكلة

فكرتُ :

قد اعقد اموري انا ، ولكن لماذا تعيش هي ؟

ما معنى وجودها ؟ ما قيمة وجودها ؟

عدت اسألها :

ـ الا تشعرين بالفراغ ؟

اجابت هازئة ايضاً :

ـ الفراغ ؟ لا ... يا عزيزتي ... الفراغ مرض الأرستوقراطيين ...

لم اردّ على تعليقها ، فقد كنت اودّ فقط الاستماع الى آرائها ، لا مناقشتها . الححت في سئلتي :

ـ الا تشعرين بالملل ؟

ـ انا امل من العمل ... انا لا احب الوظيفة ... الستِ مثلي ؟

ضحكتُ :

ـ الوظيفة هي الشيءُ الوحيد الذي يبدّد ، نوعاً ما ،

مللي ... مللي الدائم ...

نظرتْ اليّ بغباء ، وقالت :

ـ حقاً ... انت غريبة الأطوار ...!

أأنا الغريبة ام هي الساذجة ؟

أأنا غريبة الأطوار لانني اريد ان احيا ؟ أليست هي الساذجة لأنها تقبل ، بصورة طوعية ، هذه الحياة التافهة ؟

قد تقول عني انني مجنونة لو حدثتها عن مشكلتي :

أأبقى مع زياد ... ام اترك زياد ؟.. أأهرب من الفراغ ... ام من الحب ؟

حب ... جنون ... ملل ... فراغ ... كلمات لا توجد في قاموس حياتها . قالت بحسرة :

ـ لو كنت مكانك لكنت اسعد فتاة في الوجود ...

تذكرتُ بيتاً من قصيدة كنت احفظها منذ زمن بعيد :

ماذ لقيتُ من الدنيا ... وأعجبه ...

أني بما انا شاكٍ منه محسود ...

وابتسمتُ ساخرة ولم اقل شيئاً .

ان كل ما سأقوله سيؤكد رأيها في انني فتاة غريبة الأطوار . كيف أشرح لفتاة لا تشعر بالفراغ ، ما هو الفراغ ؟ هل اخاطب بالفرنسية او بالانكليزية شخصاً لا يعرف الفرنسية او الانكليزية ؟

رفعتُ نحوها أبصاري ، فتحولت عيناها الى علامتي

استفهام سوداوين : من منا صاحبة الرأي الصحيح ؟ أنا ... ام هي ؟

وجمعتُ حوائجي ، وعدتُ الى بيتي ، وانا افكر في جملة زميلتي : « الفراغ مرض الأرستوقراطيين ... »

هذا رأي ذاع في الغرب ، حيث اختلاف الطبقات ، وحيث كان النبلاء الأغنياء يملكون كل ما تتوق اليه انفسهم حتى اصبحوا لا يشتهون شيئاً من الحياة . فالحياة قد أتخمتهم !

وكان لويس الثالث عشر يقول لكل واحدة من رفيقاته :

— « هيا بنا لنملّ معاً »

— Allons nous ennuyer ensemble ...

لكننا هنا ، نشتهي كل شيءٍ ... ولا نحصل على شيءٍ ! لأن الفراغ مرض شرقنا بكامله ، مرض ناشيءٌ عن تقاليدنا وعاداتنا ... هو مرضي ، هو مرض كل فتاة ، كل امرأة مرهفة الحسّ ، يكتب لها ن تحيا في هذه البقعة من الأرض !

دخلتُ الى البيت شاردة ، واذا زياد ينتظرني في القاعة .

ـ الحمد لله انك لم تتأخري ... انا هنا منذ خمس دقائق ... في بيتنا ضيوف وقد هربت من الضوضاء .

ضحكتُ ، وارتبكتُ :

ـ اهلاً وسهلاً ! ولكن يجب ن تنتظر كيما اهيءْ الطعام ، فقد ذهبت دنا اليوم لتزور أهلها .

– إذن يجب ان تشكري الصدفة التي حملتني اليك اليوم ... فأنا طباخ ماهر !

وتبعني ، بصورة طبيعية ، الى المطبخ ، وفتح الثلاجة ، والقى نظرة على محتوياتها :

– سنأكل البفتيك والبطاطا ... اليس كذلك ؟ هيئي انت السلطة !

ومسك باللحم ، وابتدأ يقطعه ، ثم اخذ يقشر البطاطا .

تلاشى ارتباكي ، وشعرت بنشاط ، فوضعت الزيت في المقلاة على النار ، واخذت اقشر البندورة والخيار واختلس نظرة سريعة الى زياد بين الحين والحين ، لاراه منهمكاً في قلي قطع اللحم ...

خيل لي ان الرجل يختفي ليظهر الصديق القديم القديم الذي تعود مساعدتي دائماً ، وشاركني كل شيء . وددت للحظة لو اخبره عما يشغلني واسأله رأيه ، وضحكت للفكرة !

كيف اجد حلاً لمشكلتي في المشكلة ذاتها ؟ قال :

– ماذا يضحكك ؟

– ان منظرك يسليني ! يسرني ان اجد فناناً موسيقياً يجيد الطهي ...

– ما هذه الفكرة السائدة عند جميع الناس ؟ الفنان برأيهم يختلف عن غيره ، مع ان الفنان هو رجل قبل كل شيء ، رجل كباقي الرجال ...

وانتهينا من الغذاء ، فقدم لي سيجارة .

لم اكن أدخن ، لكنني خفت ان تشذّ حركة رفضي عن جو الأنسجام المخيّم علينا ، فامسكت ، بارتباك ، سيجارة أشعلها لي ، وجذبت نفساً طويلاً ... ارتجفت يدي ، ودمعت عيناي ، وسعلت ...

غرق في الضحك ،

– انت طفلة ... وارتباكك جميل ...

نظرت اليه ، باسمة ، ومعاتبة ، فتأمل عينيّ ثم قال :

– ما لون عينيك ؟ كيف يقولون ان عينيك خضراوان ؟ انهما عسليتان ...

– كل شخص يرى بمنظاره ... ما الفرق ؟

– الفرق انني احب العيون العسلية ...

ثم وقف :

– لديّ موعد في الساعة الرابعة ، يجب ان اذهب ... كانت هذه اللحظات جميلة جداً ... أشكرك عليها ...

ثم اردف مازحاً :

– وكان الغداء لذيذاً ... هيا اشكريني عليه ...

دخلت غرفتي ، وارتميت على السرير ، اسائل نفسي ... هذا العمل المشترك في المطبخ ... وهذا الحديث البسيط ... وسيجارتي ... وارتباكي ... وضحكُهُ ...

كل هذه اللحظات ... اسعدتني ...

هل استمرّ في علاقتي مع زياد ... وقد تتطور ؟ هل اهرب

من طريقه ؟

ولكن ...

الن اعرف في حياتي سوى الهرب ؟ هرب من الفراغ ، هرب من الملل ... هرب من الحب ... هرب من السعادة ؟

ولم ؟

لماذا اخاف ان اقتحم السعادة ؟

لماذا اخاف ان اعيش الحب ؟ ألانني قد اتعذب ؟ أأخاف من عذاب الحب انا الغارقة في عذاب الفراغ والوحدة ؟

سأموت يوماً ما دون إرادتي ، كما وجدت دون إرادتي ، فلماذا ، وقد وجدتُ ، لا اعطي معنى لهذا الوجود ؟

لماذا لا أدع هذه الفترة من الزمن ، التي تفرّق بين ولادتي وموتي ، تشع بالحرارة ؟

اريد ان احيا ... ان اتعذب ... ان اتعب ...

اريد ان اعطي ... ان احبّ ... ان اتألم ...

اريد ان اقوم بأي عمل إيجابي لأثبت انني موجودة ... اريد ان املأ حياتي بالمعاني ...

نعم ،

قد تكون هذه المغامرة ناراً احترق بها ، ولكن ، على الاقل ، يوماً ما ، في المستقبل ، سأشعر بأن وجودي لم يكن تافهاً ، وبأن روحي أصبحت قيّمة لأنها تكون قد احترقت واضاءت اكثر من أرواح الآخرين ...

السعادة ؟

ما هي السعادة ؟ هي لحظات قصار يتوقّف فيها الملل موقتاً ، وينهار فيها الفراغ نسبياً ...

فلماذا اهرب من هذه اُلخلس ؟

ألانني اخاف المستقبل ؟ وماذا ينتظرني في المستقبل ، انا التي اخاف واهرب من كل شيء حتى من التفكير في المستقبل ؟

لا ... سأعيش حاضري . حاضري جميل ، فلماذا لا اعترف بأنه جميل ؟

سأتمسك باللحظات الجميلة ... سأحياها بكاملها ... سأعصر توانيها كما تعصر الاسفنجة لآخر قطرة ماء في حناياها ... وسأصب فيها تأجّجَ ذراتي وروحي ، فتختلط قوّتُها بنيراني ، وتصبح هي وانا شيئاً واحداً ...

ابداً ...

لن اهرب من زياد !

وانتصبت جالسة في فراشي ، ورفعت يدي أرد خصلات الشعر المنسابة على جبيني ، وفجأة ... جمدت يدي قبالة وجهي وفاحت منها رائحة اعرفها جيداً ... رائحة يد زياد ...

السيجارة ! السيجارة التي دخنتها تركت في يدي شيئاً منه... احسست بنشوة تسري في اعصابي ، واخذت انبش بين الأصابع ... عن طيف زياد ...

وانعكست صورتي في المرآة . وقفت ، واقتربت منها اسائلها : هل انا جميلة ؟ وتفحصت صورتي بعين التساؤل

ونفسية الناقد . ما لون عينيّ ؟ ما لون بشرتي ؟ هل يحب زياد البشرة الحنطية ؟ ولماذا اهمل شعري الطويل الأسود ؟

ودرت امام المرآة ؛ ان جسدي اصبح يميل قليلاً الى السمنة ، كيف لم انتبه لذلك حتى الآن ؟ وكيف اعتقدت ان الأكل هو اكبر لذة في الحياة ؟

ويداي ؟ لقد قال زياد انهما تقطران انوثة ، لم يشعر بأنهما خشنتان ؟

لماذا اهملت نفسي في الماضي ؟

وفتحت خزانة الملابس ، وبدت لي الأثواب مساجين تستعطفني ، وتطلب مني ان افرج عنها ، واخرجها من سجنها الدائم . منذ زمن بعيد لم ارتد هذه الثياب ، وكنت فيما مضى اتضايق من كثرتها ... لكنني اليوم اشعر بأنها لا تكفيني ...

سأذهب الى الأسواق ... سأشتري اقمشة مختلفة ... اثواباً ملونة ... سأعتني بشكلي ... لقد اقبل الصيف يزهو بشمسه ، وسأزهو انا كل يوم بلون جديد ...

انا الآن في حاجة الى ان ابدو جميلة ...

*

في الأيام التالية ، اجتمعت عدة مرات بزياد . كان يمر بي احياناً اثناء النهار لمجرد اخذ فنجان من القهوة ويسهر عندي اكثر الأيام ، لكنني كنت ادعو دائماً الاصدقاء لتكون سهرتنا صاخبة ، مسلية . وكان يعزف لنا احياناً ، او نلعب

الورق احياناً اخرى ، او يمر الوقت بين الأحاديث المنوّعة .
والتقيت به مرة ، وكنت عائدة من « سوق الحميدية » ابتدرني :
ـ انت هنا ؟ هذه صدفة جميلة . لقد خابرتك منذ لحظات الى البيت ... الى اين انت ذاهبة ؟
ـ يجب ان ذهب الى الخياط «فارس» في شارع «البحصة» لكنني اشعر بتعب ، واتوق الى فنجان من القهوة ...
ـ وانا ايضاً ... هيا بنا ...
ومشينا معاً . كان كل مقهى نمر به يعجّ بالرجال فنتابع سيرنا . اين نساؤنا ؟ الا ترغب احداهن في فنجان من القهوة خارج جدران بيتها ؟ ألم تفكر احداهن مثلي في ان القهوة تأخذ نكهة خاصة اذا تغير الجو الذي تُرشف فيه ؟
واخيراً ،
تعبة ، وقفت امام مقهى ، وقلت :
ـ سندخل الى هنا ...
وفجأة احسست بألوف السهام تخترق جسدي . التفتّ ، فاذا كل من في المقهى ، من رجال ، يسفّ الي النظر والعيون كالعلق ، تحيط بي ، وكأنها تريد ان تتغذى من لحمي ومن دمي .
الجوع يصيح في المقل . مجرد كوني امرأة ، جميلة أو غير جميلة ، شابة أو غير شابة ، جعلهم يسلون كل شيء ، واوقفهم عن الحديث ، وعن لعب النرد وعن شرب القهوة .
شعرت « بقرف » ، وفهمت لماذا تختفي نساؤنا ، ولماذا

تختفي معها نكهة القهوة في مثل هذه الأمكنة ...

وجذبني زياد بحزم من ذراعي ، وهو يقول :

– سنشرب فنجان القهوة عندك او عندي في البيت ...

– هذا رأيي ايضاً ... سأذهب الى السيد فارس غداً

وعدت الى البيت مسرورة وساخطة .

مسرورة ، لأن زياد الى جانبي ولأنني حرة ، استطيع ان اذهب معه الى اي مقهى ، الى اي مكان اشاء . وساخطة ، لان هناك مثلاً فرنسياً يقول : « لا يوجد مزيفو دراهم ، في بلدة لا تستعمل فيها الدراهم » كذلك ، لا توجد حرية في بلدة لا مجال فيها لممارسة هذه الحرية .

انا حرة ، استطيع ان اذهب مع زياد الى اي مقهى اشاء ، ولكن المقهى الذي اتوق اليه ، والذي يذهب اليه من يشاء ، من الرجال والنساء ، ليأخذوا بكل بساطة ، فنجاناً من القهوة ، او كأساً من « البوظة » دون ان تلتهمهم العيون وتلوكهم الألسن ، هذا المقهى « الطبيعي » ، للاسف ، تفتقده بلدتي ...

٥

وفي ذات ليلة ، وكنت وحيدة استمع الى موسيقى شوبان ، جاء زياد .

جلسنا نتحدث ، وفجأة ، اقترب ، واقترب مني . وامسك يدي المرتجفة ليخفيها بين يديه ، وغيّب نظراته في وجهي ...

كان في نفسي شعور غريب ، خفيّ ، ينبئني بأن هذه السهرة لن تكون كاللواتي سبقنها ...

وكانت انفاسي تتلاحق بسرعة ، ولكنني لم اقل شيئاً ، وما كان باستطاعتي ان اقول !

وبقيت اتابع سير الحوادث ، واطرب سمعي بالكلمات التي تنهمر من ثغره ، فتتهدّل حول انفاسي عقداً متلألئاً ...

— ريم ... ان شعوري نحوك غريب ، لم اشعر بمثله من

قبل ... وحبي لك يزداد يوماً بعد يوم ... ان شعوري نحوك عميق ... عميق ... ريم ... صغيرتي ريم ...

ثم قال فجأة :

– ريم ... قبليني !

اردت حالاً ان استرد يدي من يديه ، واجفلت قليلاً ، كطفل اهين في كرامته ، ثم تمتمت بطهارة وذعر :

– زياد ... انك تسيء بي الظن ... انا لست ... ارجوك زياد ... انا لست ...

جذبني بشدة نحوه :

– انت عظيمة ... وانت حبيبتي ...

شهوة تراقصت في عينيه ...

ونداء عربد في شفتيه ...

والدفء يثيرني ... وكنت ضائعة ... ابحث عن نفسي بين ذراعيه ...

ولكن الشعور بأنني ، في نظره ، امرأة كسائر النساء ، البسني رداء من جليد .

– لا تجمدي هكذا ... ألست تشعرين ؟ الست انسانة ؟

– بل لأنني انسانة ... ارجوك زياد ... اتركني ...

لكنه لم يسمع ما قلت ، ووثبت شفتاه تحاولان إذابة الثلج المسدل على وجهي ؛ انتفضت هاربة :

– زياد ... انت مخطئ ... مخطئ جداً ... ابتعد عني ... ابتعد ... سأشرح لك ... فيما بعد ...

– ماذا يا ريم ؟

لم ادرِ فعلاً ما سأشرح له ، سوى ان الصلات المادية والجسدية ، برأيي ، مقدسة ، ولا يمكن ان ادنيها الى مستوى اللذة العابرة :

– فيما بعد ... سأشرح لك فيما بعد ... ابتعد عني ؛

اكفهرّ وجهه ، وقال :

– كما تريدين ... سأنصرف ...

وزرّر معطفه ، ورمى اليّ ، من عليائه ، نظرة لئيمة ، هازئة ، وقال :

– قبل ان تشرحي لي شيئاً ، اسمعي نصيحتي : تعلمي انت كيف تكونين امرأة ! انت لست امرأة ...

وأعادها باللغة الانكليزية :

That's true ...
Learn how to be a woman .

وامسك لفافة اشعلها ببرود ؛

جرحتني كلماته ...

« أنتِ لست امرأة ... انتِ لست امرأة ... »

اخذت هذه الجملة تدوّي في رأسي ، وزاغت عيوني في بضع كلمات سود ، رسمتها مخيلتي في الهواء ... وفي الدخان ... وفي اعقاب السجائر ... :

تعلمي ... كيف ... تكونين ... امرأة ...

انا لست امرأة !

قد يكون على حق ! انا لا اعرف كيف اقبّل رجلاً ، ولا اعرف كيف استجيب لشهوة رجل ، ولا استطيع ان اهب نفسي رجلاً : ولكن ...

ولكن ... لماذا لا استطيع ؟

وبسرعة البرق ، لمعت ملايين الأفكار في رأسي ، وراحت كالرعود تزمجر ، وتعصف بكل اعتقاداتي الماضية ...

لماذا ... لماذا لا استطيع ؟ اهي التقاليد ؟ اهي العادات ؟ ألست املك تمام الحرية ، في ان اهب نفسي وجسدي من اشاء ، ومتى اشاء ؟

تعلمي ... كيف ... تكونين ... امرأة ...

أأنا لست امرأة لانني لم استجب نداءَه ؟

بلى ...

انا لست امرأة ، لانني شريفة ! ولكن ...

هل انا شريفة ؟

انا التي احدّث الرجال ، وأحبّ صداقة الرجال ؟ هل يعتبرني الناس شريفة ؟ انا التي أرافق شاباً الى السينما ، واستقبله في بيتي ؟

انا لست امرأة ! لماذا ...؟

الأنني اريد ان احافظ على هذا الذي يدعونه « شرفاً » ؟

ما هو الشرف ؟

هل لمعنى الشرف قيمة مطلقة ؟

هل لكلمة « شرف » مدلول واحد في جميع انحاء الأرض ؟

لماذا الفتاة الغربية ...

الفتاة السويدية مثلاً ، تدعو الشاب ليقضي ليلته معها ، في بيتها ، وفي مخدعها ، ويرى الناس ذلك طبيعياً ؟

لماذا ، في جزر التاهيتي ، تحمل الفتاة ، وتنجب من اي رجل ، ويعتبر الطفل شرعياً ، ولا تعتبر هي مرذولة ؟

لماذا ، في المانيا وفي امريكا ، يرون انه من الضروري ان يكون للفتاة صديق ؟

ولماذا ... لماذا في بلادي يقولون عن فتاة ، إنها مستهترة اذا قابلت رجلاً تعرفه ، وصافحته في الطريق ؟

كلمة « شرف » لا تعني شيئاً بحد ذاتها ، المجتمع هو الذي يضع قيمة لمعناها .

يقولون عندنا عن امرأة تثير الضغائن ، وتحوك الفتن ، وينخر قلبها الحسد ، ولا تترك فرصة تمر دون ان تسيء فيها الى الآخرين ، إنها شريفة ، لأنها لا تخاطب الرجال ! وينعتون بقلة الأخلاق ، فتاة طاهرة طيبة ، لا تريد للآخرين سوى الخير ، لانها احبت رجلاً ووهبته نفسها ! هذا هو المنطق في بلدي ...

وانا ؟ ما رأيي انا ؟ ماذا اعتقد ؟

انا لست امرأة ! ولكن هل انا شريفة حسب مفهومي لكلمة شرف ؟

انا اؤمن بالأخلاق الصحيحة ، بالافعال التي يرضى عنها الضمير الصحيح لا العادات ...

انا لا اجد فضلاً لانسان لا يحيد عن الأخلاق لمجرد انه يخشى التقاليد ، لان هذا الانسان لا يبذل مجهوداً شخصياً للتفريق بين الخير والشر . اخلاقه أصبحت عادةً ورثها ، لا ضميراً يهتزّ لأفعاله .

تعلمي ... كيف ... تكونين ... امرأة ...!

جملة صغيرة القاها ، فطعنتني في صميمي !

نظرت اليه ، كان ينفث دخان سيجارته ، ويطوي أوراقه المنثورة على الطاولة .

نعم ! هو رجل ... وانا ... انا لست امرأة !

لان « قاعدة الشرف » في بلادي تطبّق عليّ انا ... انا الفتاة ...

ولكن ... اليس لي شعور يتدفق مثل شعور زياد ؟ بل اكثر ؟ أليس لي جسد تنهشه الشهوة مثل زياد ؟

انا اكره الابتذال ، ويزعجني ان تتدهور العلاقات الجسدية الى مستوى الأكل والشراب كما هي في السويد .

انا لم اشعر بالحرمان قبل اليوم ، لانني لا استطيع بل لا اريد ان اهب جسدي دون ان افني قلبي ...

ولكنني اليوم اتألم ... انا احب ...!

هل الحب محرم ؟ وهل يعلم المجتمع ان كلمة شرف كلها تذوب في حروف الحب ؟

شرف ... شرف ...

كل واحد هنا ينادي بالشرف ، ولكن هل هناك واحد

يفهم معنى الشرف الحقيقي ؟

وفجأة ، تجسمت امام ناظريّ قصيدة للشاعرة نازك الملائكة :

الأخ الذي يقتل أخته « غسلاً للعار » ، ثم يذهب الى الحانة ليشرب بين احضان « الغانية الكسلى » نخب الشرف المستعاد !

نعم !

الشرف كلمة نتغنى بها ، لا عن عقيدة ، بل عن انانية ، وغرور وسخف !

تعلمي ... كيف ... تكونين ... امرأة ...!

جملة القاها ، فجاءت عاصفةً تنفخ الرماد ، وتوُجج الجمر النائم في كياني ...

جملة صغيرة ، دمّرتني ... واشعلتني في آن واحد ...

هذا الرجل الذي تتكلم اعوامه التسعة والثلاثون عن تجاربه في اوروبا ، نسيَ ... او تناسى انني شرقية ، ولم ابلغ العشرين من عمري !

اقترب من الباب ...

لا ... لا ... لن ادعه يذهب !

انا أعلم انه لن يعود ، فهو من النوع المادي الكسول الذي يريد ان يربح المعركة منذ بدايتها ، ولا يمكنه ان يحارب حتّى غاية الشوط ؛ لان الهدف — مهما عظمت قيمتُه — لا يستطيع ارغامَه على التضحية ... فالانانية عنده دين ! والدين عنده تجربة ... تجربة قصيرة يجب ان يكون لها حدّ .

لا ... لا ... لن ادعه يذهب !

– زياد ...

التفت ، لتحبو نظراته على ذراعيّ الممدودتين نحوه ، كطريق مرمرية ، ولتستقر على الثغر الذي ينغّم :

– زياد ... انا ... انا امرأة ... وستبرهن لك الأيام ...

حمله الشوق من جديد نحوي ، وراحت يداه تزحفان على ذراعيّ ، وغمرت انفاسه وجهي :

– ريم ... ريم ... حبيبتي ريم ...

لم اشعر بضعفي ، لأنني لبيت نداءه بملء ارادتي ، وانا مستجمعة وعيي ، ومالكة اعصابي تماماً .

كنت اعرف ما اريد ، وواثقة بما اريد ، ومقررة ان استمر في تجربتي مع زياد حتى نهايتها ...

لكنني شعرت برخصه هو !

انه اصغر من ان يترفع عن الماديات ...

ولكنني سأبقى معه ، والأيام بيننا ...

سيعلمني ، كما يقول ، كيف اكون امرأة واقعية وفنانة ، لا بأس ، قد ينفعني ذلك في المستقبل ؛

اما انا ،

فسأعلم هذا الرجل ، ذا العيون المتحجرة ، والعاطفة التجارية ، هذا الرجل الذي هو اقرب الى المادة منه الى الحياة ، سأعلم هذا الرجل الذي احب ، كيف يكون انساناً ...

٦

سأعلّمه ...

سأعلمه كيف يكون انساناً .

سأزرع في عينيه النهمتين نظرات عاطفية ؛ سأغرس في نفسه اليابسة قيَماً صحيحة ، وسأزيح عن كاهله اعباء السنين الماضية ، ورواسبها .

سأبقى معه ... وسأصبر ... سأصبر مع الأيام ...

وسيفهم يوماً ما ان قلباً واحداً ، يختلج بحب نبيل ، يساوي جميع لذات الأرض الفانية :

في الأسابيع التالية ، تغلغلتُ ، دون ان يشعر ، في وجوده ؛ حاولت بجميع الطرق ان أفهمه ، وان اهتمّ بالأمور

التي تهمه ، وان اقدّم له صداقة هادئة يرتاح اليها .

اصبحت ادرس الموسيقى في غيابه ، لأناقشه في موسيقاه ، عندما يكون هنا ، ولأتمكن من مساعدته في نسخ المقطوعات التي يؤلف . صرت اطالع ، لأجد مواضيع جديدة ابادله فيها الرأي . وقبل كل شيء صرت اعتني بشكلي ؛ وكيف انسى انني امرأة ، واهتمامي بزياد يوقظ انوثتي ؟

وتوالت اجتماعاتنا ، وكنت اشعر ، في كل مرة ، بأنه يتقرب اليّ نفسياً اكثر من المرة الفائتة .

صار يأتي اليّ خصيصاً ، ليسمعني مقطوعة جديدة الّفها ، او ليحدثني عن مشاغله ، ويشكو اليّ همه ، ويسألني رأيي في كل الأمور .

وكان يقول لي دائماً :

ـ ريم ... انا رجل اعرف الكثيرات ، لكنك تختلفين عن الجميع . ان روحك شفافة ، شفافة ... حتى انني اخاف عليك ... انت تشغلين تفكيري دائماً ؛ شعوري نحوك عميق ، هادئ ، وكأنني عرفتك دائماً ... صدّقيني ... انا اخاف عليك ... هل تفكرين انت في مستقبلك ؟ هل تعتقدين انه باستطاعتك ان تتفاهمي مع ألفريد ؟

وكنت دائماً اهز رأسي نفياً ، فيقول بحزم :

ـ اذن اتركي الوظيفة ، تابعي دروسك ، عودي الى الجامعة ، ثم ... لماذا لا تكتبين الشعر هذه الأيام ؟ لا اريدك ضائعة في الحياة ... ضعي هدفاً لوجودك ... هيا اجمعي

قصائدك القديمة واطبعيها ، واكتبي اشياء جديدة ... اكتبي ... انا مؤمن بمواهبك ... اريدك ان تصبحي شاعرة مرموقة ... بل سأجعل منك شاعرة كبيرة ...

كان اهتمامه بي يملأني بالنشاط . كنت بحاجة الى أب يدفعني الى الأمام ، يشجعني ، يحميني .

وكان هو يزيّن حياتي بهالة عطفه ورعايته ، لكنني في اعماقي لم اكن راضية تماماً ؛ فانا شابة والحياة تفيض من كياني ، وهذا المزيج من الأهتمام والاعجاب والمودة الذي كان يبديه لي ، لم يغنني عن الحب . كم من مرة شعرت بحاجة الى ان اصرخ في وجهه : « لماذا ... لماذا لا تحبني ؟ » لكنني كنت أُعزي نفسي بأنه لا يعرف كيف يحب ، وكانت كلماتي تذوب في ابتسامة حزينة ...

وجاء ذات مساء ، وكنت ارتدي ثوباً من « التريكو » الأسود ، ضيقاً جداً . وكنت قد اشتريته ، بعد ان قال لي مرة ، ونحن نسير في شارع « الصالحية » :

– انظري ... هذا الثوب في الواجهة ... انه جميل جداً ...

رمقني حين دخلتُ الغرفة ، ثم حدجني بطرفه وقال :

– ريم ... انت جميلة ... هل كنت جميلة هكذا حين تعرفت بك ؟ ام استهوتني روحك حتى انني نسيت شكلك ؟ اليوم الاحظ انك جميلة ... بل مغرية ...

قلتُ ، وانا ابتسم بتحد :

– اذا كنت تنظر اليّ بعين الفنان ، فهذا مديح اشكرك عليه ؛ امـا اذا كنت تتكلم بلسان الرجل ، فالأوفق ان تستهويك روحي ...

– ريم ... لا تكوني ماكرة ... انت تشغلين تفكيري دائماً .

رنّت ضحكتي تستخفّ بما يقول ،

– ريم ... لماذا ، دائماً ، لا تصدقين ما اقول ؟ لماذا لا تصدقين انك تشغلين تفكيري ؟

شعرت بنوع من التسلية ، وأحببت ان أغيظه ، ممازحة ، فسألت :

– أخبرني زياد ... هل كانت كل امرأة من اللواتي عرفت ، تصدّق ما تقول لها ؟ اخبرني بكل صراحة ... فذلك يُفيدني في دراستي الخاصة لعلم النفس ...

كانت لهجته الهازئة وهو يجيبني ، لا تخلو من الاسى :

– ايتها العالمة الكبيرة ، يؤسفني ان اعترف لك ، بان كل امرأة مرّت في حياتي كانت تصدقني ، حتى ... حتى لو لم أقل شيئاً ... اليس هذا مضحكاً ؟ وكان تصرفها يجعلها تصغر في نفسي ، ويحيل اعجابي بها الى اشفاق ...

وسكت ... ثم اردف ضاحكاً :

– هناك امرأة واحدة ماكرة وذكية استطاعت ان تفهمني على حقيقتي ... استطاعت ان تكتشف انني ... كاذب ... وهذه الماكرة هي انت !

احببت صراحته ، وقلت بعجب :

ـ غريب ... كيف لم تفهم احداهن انك تتسلى بالكلمات ؟
ونظرتُ اليه ...

كانت عيناه ، برغم تقطيبه ، تفيضان بالعطف ؛ وكانت شفتاه ترتعشان ... تريدان البوح ... وتخشيان البوح ... واخيراً تمتم :

ـ اغرب ما في الحادثة ، انك الوحيدة التي اكتشفت كذبي ، وانك الوحيدة التي لم اكذب عليها قط ... يا للسخرية !

اختلج قلبي ، لا من كلماته ، بل من تعابير وجهه ، وهو ينطق بهذه الكلمات . وفكرت : اما ان زياد قد ابتدأ فعلاً يحبني ، واما انه ممثل في منتهى البراعة ! ولكن ... هل انا ساذجة الى هذا الحد ؟ الا يمكن لحدسي ان يتبين الحقيقة فيما يقول او يدعي ؟

وكأنه فهم ما يجول في خاطري ؛ فاقترب ، وجلس الى جانبي على الديوان :

ـ لماذا اكذب عليك يا ريم ؟ هل تعتقدين انني الهو بك ؟ لا تكوني سخيفة ! يؤلمني الاّ تجد عاطفتي تقديراً عندك ... ريم ... ثقي انك المرأة الوحيدة التي استطاعت ان تملأ كل فراغي ... اصبحت املّ الآخرين ... والاخريات ... واضيق بصحبة الاصدقاء ... ريم ... قد تجهلين انه ليس لي صلة بأية مخلوقة غيرك ... قطعتُ صلاتي بالجميع ، لانني لا ارتاح الا اليك ... يقولون انني لا اعرف كيف احب ... قد يكون هذا صحيحاً ، لكنني لا استطيع ان انكر هذا الشعور الذي يملأني ؛

اودّ ان ابقى معك ... اود ان اسافر الى بلدان بعيدة وانت الى جانبي ... أودّ ان اوُلف بالقرب منك ... غريب ، لم اكن اتوقع ان تأخذ علاقتنا هذا الشكل الجدي ... كانت المرأة بالنسبة اليّ تنتهي منذ الأيام الاولى لمعرفتي بها ... لكن تعلقي بك يزداد يوماً بعد يوم ... انت لست امرأة فحسب ، انت انسانة ... انسانة كاملة ...

وحضن وجهي بيديه :

– انظري اليّ يا ريم ... انظري اليّ ... على طريقتي الخاصة ... احبك ... نعم ... احبك من كلي قلبي ...

ترقرقت الدموع في عيوني ...

كنت اشعر دائماً بحاجة الى البكاء عندما اكون سعيدة وكأنني اريد ان أُرصّع لحظة السعادة بجميع احاسيسي المتباينة ، من ارتعاشات ، وابتسامات ، وضحكات ودموع .

وددت في تلك اللحظة ان اكون كالاخريات ، فتاة كسائر الفتيات ، لأصدق تماماً ما يقول :

– صغيرتي ريم ... قولي إنك تصدقين ... قولي إنك تعرفين ...

تلعثمتُ ... وخانتني الكلمات ...

وسمعنا نقراً على الباب ، فابتعدتُ عن زياد ، ودخلتْ دنا تحمل القهوة .

كنت احبّ دنا ؛ كانت تأتي دائماً في اللحظات اللامتناهية ، فتضع القهوة على الطاولة ... والحدّ لارتباكي ...

ورشفنا قهوتنا ، وطلبت من زياد ان يصحبني الى مقهى افتتح مؤخراً في الصحراء ...

وذهبنا الى هناك ... حيث الهواء الطلق ، والفضاء الرحب المريح ، والنجوم المبعثرة ...

هناك ... حيث يستطيع الانسان ان يمتّع طرفه بسماء ليالينا الواسعة ، الصافية ، النقية ...

*

وجاء شهر تموز بحرّه المتزايد ... لكنني ، لأول مرة في حياتي ، لم انزعج من الحر ، بل لم اشعر به ؛ لأن تفكيري في زياد استولى على جميع حسي ...

وكان زياد ، مذ ترك المعهد لعطلة الصيف ، يؤلف كتاباً في الموسيقى الحديثة ، وكان المفروض ان ينتهي الكتاب في نهاية الشهر ...

اما انا ، فقد تركت الوظيفة لأنني اقتنعت بانه يجب عليّ ان اكمل تحصيلي ؛ وبقيت في البيت ، اهيّء نفسي لدخول الجامعة بعد اشهر ، واحاول ان اجمع قصائدي القديمة وانقحها لاطبعها في يوم من الأيام ، ارضاءً لزياد ...

وذات يوم لم يأت اليّ زياد ، ولم يخابرني :

بقيت انتظره ... لم يأتِ ! اخيراً خابرته ، فلم اجده .

حالاً استولى عليّ الضياع ، ووجدت يومي كلّه فارغاً .

وفي المساء ، حين جاءت ليلى وجدّتي وبعض الاقرباء الذين لم ارهم منذ زمن بعيد ، حاولت ان الهي نفسي باحاديثهم ؛ ولكن ، فجأة ، بين اللغط والكلام ، شعرت بخوف ، خوف من الوحدة ومن اليأس ؛ الكل حولي وانا وحيدة ، ووحدتي هذه المرة معناها انه سلاني ...!

دخلتُ غرفتي ، وظلت الأصوات تلاحقني ...

هذه الأصوات تخيفني ، وتزيد في وحدتي ؛

انا وحيدة ... وحيدة ... وخائفة ...

وشعرت بارتياح حين انصرف الجميع ، وبقيتْ ليلى :

– ما بك يا ريم ؟

– لا شيء ...

– اين زياد ؟

– لست ادري ...

هزّتْ رأسها وقد فهمت سرّ ضياعي ، واردفت :

– الحر لا يطاق ! كيف لا تشعرين بالحر ؟ هيا الى نزهة في السيارة ...

رافقتها ، وانا اقود سيارتي ، شاردة ؛ وهناك ، على طريق « دمّر » ، استوقفتني ليلى لتقول مازحة :

– يا آنستي ... الموسيقى تُستوحى من شلالات المياه ... انه هنا ... انتظريني ، سالقي نظرة على المكان

وفعلاً ، كانت سيارته الصغيرة تربض الى جانب الرصيف ورأيتُ ليلى تدخل المقهى الصغير .

بقيت افكر : ان زياد جاء الى هنا هرباً من الحر ...
لقد انساه الحر وجودي ، ووجوده ينسيني الحر !
انه حتماً لا يذكرني الآن ، ولكن يجب ، يجب ان اعبر في خاطره ، فتعانقني افكاره ولو لثانية ، وانسى الخوف .
وعادت ليلى راكضة :
– لقد لمحته هناك ... يكتب . انه وحيد ...
خطر لي خاطر ، فنبشت في جيب السيارة ، عن ورقة وقلم صغير ، وخططت بضع كلمات ، ارسلتها اليه مع البواب ، وعدت الى بيتي جذلى .
وانصرفتْ ليلى وهي تقول :
– انت مجنونة ...!

وبعد نصف ساعة من رجوعي ، ترنّم جرس الباب معلناً مجيءَ زياد . ابتدرني ممازحاً :
– شاعرتي الصغيرة ، يظهر انه يلذّ لك ان تشغلي تفكيري بصورة مستمرة ، ويظهر انك تنجحين تماماً ... مذ تسلمت الورقة وقرأتها ، لم اعد استطيع حصر افكاري ، ومتابعة الكتابة ، فرميت اوراقي الى جهنم ، وهرولت اليك .
ثم انقلبت ملامحه ، وشعشع الحنان في وجهه ، ولفّف نفسيَ التائهة صوتُه الدافئْ العريض :
– كيف تشعرين بالوحدة ، وانا دائماً الى جانبك ؟
وبرفق امسك وجهي بين يديه الكبيرتين ، وهمس :

ـ لا تخافي ابداً ... انا دائماً معك ...

فالتصقت به ، مرتعدة ؛ وتعلقتْ يداي بمنكبيه العريضين ؛ وتمنيت ... تمنيت في تلك اللحظة ، ان اذوب بين ذراعيه ، هياماً ... ووجداً ...

اذكر اليوم هذه الحادثة بشيءٍ من الحنين ... اذكر كيف بقيت الورقة الصغيرة اشهراً مختبئة في محفظته ، وبماذا اجاب عصام الذي سأله مرة عن هذه الورقة ، وكانت قد وقعت ، وهو يخرج بعض الدراهم :

ـ هذه يا عصام اجمل هدية ... اعذب عتاب تلقيته في حياتي ... عتاب تذوب فيه الرقة وتفوح منه الانوثة ... كصاحبته ... »

واذكر اليوم تماماً هذه الورقة الصغيرة الخضراء ، ودبوس الشعر الذي اخترق طياتها ليقفلها ، والكلمات القليلة البسيطة ، البسيطة جداً ، التي همستْها روحي داخلها ... :

« اهكذا سلوتني ؟
اهكذا تركتني
يا صاحبي ... وحيدة ؟
الست تدري انني
من وحدتي ... اخاف ؟ »

٧

الخلاصة ...!

تعلقت بزياد تعلقاً جنونياً ، فقد وجدت فيه الأب الذي افتقد ، والحبيب الذي انشد ، والطفل الذي أغمر بعاطفتي الفياضة .

وتوالت الأيام ، وانا اعيش لزياد ، واتجمل لزياد ، واعد الثواني الطوال التي تفرق بيني وبين زياد ...

اصبحت اكره النوم ، والأكل ، وكل ما يذكّرني بانني ما زلت مرتبطة بالحياة الأرضية . وكانت ليلى تمازحني :

« كيف ... هل نسيتِ ان الأكل من لذات الحياة ؟ »

وصرت اعجب كيف يقضي الانسان نصف حياته نائماً ،

الا يكفيه انه سينام طويلاً ... طويلاً ... بالرغم منه ، في يوم من الأيام ؟

وكان الدافع الوحيد الذي يُغمض اجفاني في كل ليلة هو يقيني بانني ساجتمع وزياد في احلامي ...

وكان الحر يزداد ، يوماً بعد يوم ، مثل حبي ... حتى صرت احار : أأنا اتحرق بلهيب صيفنا ام بضرام الحب ؟

وكنت احسّ نشوة حين يأتي زياد وقد ارهقه العمل ، والحر ، فاركض اليه ، وامسح بيدي جبينه ، وألملم قطرات السائل المالح ، الملتمعة بين خيوط الشعر البيض ...

وتعتريني اللذة ، انا التي اكره الحر ، حين يحتضنني ، فاتلمس القميص المبلل بابخرة الصيف ، وأغمس فيه اصابعي ...

*

ومرت الأيام الاولى من شهر آب .

واستيقظت ، ذات صباح ، على موسيقى الهاتف :

– صغيرتي الحبيبة ... كل عام وانت بخير ...

– زياد ... صباح الخير ... ماذا تقول ؟

– كل عام وانت بخير ... أنسيت ان اليوم عيد ميلادك ؟ اردت ان اخابرك قبل ان اذهب الى عملي لأقول لك انني فرح بعيدك ، وكأنه هدية لي ...

ـ شكراً ... زياد ... ولكن كيف ... كيف تذكرت عيدي

ـ كل شيءٍ يتعلق بك يهمني واذكره ... عيدك ... عيدي ، هل نسهر معاً هذا المساء ؟

ـ بل لن اسهر إلا معك ...

ـ اذن سامرّ بك حال انتهاء عملي ...

ـ الى المساء ...

حادثة صغيرة ... وهاتف مبكر ... وصوت حبيب ... صوت ملأني حيوية . لقد تذكر زياد ان اليوم عيدي ، فاحالت هذه اللفتة البسيطة ثواني يومي الى قطرات نور وضياء .

قضيت الصباح ، وانا اعدو في البيت ، اداعب رانية ، وامازح الخادمتين ، واشكر عيدي الذي حمل اليّ تفكير زياد .

عيدي ... اليوم عيدي ...

انا اليوم اشعر بان نسيماً سكران يحملني بين اجنحته الى عالم جديد ... عالم مليء بالأحلام ، والأنوار ، والموسيقى ، والشباب ...

اليوم فقط تبينتْ لي حقيقةٌ جميلة كنت اجهلها : حقيقةُ سني وشبابي . انا في العشرين من عمري ، وكل هذه الترّهات ، وهذه الأفكار السود التي اوحت اليّ بها ايام اليأس والفراغ ، ليست الا خرافات .

انا شابة ، وصغيرة ؛ واعوامي العشرون تنادي الحياة ، وتبتسم للرجل الذي يحميني ... ما اجمل هذا الشعور .

كنت دائماً أتلهّف الى رجل يحيطني برجولته ، وبأسه ،

وحبه : رجل استقر بين ذراعيه ، فيمزق شفاهي ، ويكسر ضلوعي ؛ ويستطيع في وقت آخر ان يستقبل على كتفه دموعي...

كنت عطشى الى الشعور بحماية رجل ؛ هذا الشعور الذي يبرهن لي عن حقيقة سني .

عشرون عاماً ! كم تمنيت لو تكون هذه الأعوام وروداً ... عشرين وردة ، اقدّمها هديةً صغيرة ... لساقيها .

وتلوّن الأفق بأشعة الأصيل ... وفاض قلبي بالأمل ... بعد لحظات ... مع الغروب سيأتي زياد .

ونظرت الى نفسي في المرآة : طفولتي وانوثتي تختلطان بشكل غريب ؛

عيناي تبتسمان في براءة لطيف الرجل الآتي بعد قليل ، هذا الرجل الذي يغلفني بعطفه وحمايته فيُشعرني بانني طفلة ...

وشفتاي تنفرجان عن فورة من الشوق ، وترتجفان للرجل نفسه ؛ الرجل الذي اشعل بنظراته النيران في عروقي ، ونفخ من انفاسه الحياةَ في وجودي ، وفجّر انوثتي :

تأملت في ثوبي الليلكي الجديد : سيحبّه ...

انه لك يا زياد ... ولك وحدك ...

دعه يتلألأ في عيونك ... واسحب خيوطه باهدابك ... وابعث نظراتك تتسرب من خلال اشلائه ، لتلتهم الجسد

الذي يتفجر من اجلك حياةً ...

وشعري الأسود الطويل ؟

لقد عقصته في مؤخرة رأسي ، كي يتسنى لك يا زياد نثره عندما تشاء ، فتضيّع انفاسك في ليله العطر ...

وقطع عليّ تأملاتي مجيءُ جدتي ، وليلى ، ونادیا ، وبعض الأصدقاء ، يحملون اليّ الهدايا ، ويهنئونني بعيد ميلادي ، جلست معهم ، احاول ، واحاول ، ان اكون ... معهم ! احاول ان اشاركهم احاديثهم ،

ولكن عبثاً !

في ذلك اليوم شعرت بان الأصدقاء والأقرباء ، والهدايا ، والأحاديث ... حتى صورتي في المرآة ، حتى الثواني التي تمر ... كل هذه الاشياء ، تأخذ فجأة صورة واحدة : صورة زياد ...

وفجأة ... دخل زياد !

لست ادري كيف ملكت اعصابي ، ولم ارتمِ بين ذراعيه ... لكنني وقفت ... مذهولة ، أنظر اليه ... كطفلة ضيّعت دنياها ، فوجدتْ ملجأً ومعبداً لها في عينيه ...

وتحولت نظراتي الى الرزمة التي يحمل ، فاخذتها دون وعي ، وضممتها الى صدري ، واندفعت الى غرفتي ، انزع الخيوط التي تربطها ، وامزق أوراقها ، لأغمر اكتافي بالشال المنسوج بزهور الليلك : هدية زياد ...

لم تزعجني نظرات ناديا المترفعة ولا ابتسامتها الشاحبة ، ولا وجه جدتي الذي انتفخ من الغيظ ، ولا امتقاع الأصدقاء ... ولا ارتباك ليلى ...

لا ... لم يضايقني استياؤهم ، ولا انسحابهم بسرعة الواحد تلو الآخر ، ووقفت فرحة ، ومددت يديّ لزياد ، فضمهما في يديه :

– كل عام وانت بخير ... يا حبيبتي ... هيا بنا نتعش في احد المطاعم ... قاربت الساعة الثامنة والنصف !

*

وفي حديقة مطعم الشرق ، انتقينا طاولة صغيرة جلسنا حولها بطمأنينة ، تُلوّن موسيقى الجوقة احاديثَنا ، وتعزفُ كأسانا نخبَ حبنا ، ونلتهم عشاءنا ، دون ان نعير اهتماماً للعيون التي تلتهمنا ...!

وعلى باب بيتي ، امسك يدي وقبّلها ...

– ريم ... كل عام وانت طيبة ... الى الغد ...

– لماذا لا تدخل يا زياد ، فتأخذ قدحاً من المشروب الذي تحب ؟

– الآن يا ريم ؟ اودّ ذلك من كل قلبي ... ولكن ، ألا تخشين السنة السوء ، والناس من حولنا عيون سارقة ؟ انا اخاف عليك يا ريم ... لا على نفسي ...

– زياد ... ما دمتَ انتَ الى جانبي ، انا اتحدى السماء ...
تعال ... اليوم عيدي ... وفي الأعياد يجوز لنا ان نجعل من الحياة العادية حلماً جميلاً ... ومن الأحلام حقيقة ... تعالَ زياد ... لننس الدنيا ... هذه اللحظات ملكي ... والليل قد قتل مخاوفي ... تعال ...

احاط كتفيّ بذراعه ، ودخلنا معاً .

اضأتُ الفانوس الأصفر الصغير ، وبينما ذهبت احضر له كأس المشروب ، اهتمّ هو بوضع اسطوانة لشوبان في الحاكي ، وجلس على المقعد الأخضر ، مقعدِه الدائم .

قدمت له مع الكأس سيجارة ...

وتكوّمتُ عند قدميه كقطة صغيرة أليفة ...

ورفعت الطرف ، اتأمل في هذا الوجه الذي انطبع في عيوني ، فأصبحت ارى الدنيا من خلاله ...

احبّ هذه الأعوام التسعة والثلاثين التي تنساب تجاعيدَ في اعلى خديه ...

احب هذا التعب ... تعب الأيام ... الذي يسوّر شفتيه ...

احب آثار التفكير العميق ... والأتلام التي حفرها الهمّ في جبهته ...

وهذا الحنين الذي قتلته السنون ... وعاد من جديد ... ينبعث في عينيه ...

اعتدل في جلسته ، وتأملني ... طويلاً ... وقطّب وجهه ، وتتابعت في سماء عينيه الشموس والغيوم ...

شموسُ الحب ، وغيومُ الخوف واليأس ، وتهدج صوته :
– ريم ... صغيرتي ريم ... احبك ... احبك كثيراً ...
ما ظننت يوماً انه بامكاني ان احب امرأة بهذا الشكل ... حبي لك غريب ... انا اخاف عليك يا ريم ... اخاف عليك مني ... اشعر بانني ممسك بيدي كأساً رقيقة من الماس ... كأساً ثمينة جداً ... ورقيقة جداً ... وحساسة جداً ... واخاف ... اخاف ان تكسرها يداي الخشنتان ... ان حياتي وسخة يا ريم ... وماضيّ غدير اخطاء ووادي معاصي ... نعم يا ريم ... لأول مرة اشعر بقذارة ماضيّ ... يخيل اليّ انك نموذج للطهارة والبراءة ... ان روحك توحي اليّ بالثلج الناصع الشفاف واخاف ... اخاف ان ألوّثه بانفاسي السود ...

كنت اشعر بان حرباً تنشب في اعماقه ... بين عاداته الماضية السقيمة ، وضميره . وكان حبي له يعظم في قلبي ...

هذا الرجل الذي يعترف باخطائه ، وجدت له الأعذار : ان الظروف التي احاطت به ، هي التي دفعته الى هذه الزلات .

قلت بحزم ،
– زياد ... انا احبك ... وافهمك ... ماضيك لا يهمني ، يشغلني حاضرك . وفي الحاضر ، انت « عيوني » يا زياد ... واعز من عيوني ...

واحنيت رأسي على كتفه ، فتسللت اصابعه تنقذ الخصلات السود من الدبابيس القاسية ، وتعيد الحرية لشلال الشعر العاتم ...

وارتفعت همساته الحنونة :

– ريم ... صغيرتي ... يا حبيبتي ...

رفعتُ نحوه ثغري ...

فخيّمت انفاسي على دفء كلماته ...

وامتزج شوقه بصلاة عيوني ...

برفق ...

احتوى العشرين عاماً بين ذراعيه القويّتين ؛ فاختلطت في ناظريه الشهوة بالحنين ... وتماوج في ناظريّ الهوى والليل ...

وعلت ، شيئاً فشيئاً ، همهمة الحب ، تقصّر المدى بين شفاهنا ...

وتلاشى ، شيئاً فشيئاً ، خلف رموش عيوننا المغمضة ... ضوء الفانوس الأصفر الصغير ...

٨

جاءني زياد في اليوم التالي ليخبرني انه مضطر للذهاب الى بيروت لمدة عشرين يوماً لأعمال في الشركة .

سيذهب زياد ... سيذهب زياد ... هل يمكنني ان ابقى بعيدة عنه عشرين يوماً ؟

لم انم تلك الليلة !

كيف ابقى وحيدة ؟

كيف اسمح للفراغ بان يعود من جديد ؟

ونهضت ، مذعورة ، في منتصف الليل . سيذهب ... سيذهب زياد ...

ولاول مرة تنبهت ان العرق يتصبب مني ، الحر لا يطاق ! كيف احتملته حتى اليوم ؟

وفهمت ؛

كان حبنا يقتل حدة الحر ... ولكن الحر ، وحيداً ، يقتل كل شيء ، حتى هذا الشعور الحزين بالفراغ .

هذا اول صيف اقضيه في دمشق ! لماذا ؟

وما الذي يمنعني انا من اصطحاب رانية والمربية الى لبنان ؟ ولم ينبلج الصباح حتى كانت الفكرة قد اتخذت قوة القرار النهائي ، فاتصلت « بعاليه » ، وحجزت غرفتين في فندق هناك

وجاء زياد في الظهيرة ، ليودعني ، فرآني منهمكة في جمع حوائجي ، ووضعها في الحقائب . ذهل :

– ماذا تفعلين ؟

اجبته ببراءة خبيثة :

– لقد وصف الطبيب لرانية ان تبتعد عن الحر ... ففكرت ان اضحي بلذتي الخاصة ، فأصحبها الى مصيف من المصايف... وقد ... وقد انتقيت عاليه ... وسنذهب اليوم ...

وضحكتُ والتفتّ اليه :

– ما رأيكَ ؟

هزّ رأسه مستنكراً ، ثم جاءت ذراعاه تزنّران خصري :

– انت مجنونة ...!

وسعتْ شفتاه الى أذني ... تهمسان :

– لكنني احبك ... لانك مجنونة ...

*

كان زياد يأتي اليّ في كل مساء ، فنقضي سهرتنا في احد الملاهي الكثيرة في عاليه .

ومرت الأيام ...

وانا اطير من ثوب الى ثوب ... من مكان الى مكان ... من يوم الى يوم ... ومن خيالي المليء بزياد ... الى سماء عيون زياد ... الى ذراعيه القويتين ...

ولكن ...

في اللحظات التي كانت السعادة فيها تنسيني وجودي ، كان يتسرب مع الأشعة المتلألئة الى نفسي شعور حزين ...

ربما كان قليلاً من اليأس ، مبعثه الخوف ... خوفي على هذه السعادة !

وكان هذا الشعور يحثّ وعيي ويدفعني الى تقدير اللحظة ، فاتمسك بها ، وافني فيها نفسي ، واذوب في ثوانيها ذراتي ، ليقيني من انها ستزول ... ستزول ... ستزول ...

وابتدأ اهتمام زياد المتزايد بي يولّد عندي مركب نقص .

انا التي كنت امل الآخرين ، اصبحت اخشى عليه من الملل برفقتي !

هل انا جميلة ؟

هل انا ذكية ؟

أحاديثي ممتعة حتى يكرس لي زياد ، لي وحدي ، جميع اوقات فراغه ؟

وفي اليوم السابق لتركي « عاليه » ، وقفت في الصباح ، اتأمل نفسي في المرآة . وكانت رانية قد سبقتني باكراً ، الى دمشق مع المربية . ولم يكن هذا التصرف سوى قرار اتخذته كي اتفرغ في اليوم الأخير كله لزياد ، او بالاحرى ، للاعتناء بنفسي من اجل زياد .

ورمقت صورتي المنعكسة قبالتي ...

لقد مللت شكلي ...

وتسلقت نظراتي الجسد المترنح بخمر الشباب ، وارتفعت تتفحص الرأس ؛

وقطبتُ !

اللهفة تفجّر في شفتيّ دماءً وردية ، والامل يزغرد في عيوني ، ولكن لون بشرتي يضايقني !

لماذا بشرتي حنطية اللون ؟ يجب ان اصبغ وجهي بمسحوق داكن !

وشَعري الطويل ؟ شَعري يضايقني ايضاً ...

هل اعقصه ؟ ام اربطه كذيل الفرس ؟ ام اتركه متدلياً على اكتافي ؟

لقد مللت تسريحه ، مللت طوله ! لماذا اتعب نفسي في مداراته ؟ وتصفيفه ؟ لمن هذه الخصلات التي اقضي ساعات

في جمعها وعقصها ، ونثرها ؟

ان زياد يحب شَعري ، ولكن الم يقل مرة منذ زمن بعيد انه معجب بالشَعر القصير ؟

الشَعر القصير ! لماذا لا اقص شَعري ؟ وحالاً استشرت ساعتي : العاشرة والنصف ، لديّ الوقت الكافي كي انزل الى البحر وارفع وجهي الى السماء مدة ساعتين او ثلاث ، فتصبغه الشمس بالوان نحاسية ؛ ثم اتوجه تواً الى الحلاق ، وامر بزياد في طريق عودتي ...

وخرجت من الفندق .

•

اقتربت الأصابع الغليظة من شَعري ، وانغرست انياب المشط بين الخيوط الحالكة المتموجة ،

نظر اليّ الحلاق متأسفاً ، وقال :

ـ انا اجمالاً لا احب الشَعر الطويل ؛ ولكن شَعرك ثروة ... هل انت مصممة على قصه ؟

تذكرت ما كان يقوله لي زياد :

« هذه الخصلات السود هي اماسيّ العاطرة ... نظراتي تسحر من وهج سوادها ... هي انهار طيب يلذ لأصابعي ان تختفي في شلالاتها ... احب شَعرك بقدر ما احبك ... بل اكثر ... »

هل يزاحمني شَعري في حب زياد ؟

وضحكت للفكرة :

ـ هيا اقطعه !

وفجأة تذكرت ألفريد !

مع شَعري ، ساقطع آخر خيط ، ولو رمزي ، في خِطبتنا . الم يقل لي مرة : « اذا قصصت شَعرك فلن تري وجهي في حياتك ؟ » ألم ارَ ، مرة ، دمعة تنحدر من عينيه حين قصصت خصلة صغيرة دليتها على جبيني ؟

ولكن من يدري متى اجتمع بألفريد مرة ثانية ؟ وشعرت بحنين اليه ... ولكن حنيني عبر بسرعة في قلبي ليضمحل امام شوقي الى زياد ...

ـ ماذا قررت ؟

قالها الحلاق بلهجة حزينة مضحكة .

ـ ماذا تنتظر ؟ هيا اقطعه !

واقترب المقص يجزر هذا المارد الأسود ، ونظرت الى الخصلات تنهار ، دون حياة ، عند الأقدام ، وكأنها لم تكن ابداً

اين الشلالات ؟ اين العطور ؟ اين الليالي الحالكة الطويلة ؟

هذه الأماسي العاطرة ، سأدوسها اذا كانت ستسبب ملل زياد

وضحكت عندما ردت لي المرآة صورة فتاة ذات رقبة طويلة ، تلمع عيناها بين الخدود النحاسية ، والجبين الموشى بالحلقات الصغيرة السود ...

*

التفت زياد الى الفتاة التي تمر الى جانبه ، وذهل حين تأكد ان هذه الفتاة ليست الا انا ...

— ماذا ... ماذا فعلت ؟ يا الهي ! هذا جنون ! ما اقبحك !

وغرّب وجهه عني :

— ابتعدي ... وعودي اليّ بعد سنة او سنتين حين يعود شَعرك مثلما كان ...

وعاد يحدجني :

— انت فتاة اخرى الآن ... يا لك من مجنونة ... كيف تجرأت على ذلك ؟ ومتى اتيتِ الى بيروت ؟ ومتى ذهبتِ الى البحر ؟

ضحكتُ :

— هذا الصباح ، وساعود تواً الى « عاليه » لاستريح قليلاً ... ثم انتظرك ...

— ابداً ... انا لا اسهر مع فتاة قبيحة ...

ثم هزّ رأسه ... وغمغم :

— مع ان هذه التسريحة الغلامية تلائم جنونك ...

لم أقل شيئاً ، كنت واثقة بانه سيرضى ، فالمفاجآت تسرّه دائماً ، حتى ... لو كانت غير سارة !

وتركته ، قائلة :

— لا تتأخر ...

في « علبة ليل » صغيرة ، جلسنا في ركن منعزل ، تستغيث من فجوات في جدرانه ، اضواء حمر خافتة .

تأمل شَعري ، وقال :

— الآن ... تحسّن شَعرك وشكلك قليلاً ...

ابتسمتُ ، وتابع :

— تبدين اصغر مما كنت ... الآن انت في العشرين ... كان شَعرك الطويل يعطيك شيئاً من الرزانة ... من الهيبة ، كسيدة متقدمة في السن !

— اذن ... أعجبك ؟

ضحك :

— قد يعجبني ... بعد ايام ...

ورفع يده يتلمس الحلقات السود ، وتابع :

— وقد تتعوّد اناملي مسحَ الزغب الأسود ... بل قد تحبه ...

وسكتَ .

وعزفت الجوقة الموسيقية ، وصدحت الألحان ، تدعو الجالسين الى حلبة الرقص ...

سأل :

— هل خابرتك رانية حين وصلت الى دمشق ؟

— اتصلت بي ناديا واخبرتها انني سأعود غداً ...

تمهّل السؤال على شفتيه :

— غداً ...؟ غداً ؟ او بعد غدٍ ؟

ابتسمتُ ... وقلت بعفوية :

ـ انا ... لست ادري ... سأعود معك ...

ارتفعت نظراته تعانق الشفتين الحانيتين ، ثم العينين الملحتين ؛
وبين عينيّ وعينيه ... عزفت نظراتنا انغاماً جنونية ...
وبين الشفاه ... عربدت لهفةٌ مسكرة ...
وامتدت يده بسكون ، تشدّ يدي ، ونطق :
ـ سنرقص !
وتسللنا بين الراقصين ...
وفي انعكاس الأضواء الخافتة على الجدران ... كنا خيالاً
واحداً ... يتلوى ... يتوجّع ... ويذوب مع الأنغام ...

*

القِسمُ الثالِث

١

كان الطريق يركض ، ويطوي الأشجار وراءنا ، ويقصر ، ويقصر ، وكأنه حبل يشدنا الى دمشق ، الى بيتنا ، الى حياتنا ...

وددت لو تطول ، تطول المسافة ، وتلفظنا الدرب في عالم جديد ، في بيت صغير ، هناك بين احضان الأفق ، نعيش فيه بعيدين عن الدنيا وعن الواقع ؛ نعيش فيه وحيدين ... ناسيين ... ومنسيين ...

واحسست بقلبي ينكمش بين ضلوعي ، حين احتوانا مدخل دمشق الواسع الجميل . احب بلدي ، لكن مجرد وجودي فيه ، في ذاك الوقت ، قذفني من حلم جميل كنت احياه واسعد به ، الى الواقع الذي تناسيته لفترة .

شعرت فجأة ... بان زياد ابتعد عني قليلا ...

مع الأشجار الوارفة الحانية ، ومع الأنهار الغزيرة المتسامحة استقبلتنا طبعاً الأقاويل ... والأنتقادات ...

فقد وجدت في البيت ، مع رانية ، جدتي تنتظرني :

— اهلاً بك يا حبيبتي ... تأخرك شغل تفكيري

ثم حدقت إليَّ مشدوهة ، ومدت يدها تبحث من نظاراتها لتؤكد رؤيتها .

— الهي ! اين شَعرك ؟ ماذا فعلتِ ؟

— قصصته ! الا يعجبك ؟

— هذه التسريحة الصبيانية « تقرفني » ... اضعت رونق وجهك ! ما هذه الافعال الطائشة ! لعن الله من اوحى اليك بهذه الفكرة !

ضحكتُ ، وحملت حقائبي ، ودخلت غرفتي ، وانا اقول :

— ستتعودين رؤيته ... يا تيتا ... وسيعجبك ...

تبعتني ، واغلقت الباب وراءها . وبينما كنت افتح حقائبي ، واخرج منها الثياب ، جلستْ بوقار ، على حافة السرير ، وقالت ، وكأنها حاكم يستنطق ظنيناً :

— أصحيح ان زياد مصطفى كان في لبنان ؟

أجبتها بلهجة طبيعية :

— نعم كان في بيروت ...

— وطبعاً اجتمعتِ به ؟

اكّدت :

– طبعاً طبعاً !

– لماذا يا ريم ... لماذا ؟

– لانه صديق يا « تيتا » ... صديق يعجبني كثيراً

– اعرف ... اعرف انه يعجبك ! يا للمصيبة ! افلا تكفينا هذه المصيبة ؟ وهل يجب ان نزيد الطين بلة فنعرّف الناس اجمعين على بلوتنا ؟

قلت هازئة :

– انا احب الصراحة ...

– صراحة ... صراحة ... هذه ليست صراحة بل وقاحة ! على الاقل حاربي هذا الأعجاب المجرم الذي يملأك !

سألتها ببساطة :

– لماذا ؟

– يا ريم ... « اذا بليتم بالمعاصي ... فاستتروا ... » !

رميت الثوب من يدي ، وجابهتها بنظراتي الحازمة :

– انا لا اعتبر صداقتي لزياد معصية ... انا اعتبرها اوج الأخلاق ...

انهمرت دموعها ، وارتفع نحيبها :

– ليتني ... ليتني متّ قبل ان اسمع هذا التصريح منك ! ليتني رحلت قبل ان اسمع هذا الكلام الجنوني على شفتيّ من افنيت حياتي في تربيتها ، ووضعت فيها كل آمالي ...! ستقضين انتِ عليّ ...

لم اتأثر من بكائها . لماذا تبكي ؟ ألأنها فعلاً تخاف على اخلاقي ؟ ام لأنها تخاف ان يبتعد العريس الممتلئة جيوبه دراهم ، فلا يتقدم للزواج بحفيدتها ؟ ازعجتني هذه الفكرة . احب جدتي ، ولكن ، كيف أفهمها انني انا لا اريد الزواج ؟ كيف أقنعها بانني لا ارى الدنيا بعينيها ، ولا احكم على الحوادث بمفهومها !

ناديت دنا :

ــ كوب ماء يا دنا ، وفنجاني قهوة ...

واقتربتُ من جدتي امسح دموعها :

ــ ارجوك يا تيتا ... البكاء لا يجدي ... الأفضل الا نتحدث بهذا الموضوع اطلاقاً ...

•

في اليوم التالي جاءت ليلى وابتدرتني

ــ انا جدّ متأثرة يا ريم ... ان قصتك على كل لسان ... حديث الناس انت وزياد ...

ابتسمتُ ، فاهتاجتْ :

ــ انهم يقولون انك تركتِ ألفريد كي تتزوجي هذا الرجل..

هزئت :

ــ احقاً ؟

ــ ومنهم من اكّد لي انكما عقدتما قرانكما !

ــ ولماذا انت مهتمة بما يقولون ؟ دعيهم يتكلموا كما يشاؤون ...

– ابداً ... ابداً ... انا لا اتحمل الأقاويل ... ابداً ...

ثم تحولت لهجتها الى النصح :

– لماذا يا ريم ؟ لماذا تتركين لهم المجال في التحدث عنك لماذا ترافقين زياد الى كل مكان ... وامام الجميع ؟

– لانني اكره النفاق يا ليلى

– انت لا تقدّرين الأمور ! اذا اجتمعت به سرّاً فهذا لا يعني نفاقاً وخبثاً ... هذا يعني سياسة ودبلوماسية ...

عجبت لآرائها ، ولم يسعني الا ان اهزّ رأسي واقول متأسفة :

– حتّى انت يا ليلى ... حتّى انت الفتاة المثقفة ... المتحررة ... حتّى انت التي تنادين بحرية الفتاة ، وتنقمين على التقاليد ، حتّى انت تؤمنين كأهل بلدي بالخبث والنفاق !

– حاولي ان تفهميني يا ريم . لماذا تعرضين سمعتك لالسنة السوء ، وبامكانك ان تحتفظي بسمعتك وبزياد لو اردتِ ؟

فكرتُ :

لماذا ألومها ؟ قد يكون ما تقوله صحيحاً بالنسبة اليها ... فالخبث هو الحل الوحيد لعملية جمع الصراحة والسمعة ! والسمعة ضرورية في بلدي لان مستقبل الفتاة يتوقف عليها .

لا ... لا ...

انا لا اريد رجلاً غبيّاً يتقدم للزواج بي لمجرد علمه بان سمعتي ناصعة ... مثل سمعة الكثيرات من اللواتي اعرف ؛ سمعة ناصعة تأبىّ الخبث في نسجها ، وزادها التمثيل اشعاعاً

لا ... ابداً ...

انا اريد رجلاً يحبني لانه يفهمني ، لانه يقبل تاريخي ويقرأه ككتاب مفتوح دون صفحات مطوية وملتصقة ! اريد رجلاً يمتدحني او ينتقدني لأنني شخصياً اعجبته او لم اعجبه ، لا لأن الناس قالوا او لم يقولوا ...

ـ اسمعي يا ليلى انا اطلب منك الا تهتمي بما يقولون عني ...

ـ ان عدم مبالاتك يقتلني ...! انت لا تقدّرين ... انهم يؤكدون انك ستتزوجينه ...

اجبتها ممازحة :

ـ وبعد ؟ إذا الحوا فعلاً فسأتزوجه !

وضحكتُ ، وفجأة تنبهت على ما قلت : « سأتزوجه ... سأتزوجه ... ولماذا لا اتزوجه ؟ »

وصرخت ليلى كالملسوعة :

ـ ارجو ان تكوني مازحة ... هذه كارثة ... هل جننت ؟ هل تضحين بكل شيء عندك ؟ كل شيء من اجل هذا الرجل ؟ هل نسيت في الدرجة الاولى ان دينك يحرم ذلك ؟ ماذا دهاك ؟ لا ... انت طبعاً تمزحين

ابتسمت ولم اردّ ، واشعلت سيجارة ، وسحبت نفساً طويلاً . وصعدت نظراتي مع الدخان تبحث عن اللازمن واللامحدود ، وتلاشت في فضاء الغرفة . لتحيا في فضاء ارحب ... فضاء حبي ...

لماذا ... لماذا لا اتزوج زياد ؟

*

ذهبت ليلى ، وبقيت مع افكاري اعتصرها لأُغذّي شوقي الى زياد ...

هل تعتقد ليلى ان الأقاويل ستخيفني ؟ وان حبي سيتقهقر امامها ؟ على العكس ، اصبحتُ احب حتى هذه الأقاويل ، لانها تجمع بيني وبين زياد ...

ورنّ جرس الهاتف ، فطرت نحو الآلة ، واذا بصوت ناديا . انكمش قلبي ؛ كنت دائماً اشعر بخيبة عندما لا تحمل في الأسلاك صوتَ زياد .

ـ الحمد لله على سلامتك يا ريم ... هل انت باقية في البيت ؟

ـ نعم ...

ـ إذن سأكون عندك بعد قليل .

لم أرَ ناديا منذ زمن بعيد ، وكنت اعلم انها تتحاشى ملاقاة زياد هنا ، ومع انها الشخص الوحيد الذي احبه من كل قلبي ، وارتاح اليه ، لم ارحب قلبياً بمجيئها ...

ـ اهلاً ناديا .. انا لم ارك منذ زمن بعيد ... بعيد ... لماذا ؟

ارتسمت على شفتيها الجميلتين ابتسامة معاتبة :

ـ لانك في ظروفك الحالية لا تفكرين فيّ يا حبيبتي ...

حاولت ان احتجّ ، لكنها اوقفت كلماتي بحاجبها الذي ارتفع ، وقالت :

ــ انا اعرفك تماماً يا ريم ...

ضحكتُ معترفة ، واردفتْ :

ــ ثم ... انا لا اريد ان اتحدّث معك عن موضوع معيّن ، لاننا سنختلف ...

سألتها فوراً بتحد :

ــ اي موضوع ؟

ــ ارجوك ... لا تتجاهلي ... طبعاً عن الموضوع الذي اصبح على كل لسان !

اسمعي يا ناديا ... انا لا يهمني مطلقاً ما يقوله الناس...

ــ يا ريم ... افهم تماماً كيف تحكمين على الأمور ولكن ... هل أُذكّرك بانك لا تعيشين في عالم افكارك وآرائك الحر ؟ انت تعيشين في حياة اجتماعية ، طغت قوانينها على عادات الطبيعة ... ومحتها ...

ــ لكنني لست مؤمنة بهذه القوانين ... وبهذه التقاليد ...

ــ اوافقك ، ولكن من واجبنا ان نحسّن التقاليد لا ان نهرب منها لنقع في اسوأ منها ...

ــ مصيبتك يا ناديا انك فيلسوفة ، ولا تشعرين ! العاطفة معدومة لديك ...

ابتسمتْ ساخرة :

ــ انا لا اشعر ؟ انا امرأة يا ريم ... انسانة ... ولي عاطفة

متدفقة مثلك ، بل اكثر ... لكنني لن ارضى ، لن أقبل الرُخص في حياتي ...

صرختُ غاضبة :

– ما هذا الكلام الفارغ ! هل تعتقدين ان الحبّ رخص ؟

– لا ، انا افهم الحب ، واحترّم الحب ؛ لكن المرأة ، برأيي ، اذا احبت رجلاً يلهو ولا يقدّر قيمة حبها ، هي التي ترخص !

جننتُ :

– عمن تتكلمين ؟ هل ...

قاطعتني بهدوء :

– اتكلم عن الرجال اجمالاً في بلدنا ... انا لا اعني ، لا اقصد احداً ... مجرد رأي أبديته ! ولماذا تضايقت من كلماتي الى هذا الحد ؟ قلت لك ان آراءنا ستصطدم ... ما لنا ولهذا الحديث ... جئت الآن لانني مشتاقة اليك جداً ...

فهمتُ وغيرتُ الحديث :

– كيف ترين شعري ؟

– اعجبني ؛ الشعر القصير يضفي اناقة على جمال المرأة ... يا ريم ، خالك سيسافر الى اوروبا بعد فترة وجيزة ، وهو لم يرك منذ زمن بعيد ايضاً ...

– سأمر به غداً ...

– على كل حال سنقيم سهرة عندنا قبل سفره ومن الآن اخبرك بذلك ... وارجو ان تتفرغي لنا في تلك الليلة ...

سهرة ؟ اذن لن اسهر مع زياد في تلك الليلة ؟

ــ انت تعلمين يا ناديا انني لا احب الحفلات ...

ــ اعرف انك الآن في هذه الفترة تكرهين السهرات ... ولكن ... لا تنسي اننا ... نحبك ...

ابتسمتُ ...

ــ يا ريم ، يمرّ الانسان في حالات يعتقد فيها ان كل الذين يحيطون به لا يفهمونه ، ويريدون له شراً ، فيصبح يكره اقرب الناس اليه ... انت الآن تكرهين الاجتماع بكل الاصدقاء القدماء ، لان نفسيتك تغيرت ، اما هم ، فما زالوا كما كانوا ... انا لا اريد سوى ان الفت نظرك الى نقاط لا تنتبهين لها ... او تتجاهلينها ... كنت دائماً صديقتي ، وحبيبتي ، وابنتي ، هل تشكين لحظة في انني اريد صالحك ؟

ــ لا اشك في ذلك يا ناديا ... ولكنك لا تعرفين اين هو صالحي !

نظرت اليّ ، نظرة الأم الى طفلها المغرور ، وهزّت رأسها وقالت بهدوء :

ــ قد تكونين على حق ... سأنصرف الآن يا ريم ... الى الغد ...

وانصرفتْ ،

نظرتُ بلهفة الى الساعة ، لقد قاربت السابعة ، وقد يأتي زياد بعد لحظات ...

سيأتي زياد ! ما همني سفر خالي او بقاؤه ؟ ما همني

الأصدقاء ، واجتماعاتهم ؟ ما همتني آراء ناديا ؟ انا غريبة عن كل هؤلاء ، انا اعيش في عالم جميل ، فوق دنياهم ...

الست حرة في ان انتقي عالمي ؟

وحالاً ... علا في ذاكرتي صوتُ ناديا يجيبني :

« لا ... انت تعيشين في حياة اجتماعية ، طغت قوانينها على عادات الطبيعة ... ومحتْها ... »

*

ـ ما هذه البلدة ، وما هذا المجتمع ؟ سألني احدهم اليوم اذا كنت قد تزوجتكِ ...

ـ ان الناس سخفاء يا زياد ... وبماذا اجبته ؟

ـ اجبته ، ليت هذا صحيح ! ولكن هناك اسباباً كثيرة تمنعنا من الزواج ، او بالاحرى تمنعك انت من الزواج بي ، اولها انك ما زلت مخطوبة الى ألفريد ...

ـ نعم ... نسي الناس انني مخطوبة الى ألفريد ... ولكنني في الحقيقة لن اتزوجه ...

تأملني ملياً ... ثم سأل :

ـ هل انت فعلاً لا تريدين الزواج ؟

ـ كان هذا رأيي دائماً ... واذا كنت سأتزوج يوماً ما فلأنني أريد ان ابقى مع الرجل الذي احب ، لا حباً بالزواج ...

ـ وهل تحبين ألفريد ؟

نظرتُ اليه معاتبة :

ـ يا سيدي انا ليس بامكاني ان احبّ رجلين في آن واحد !

ابتسم :

ـ وهل تحبينني انا ؟

ـ اذا كنتَ حتى الآن لا تعلم انني احبك ، فانا ...

قاطعني :

ـ الى اي درجة تحبينني ؟

رفعت نحوه عينين أدمعهما الوجد ، وقلت بصوت ترقرقت فيه الأنوثة :

ـ أحبّكَ ... احبكَ الى درجة انني اضحي بأي شيءُ ... اي شيءُ عندي من اجلك ..

ثم تمتمت :

ـ وأريد ... أريد ان أعطيك ... طفلاً ...

فتح عينيه مذهولاً ... ثم توهّج النور في اساريره :

ـ صغيرتي ... يا حبيبتي ... طفلاً ... عيناه بلون عينيكِ . وسيكون طبعاً موسيقياً ...

أجبته بطفولة :

ـ لا ... لا أريد طفلاً ، بل طفلة ... لانني سأدعوها «لنا »

ـ «لنا » ... «لنا » ... ما ابدع هذا الاسم ... انت شاعرة فعلاً ...

سألت بخوف :

ـ انت لا تحبّ الأطفال ...

– احبّ « لنا » ... بل اعبد « لنا » ... ولكنكِ انتِ ايضاً لا تحبين الأطفال ؟ فما الذي ايقظ في نفسك هذا الشعور

– انا احبك انت يا زياد ، وأريد ان اشعر في ذراتي بمعنى وجودك ، وبمعنى وجودي ، ... وباننا واحد ...

وبعد لحظات سكوت ، تابعتُ :

– هذه امنية ، اعرف انها مستحيلة ، لاننا لا نملك ورقة ! بل لا نستطيع ان نحمل ورقة ! ورقة تافهة ، وقّع عليها بعض الاشخاص العاديين ... بعد ان سجلوا فيها زواجنا ...

وانفعلت كلماتي :

– لماذا ... لماذا لا يستطيع الانسان ان يتزوج بمن يشاء ؟ لماذا توجد الموانع دائماً ؟ لماذا لا يربط الحبّ ، لا الزواج ، بين الرجل والمرأة ؟

وقُرع الباب ، ودخلت رانية ضاحكة :

– ريم ، أريد ان اعزف على البيان ...

ضحكتُ ، وقدمت لها الكرسي الصغير قائلة :

– تفضلي ...

كان زياد يتفحصني ، يدرس حركاتي ، تمنيت لو اسمع منه « ريم ... لنحطّم الحواجز ... ولنتزوج ... »

لكنه قال :

– يا ريم ... انت لا شك فنانة ... فنانة في كل تصرفاتك ... لماذا لا تستغلّين فنك في الكتابة ؟ يجب ان تصبحي شاعرة كبيرة .

كنت سأبوح ...

كنت سأعترف له بأنني اخاف الوحدة ... كنت سأقول انني في حاجة الى شخص حبيب يبقى الى جانبي ، ويدلني على طريقي ... ويدفعني فيه ...؛ شخص يبدّد ضياعي وخوفي ، ويعطي معنى لوجودي ، فاجد في ظله الامان ، ثم ... اكتب ... واكتب ... واكتب ...

لكنني لم اقل شيئاً من ذلك ، وسألتُ :

– زياد ... الا تشعر بالوحدة ؟

– الوحدة ؟ الوحدة خصبة يا ريم ... خصبة جداً ... انا لا اعيش وحيداً ... انا اعيش مع فني والحاني ... ثم انا احب الحرية ، والحرية توجد في الوحدة ... انا لا استطيع ان ارتبط بقيود ... ان ذلك يحد آفاق فني ... لا ... انا احب الوحدة ...

فهمت ان زياد يستبعد فكرة الزواج ، وانه لم يشعر بعد بصقيع الوحدة . سألته بلهجة رقيقة :

– زياد ... منذ زمن بعيد لم استمع الى الحانك ... الا تعزف لي المقطوعة القديمة التي احب ؟

ابتسم راضياً :

– بأمر عيونك !

وامسك بالقيثارة ، فطلبت من رانية ان تتوقف عن عزف البيان . واقتربتُ ، اجلس كالعادة على كرسي صغير قبالته .

تسرّبت انامله تداعب حبيباتها الأوتار ، وجاءت الألحان تطوي حديثنا ، فطويت امنيتي في اعماق قلبي ، وانا متأكدة من انها ستصبح « واقعاً » في يوم من الأيام . إن زياد سوف يطلب مني الزواج . سأرتمي بين ذراعيه ، وستجيبه دموع فرحي ، وسيكون « لنا » طفلة ...

كنت واثقة في ذلك الوقت ، بان القدر سيغير مفاهيم زياد ، وبان الظروف ستبلور جوهره الحقيقيّ ...

نعم ... آمنت بقوة القدر ، وبتأثير الظروف ؛ لكنني نسيتُ ، انني انا ايضاً انسانة ، وان عاطفتي كانت هي ايضاً بين اكفّ القدر والظروف ...

٢

في الشهر التالي تراكمت اشغال زياد : فقد افتتح المعهد ابوابه من جديد ، وتكاثرت الأعمال في الشركة ، واخبرني زياد انهم ينتظرون قدوم مفتش جديد من تركيا ، وان الشركة تحاول تصفية كل الحسابات قبل وصوله .

اما انا ، فقد التحقت بالجامعة ، وتسجلت في فرع الحقوق ، وقررت الا اواظب على محاضرات الأساتذة ، بل ادرس وحدي في البيت .

وفي الحقيقة ، ما اردت الدراسة حباً بالعلم ، بل لألهيَ نفسي ، واقتل الوقت الذي اقضيه وحيدة ، بعيدة عن زياد . وكان هذا الوقت يتزايد ولا ينقص ، يطول ولا يقصر ، يحمل نفسي مع أوراق الأشجار ، نحو الشحوب والأصفرار ...

فاعمال زياد كانت ، يوماً بعد يوم ، تسرق مني اهتمامه ، وكان اهماله لفنه يزيد في شقائي .

ودون ان اشعر ، كانت جراثيم اليأس تتسرب بسكون الى اجوائي ...

وفي ظهيرة يوم ، خابرني زياد يسألني عن صحتي ، اذ انني كنت اشكو من اوجاع الجيوب القديمة التي نبهتها في جبهتي رياح الخريف ... المتقلبة ؛ وطلب مني الآ اخرج من البيت ، فاعرض نفسي للبرد . وقال انه سيأتي اليّ في الغد ، اذ انه مضطرّ الى سماع محاضرة في مساء ذلك اليوم .

وفي الغد ، شفيت طبعاً ! ففكرة وجود زياد الى جانبي كانت تسكب في نفسي قوّة تتقهقر امامها جميع الأمراض ...

اخذ يروح ويجيءُ في الغرفة ، ونظراته تتبخر في الفضاء ، وكأنه لا يعرف ماذا يشغله ، ولا ماذا يريد ...

– زياد ... انت تعمل كثيراً وترهق نفسك ... لماذا لا تترك المعهد ؟

– ان عقدي ينتهي بعد ثلاث سنوات ، وساترك بعدها ...

– لماذا لا تترك الآن ؟ انت فنان ، يجب ان تتفرغ لفنك ، يجب ان تؤلف ... وتؤلف طوال النهار ... لماذا تهمل موسيقاك؟ ان الحانك ملك للجميع ولا يحق لك ان تهملها ...

– يا ريم ... انا لا اودّ ان اترك المعهد ، فهذا الجو الدراسي يروقني كثيراً

– إذن اترك الشركة !

– كلها بضعة اشهر وستمضي . سأتفرغ للموسيقى في الصيف . يا ريم ... هل تقدّمين لي فنجاناً من الشاي ؟ اشعر باوجاع في رأسي ...

اجابته ابتسامتي ، وخرجتُ من الغرفة اتوجّه الى المطبخ . تبعني يقول :

– كان وصول المفتش البارحة الى الشركة مفاجأة ...

– لماذا ؟

– لأن المفتش امرأة !

هتفتُ حالاً :

– هذا عظيم !

تابع ضاحكاً :

– وامرأة شابة وحلوة

– فعلاً عظيم ... عظيم ...

واردفتُ مازحة :

– يا سيّدي ، سنبرهن لكم ، انتم الرجال ، اننا عظيمات . ويوماً ما سنحكم البلاد ...

قال ساخراً :

– انتظري ... لم نرَ شيئاً من اعمالها العظيمة بعد ! لقد رافقتني البارحة الى المحاضرة ، وسأمر بها غداً صباحاً . لأقلها

بسيارتي الى العمل ، لأنها غريبة ، لا تعرف البلد بعد .

وتابع :

– وذلك يزعجني ، لانني مجبر الآن على ان استيقظ باكراً..

ضحكت :

– يا الهي ... ما اكسلك ! آه نسيت ... لقد جاء اليّ اليوم شاب يدعى صباح على ما اعتقد ، وقال إنه يعرفك وانك طلبت منه ان يحمل اليّ بعض الكتب الحقوقية ... وهو طالب

– حقاً ؟ اذن لقد تذكّر ... انه شاب طيب ، يجب ان تقرئي هذه الكتب . يجب ان تدرسي وتحصلي على الليسانس ... ثم توسعين ثقافتك او بالاحرى ، تبدئينها !!! لانك لا تعرفين شيئاً ... وبعدها ... تتفرغين للشعر ...

ضحكتُ :

– فعلاً يجب ان ابدأ ثقافتي ، فانا لا اعرف شيئاً !

وحملنا فنجاني الشاي ، وعدنا الى القاعة .

جلس على مقعده ، وشردت نظراته في البعيد ... وساد السكوت ... راقبتُه ، وحاولت ان افهم سرّ ضياعه ، لكنني لم استطع ، وعللته بانه تعب ...

عصر الفنجان في يديه ، واغرق نظراته في السائل الدافئ ، وجمجم :

– اشعر بالملل ... ملل قاتل ... ان هذه البلدة مميتة ... انا مرتبط بها لأنها بلدتي ... لأنني سوري . لكنها مميتة ...

انا في حاجة الى بلاد جديدة ... الى سماوات جديدة الى وجوه جديدة ... املّ ... املّ ... يكاد الملل يقتلني ...

شعرت بالكلمات تمتدّ اصابعَ قاسية وتطبق على قلبي ؛ كيف يملّ البلدة التي انا تحت سمائها ؟ كيف يملّ الحياة التي اشاركه اياها ؟ لكنه استدرك :

– وانتِ ؟ كيف لا تملّين هنا ؟ لو كنتُ مكانك لتركت هذه البلدة منذ زمن بعيد ...

قلت برقة :

– زياد ... انا احبّ هذه البلدة ... احبها حبّين : حبي لها ... ولأنك فيها ...

نهض ، واقترب مني ، ووقف قبالتي ، وتأمّلني ، وافكاره تقطّب جبينه ، ولم يتكلم ؛ ثم ابتعد ، ليستلقي على الديوان ، وتمتم :

– انتِ الشخص الوحيد الذي يحبّبني بهذه البلدة ولست ادري ما كنت فعلت بدونك ... نعم ... لولاك ...

وهزّ رأسه ، واغمض عينيه ، ولم يتابع .

جلستُ الى جانبه ، على حافة الديوان ، وراحت يدي تزحف برفق على جبهته ، تحاول ان تجرف عنها الهموم والمشاغل والأوجاع ...

وارتفعت يد زياد تبحث عن يدي ، تشكرها في ضمة على اهتمامها . وخيّم السكون علينا ... سكون ناطق باسمى العواطف ...

وددت لو يبقى عندي الليل كله ، لأُنيمه على زندي ، وأهدهده ، وأقص عليه حكايات كطفل صغير ...

وددت لو يبقى ، لاعتني به ، كما يعتني الأنسان بأغلى واحلى امانيه ...

تمنيت لو اغطيه بانفاسي الدافئة ، فاحجب عنه البرد والملل ولو استطيع ان ابعثر ذرّات قلبي في الفضاء ، فيغمره الفضاء ... بالحنان ...

واقتربت شفتاي بوجل ، تهديان الراحة التي صاغها قلبي في قلبه ، الى الجبين المتعب الحبيب ... وأغمضت عيوني ، فقد كان عطفي اقوى من ان تربطني نظراتي بالواقع ...

*

توالت الأيام ...

كنت اجتمع بزياد كل يوم ، لكن لقاءاتنا اصبحت خاطفة وصرت اشعر في الأيام الاخيرة بقليل ... قليل من البرود في تصرفاته ، في احاديثه ، في نظراته ...

لم تعد هذه اللهفة الملحّة تدفعه اليّ ... لم يعد هذا العطف يلوّن احاديثه ... لم يعد الامان الذي انشده ينساب مع نظراته ؛ بل حجبت اشعّةَ عينيه سحائبُ مبهمة ، عواطفُ تتصارع ، لم يعرف هو كنهها ، لم يعرف مبعثها ، لذلك لم يستطع ان يجابه واقعَه الذي لا يفهم ، فحاول ان يهرب منه ، فانزلق في الضياع

ضياع تـام استولى عليه ... ضياع ضيّعني ... وذكّر

الاعماق بجروحي ...

لكنني حاولت بجميع الطرق ان اجد الاعذار لبروده ، وان اقنع نفسي بان ضياعه ليس سوى تعب وملل من الاعمال المتكاثرة .

وصرت اعمل جهدي ، كي اهيئ له الجو الذي ينسيه متاعبه ...

٣

واهلّ شهر كانون ينذر بزحف الشتاء الى سمائنا ... والى قلبي ...

في عصر ذلك اليوم جاءت ليلى تزورني ، وكانت ، كعادتها ، متهيّجة ساخطة :

– يا ريم ... سمعتُ قصصاً ... قصصاً ... هذا الصباح

ضحكتُ :

– ما اخبار اليوم ؟ من تزوّج ... من طلّق ؟ من سيقتله الناس باقاويلهم ؟

– لا ... لا ... قصصاً تهمك ، تتعلق بك . كنت البارحة في زيارة بعض المعارف ، وكان بيتهم يعجّ بالناس ... وقد تحدّثوا عن زياد

– زياد ؟

– نعم ... وعنكِ طبعاً ... وقالوا انكما افترقتما !

ومع انني ضحكت ، الا ان حدسي تنسّم نذير سوء :

– آه ؟ ولماذا افترقنا ؟

– قالوا إن زياد يصادق الآن فتاة اخرى ، وهم يتساءلون اذا كان سيتزوجها ...

نغل الفضول قلبي :

– ومن هي هذه الفتاة ؟

– لا اعرفها ! لقد ذكروا اسمها ... لكنني نسيته ... انها غريبة ... تركية على ما اعتقد ... وتعمل معه في الشركة ...

شهقتُ :

– انها المفتشة الجديدة ... سوزان ...

– سوزان ... نعم سوزان ... يظهر انها جميلة يا ريم ، ومثقفة ، وترغب في الزواج ...

قلت بتحدٍ :

– وهل يتزوجها زياد لانها هي ترغب في الزواج ؟

– يظهر انه معجب بها ؛ فهما دائماً معاً في الشركة ... ويغادران الشركة معاً ... ويمرّ بها كل صباح ...

ارتجفت منزعجة ؛

أنا اعلم ان زياد يمرّ بها كل صباح ، ويوصلها ، اكثر الاحيان ، الى حيث تقطن . انا اعلم انه يشرب القهوة معها في الشركة ، وأنها رافقته الى المحاضرة في اليوم الاول من

وصولها ... هو اخبرني كل ذلك ، واعتبرت كل شيء عادياً وطبيعياً ، فلماذا الآن أشعر بقلبي يتمزّق وانا اسمع اخباراً عرفها ، لكن يتفوّه بها شخص غير زياد ؟ اخباراً من ليلى ، نقلاً عن إلسنة الناس ؟

قلتُ بهدوء مصطنع :

– اعرف كل هذه الاخبار ... انها تعمل معه ، وبطبيعة الحال يجتمعان كل يوم ؛ لكنني لا افهم لماذا يريد الناس ان يزوجوها زياد ؟

قالت فوراً :

– لانهما اذا تبادلا الاعجاب ، فلا عائق يقف في طريق زواجهما ... انسيتِ ان الدين يقرب بينهما ؟

ثارت ثورتي !

هل يعتقد الناس ان هذه الفتاة التركية اقرب الى زياد مني ؟؟؟

انا التي رضعت معه ينابيع بلدة واحدة ...

انا التي تحرقتُ معه بشمس سماء واحدة ...

انا التي شاركت معه أرضَنا الشوقَ الى امطار سماء واحدة ..

انا التي احنو معه على احجار بلدة واحدة ...

انا التي اتغنى معه بتاريخ بلدة واحدة ...

وانا ...

انا التي أُفني حياتي ، معه ، لازدهار مستقبل بلدة واحدة.

هل هي اقرب اليه مني ، وهي التركية التي يزور ، لاول مرة ، بلادي ؟

– اهلاً ريم ... اما زلت في البيت ؟

– واين يجب ان اكون ؟

– في بيت خالك ... اليست السهرة اليوم ؟

– بلى ... ولكن ، قد لا اذهب

– لا يا ريم ... خالك سيسافر غداً ، ومن واجبك ان تسهري معهم الليلة ، انا مريض ؛ قضيت كل يومي نائماً ، واشعر بتوعك في كل جسدي ... ساعود الى السرير حالاً ... نهضت فقط كي اخابرك ، واسأل عنك ، واقول لك انني معك ؛ انا افكر فيك كل الوقت ...

سكتّ :

ماذا ... ماذا تغيّر في زياد بين البارحة واليوم ؟ لا شي لا شيء مطلقاً ... نطقت :

– ساخابرك غداً في الظهيرة ، كي أطمئن على صحتك ...

– سانتظر مخابرتك ... ارجو ان تتسلي في سهرتك ... وتذكريني ...

*

تجمعّ الضيوف حلقات ... حلقات ... في ردهات بيت خالي الواسعة ... واقترب مني صديقٌ قديم :

– آنسة ريم ... مساء الخير ... منذ زمن بعيد لم أرك ...

– اهلاً ... ما اخبارك ؟

اخذ يتحدث ، واذا بي لا افهم ما يقول ، بل استرق

السمع الى حديث يدور بين آخرين على مقربة منا :

« نعم ... هذا الموسيقي يلهو دائماً ... لكنه هذه المرة ، سيقع في الفخ ... هذه التركية لا بأس بها ... »

اجاب صوت آخر :

« انها جميلة وطبعاً هي مثقفة ولولا ذلك لما حصلت على هذه الوظيفة ... لكنني لا اعتقد انه يحبها ... »

وارتفع الصوت الاول :

« انا اعرفه ، فانا اعمل في الشركة ذاتها ، وسوزان رئيسة دائرتنا الآن ... انه يلاحقها دائماً ! كان يجب ان تراه منذ يومين ، كيف قفز من خلف مكتبه ، ليلمّ شالها الذي سقط على الارض، ويلفّ به كتفيْها ، كان منظراً رائعاً ، اضحك جميع الموظفين ... »

امتقع وجهي ، وعادت الافكار تعصف بهدوئي ، وتمثّل انفعالي بنظرة شزر ، ألقيتها الى المتحدث السخيف ، وماذا بها لو لمّ رجلٌ شالَ فتاة سقط على الارض ؟

وتتبع الصديق نظرتي ، وكان مثلي قد سمع الحديث ، فسألني

– انهم يتحدثون عن زياد مصطفى ، اليس كذلك ؟

– اعتقد ...

– انت تعرفينه ؟

– اعرفه جيداً ... انه صديق ...

– انا لا اعتقد انه من الممكن ان يتزوج هذه الفتاة ...

تسرّبت هذه الجملة الى نفسي ، نسيماً دافئاً ، فسألت ،

احاول ان اسحب من فمه الكلمات :

ـ لماذا ؟

ـ لأني لا اعتقده غبياً الى هذا الحد ... انا اعرف هذه الفتاة ... فقد قابلتها منذ سنين في اوروبا ، وكانت تدرس هناك ؛ انها حلوة لا شك ، وشابة ، فهي في الثامنة والعشرين ، لكنها ليست ذكية ، وهي متصنعة ، ممثلة ... كل همها ان تتصيّد رجلاً يتزوجها ... وقد طلبتْ من الشركة ان تنقلها الى دمشق خصيصاً لتجد هذا الشخص ... انا لا اعتقد زياد ساذجاً حتى لا يكتشفها ويفهم مآربها ...

واقترب منا في هذه اللحظة شخصان لا اعرفهما ، فقدمهما اليّ ، وفهمت انهما لبنانيان ، من اصدقاء خالي سمير ، ثم قال

ـ كنا نتحدّث عن زياد مصطفى ... هل تعرفانه ؟

ـ هذا الموسيقي ؟ اعرفه جيداً صديقةٌ له لبنانية ، حدثتني عنه مراراً ...

ازداد امتقاعي ... وتابع الصديق :

ـ يظهر انه سيتزوج ...

اغرق هذا الخبرُ « الثاني » في الضحك ، وسأل :

ـ هذا « الدون جوان » ؟ وعلى اية واحدة من صديقاته الكثيرات وقع اختياره ؟

سحقتني هذه الجملة ؛

احسست بكل جسدي يُطوى بعضه على بعضه الآخر ، احسست بشخصيتي تصغر ... وتصغر ... وتصغر ... لم اعد

فهم شيئاً من حديثهم ... وراحت افكاري فجأة تجترّ جملة قالتها ناديا : « المرأة اذا احبت رجلاً يلهو ... هي التي ترخص ... ترخص ... ترخص ... »

لست ادري كيف انسحبتُ من حلقتهم ، وودعت خالي وناديا التي كانت سترافقه حتى بيروت ...

وانصرفت ، مشحوبة الوجه ، اهرب من الضوضاء ...

ومرت لحظات وانا اروح واجيء في بيتي الهادئ ، وتفكيري ينوء بمئات الاسئلة ، وأصوات اشخاص لا اعرفهم تمزق نفسي ، وقهقهات شيطانية تخيفني ...

« انه يلهو ... سيتزوجها ... انها متصنعة ... انها جميلة ... لفّ كتفيها بالشال ... صديقة اخرى لبنانية ... صديقاته الكثيرات ... انه يلهو ... دائماً يلهو ... »

وعلت حولي الأصوات ... واستفزّت عنفواني : لا ... سأتركه ! لن أراه ! انا لست العوبة ! لا ... لا ... لن احزن ... لن ابكي ...

وبتحد ، رحت ابحث عن علبة السجائر ...

هذه السجائر التي كانت تحدثني عن زياد وترسم طيفه في فضاء بيتي ، ستساعدني الليلة على نسيانه ...

ساحرق معها مرارتي ...

وساخلط حبي برمادها ...

وبعد ساعات احرقتُ ثوانيها بسجائري ، غرقت في سبات عميق . وفي الصباح نبهني من نومي رنين الهاتف . رفعت السماعة بكسل ، وهرب نعاسي حين وصلت الى اسماعي نبرات صوت لا يشبهه صوت :

– ريم ... هل كنت نائمة ؟ آسف ، لكنها الساعة العاشرة الآن ...

قلت ببرود :

– كيف حالك اليوم ؟

– لقد شفيت ... شفيت تماماً لكنني لم اذهب الى الشركة ، ولم استطع ان انتظر حتى الظهر كي اسمع صوتك ... انا بحاجة الى ان اسمع صوتك ...

حيرتني كلماته ، وضعتُ بين رأيين تضاربا في نفسي :
« يجب ان تبتعدي عن زياد .. » « لا .. انت تظلمين زياد .. »

واردف :

– كنت سآتي اليك يا ريم لكن حين اخبرتني الخادمة ان غداءنا اليوم سيكون « الكبة » قررت انك ستتغدين هنا معي ، فهذا طبقك المفضل

وضحك قائلاً :

– ولا تخافي ... لم انس ... لقد طلبت من الخادمة ان تهيّ لك صحن « المتبل » ايضاً ... هيا انهضي وتعالي ... انا منذ الآن جائع ...

نعم ،

انا ظلمت زياد البارحة ، ظلمته ، وظلمت نفسي ... لماذا ؟

وتابع :

ــ ثم لقد الّفت مقطوعة جديدة صغيرة ، انهيتها هذا الصباح ، وان ارتاح حتّى تسمعيها ...

ابتسمت ...

حتماً ساسمعها ... كيف اعتقد ان زياد يلهو ؟ وعلاقتنا اسمى من الحب ، علاقتنا مبنية على التفاهم ، والمودة ، والصدق ...

ــ لا تتأخري يا ريم ...

هتفت :

ــ سأكون عندك بعد ساعة ...

ــ كيف كانت سهرتك البارحة ؟

قلت ، فوراً ، حاقدة :

ــ انا اكره المجتمع !

ضحك :

ــ تعالي ... وستحدثينني عن ذلك ...

واقفل الخط .

جلست في فراشي احاكي نفسي !

لقد كرهت زياد ليلة البارحة وحكمت عليه وقررت ان اهجره ... لماذا ؟

هل صدر عنه شيء يؤلمني ؟ هل كذب عليّ ؟ لا ... زياد كان دائماً صادقاً ... وصلتي به لم تتغير ... نحن الآن كما

كنا منذ شهر او شهرين ... لكنني البارحة سمعت اقاويل بنيت عليها احكامي !!!

نعم ... كانت الأقاويل سبب انزعاجي ! وفهمت ذلك اليوم ، فهتفت لزياد : « انا اكره المجتمع ! »

لماذا احمّل المجتمع لومي ؟

انا دائماً انتقد المجتمع ! ولكن هل فكرت مرة ما هو المجتمع ؟ هل حاولت مرة ان افهم اعماق هذه الحروف الخمسة التي تكوّن كلمة « مجتمع » ؟

من السهل جداً ... بل من الضعف ان اصب نقمتي وكرهي على « كلمة » ! الجرأة هي ان اجابه معنى هذه الكلمة ، وعندها اصدر احكامي ...

ما هو المجتمع ؟ من هو المجتمع ؟

المجتمع هو اهلي ، هو اصدقائي ، هو معارفي ...

هو آراء ناديا التي اعتنقها ، واحاديث ليلى التي اصدقها ، واقاويل المعارف التي تبني احكامي ...

المجتمع ... المجتمع ... هو انا !

وانا ضعيفة ... انا تافهة ... انا ككل الناس ، دمية تتقاذفها سائر الدمى ...

ونهضت ناقمة ؛ كيف لا انتقد نفسي ، واحسّن نفسي ، قبل ان ألوم المجتمع ؟

*

كان زياد يعزف حين وصلت اليه . وجلسنا نتجادل في اللحن ، ثم قرأنا معاً مقالة في احدى المجلات كان زياد قد قرأها واعجبته ، وأرادني ان اشاركه اعجابه .

وبينما نحن على الغداء ، نادانا رنين الهاتف .

قال مستاء :

– ما ازعج الهواتف ... لماذا لا يتوقف هذا الرنين ؟

سألته :

– هل تريدني ان اجيب ؟

هزّ رأسه موافقاً . خرجت من غرفة الطعام ، ورفعت السماعة ، واذا بصوت رفيع حاد يسأل بتحد :

– اين زياد ؟

عجبت من لهجتها القليلة الذوق ، واجبت :

– هنا ...

– اريد ان احدثه ...

– دقيقة واحدة ... ارجوكِ ...

وناديت زياد ، وعدت الى غرفة الطعام . كنت دائماً اشعر بانني اهين كبريائي اذا استمعت الى زياد يتحدث على الهاتف مع احداهن .

وبعد لحظات عاد الى غرفة الطعام ، ضاحكاً ؛ وقال :

– انها سوزان ...

وسكتَ . انزعجتُ : « اين زياد ... انها سوزان ... هذه اللهجة تضايقني . رُفعتِ الكلفة تماماً بينهما .

وقال بدون اكتراث :

– انها تسأل لماذا تغيبتُ عن العمل ؟

عجبتُ وسألته :

– وهل هي تخابر جميع الموظفين المتغيبين ؟

ضحك :

– طبعاً لا ... ولكنني الشخص الذي تعرفه اكثر من غيره .

علّقتُ حاجبيّ ، مستوضحة ، فقال بشيء من الغرور :

– اعني انها قرأت عني كثيراً في المجلات ، وسمعت موسيقاي ، وذلك يجعلها تتخيل انها تعرفني منذ زمن بعيد ... انت تفهمين ... انها غريبة في هذا البلد ، وخجولة ، وخائفة قليلاً ... لذلك تريدني ان اكون في العمل ، لانها تقول ان وجودي يُشعرها بامان !

ازداد عجبي . ولم اقل شيئاً . وتابع ، ولمست قليلاً من الحنان في نبراته :

– انها فتاة طيبة ... ومسكينة ... انها حساسة جداً ...

احتارت اللقمة في حلقي ! هذا الطرق الانثوية الماكرة لاستجلاب رجل ، وربح عطفه ، انا افهمها تماماً ... ولكن ... كيف افهمها لزياد ؟ وهو ككل الرجال طفل كبير ، تؤثّر في قلبه العيون الدامعة ... ويدغدغ غرورَه التجاءُ فتاة ضائعة ، وحيدة ، اليه ... ولا يقدر زيف الابتسامات ... انه ككل الرجال « يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ... »

ولكن ...

وهل تسمح لي كبريائي بان اتدنى واتدخل في هذه الشؤون ؟
وهو لن يصدقني ، وسيعتبر تدخلي بدافع الغيرة ! ثم ان رأيي قد يسيء الى صداقتنا المتينة ... لا ...

سيكتشف بنفسه كل شيء دون ان يقوم بأي عمل يجرح شعوري . انا اثق به ، برغم كلام الناس ، برغم اعتقاد الناس ، برغم الأقاويل ... وبرغم محاولات سوزان لربح عطفه ...

٤

في الأسبوع التالي جرت بضعة حوادث ، كلها تافهة بحد ذاتها ، لكنها آلمتني كثيراً .

كان يؤكد لي انه سيسهر عندي ، فاقضي يومي ، اهيئ بيتي ، واحضر طعامه المفضل واعتني بشكلي ، وأطرّز احلامي . وفي المساء يخابرني ليقول انه تعب او انه يودّ القراءة ؛

نعم ، حوادث تافهة لكنني كنت اعمّر منها ايامي . كان مثلاً يعدني بانه سيخابرني ظهراً ؛ فانتظر مخابرته كل الصباح ، ويأتي المساء ، ويخيّم الليل على دمشق ... وعلى قلبي ... فادير رقمه ليجيبني بلهجته الفاترة ، انه لا يذكر انه قد وعدني !

ولكنني ظللت اجد له الاعذار ، وصار منطقي يحاول ان يقنعني بان المرأة العاقلة هي التي تتفهم اعمال الرجل

وظروفه ، وهي التي تتقبل بروده وتُبرّرُه .

ولكن حدسي كان يُسرّ لِي بانه تغير ... بان شيئاً أصبح يبعده عني .

وجاء ، في نهاية الأسبوع ، وجلس يقرأ احدى المجلات . بقيت اتأمله ، ثم بادرته :

– ماذا بك يا زياد ؟

التفت متعجباً :

– لماذا ؟ لا شيْ ... لا شيْ مطلقاً ... لمَ هذا السؤال ؟

الححتُ :

– زياد ، اخبرني ماذا بك ، لماذا لا تصارحني كعادتك ؟ الا تعتقد انني سأفهمك ؟

– انك الوحيدة التي تفهمني فعلاً يا ريم

– اذن ... ارجوك قل لي ما بك ... انت تغيرت ... تغيرتَ كثيراً ...

– انا لم اتغير يا ريم ... ان الظروف التي تحيط بحبنا تغيرت ... الأعمال ... الأشغال ... الحياة اليومية ...

– لا ... انت لم تعد تحبني مثل قبل ...

صرخ في وجهي :

– كم انت مخطئة ! انك الفتاة الوحيدة في حياتي التي احببتها حباً صادقاً ... ولكنك تريدين حباً جنونياً ، وانا عاجز عن اعطاء مثل هذا الحب ...

ـ لا ... لا يا زياد ... انت تغيرت ، انا اعرف ذلك ... ماذا بك ؟ كل ما اريده هو فهمك ومساعدتك بقدر امكاني ... اذا كانت هناك فتاة اخرى تستهويك فسأجد لك عذراً ... وسأفهمك ... انا دائماً صديقة ... صديقة مخلصة يا زياد ...

قال بلهجة جدية جداً :

ـ ريم ... انا مسرور لانك طرحت عليّ مثل هذا السؤال ... ثقي انك الفتاة الوحيدة في حياتي ... ان مكانتك في قلبي لن تملأها انسانة غيرك ، انا احبك كثيراً ... انت قطعة مني يا ريم ، صدقيني ... حين سأعجب بفتاة فسأخبرك حالاً ... تأكدي انني اذا كنت سادعو فتاة الى اخذ فنجان من القهوة فسأخبرك ... انا لن اكذب عليك ...

ـ اذن ارجوك قل لي الآن ما بك ؟

مدّ يديه ، وانفرجت اصابعه تحاول ان تشرح كلماته :

ـ انا رجل فنان ... احب واعبد فني ... كما تعلمين . لكنني الآن اشعر بالجفاف يملأ نفسي ... اشعر بيبوسة في أناملي ...

ـ ولكن هذا ناتج عن عملك المرهق يا زياد ، انت تعمل دائماً وكثيراً ، ولا تترك مجالاً لفنك ...

اعترض :

ـ لا ... لا ... انت لا تتركين لي مجالاً ...

اتسعت عيناي دهشة ، لكنه اردف :

– ارجوك ريم ... لا تفهمي خطأ ما اقول : لقد ملكت جميع وقتي ... ان اجتماعاتنا المتواصلة تأكل من وقتي ... او بالأحرى من وقتنا ... فانت ايضاً لا تكتبين الشعر ابداً ... لماذا ؟ يجب الاّ نجتمع كل يوم ... مع ان ذلك يؤلمني ... ولكن لنعمل معاً ... لتكن محاولة ... في سبيل الفن ...

فهمت تماماً حيرته وارتباكه ؛ ان الطائر الحبيب اصبح يملّ وردته ويشعر بالحنين الى سنينه الماضية ؛ انـه يريد الانطلاق ، يريد ان يسكر بعبير بقية الورود ؛ لم يألف هذه الحياة الهادئة من قبل ؛ لماذا يرهن ايامه الى وردة واحدة ... والورود تملأ الحدائق ؟

انه لا يريد ان يحبها لأنه يخاف ان يزجّه حبه لها في قفص مذهب . انه طائر يحب التحليق ... انه طائر يبحث عن عبير جديد ... ليخلق منه لحناً ...

تابع يقول :

– انت يا ريم لا تكتبين الشعر هذه الأيام ... لم تكتبي شيئاً مذ عرفتك ... هذا مؤسف ...

فعلاّ كنت لا اكتب ... ولكن ...

هل اخبره انني ارمي الشعر والفن والدنيا الى الجحيم من اجله ؟ هل اخبره انني اكره الفن اذا كان سيبعدني عنه ؟ ما الفائدة ؟

اقتربت منه ، واليأس يملأ عينيّ ، واشعلت له لفافة ، وسألته بهدوء ، وانا احاول بجهد جبار ان اتمسك بابتسامتي الباهتة :

– زياد ، هل تريد ان نقطع علاقتنا ؟

– ابداً يا ريم ... الا تفهمين انني احبك ؟ ولكن ... لنقلّل من اجتماعاتنا ... لنتقابل مرة او مرتين في الأسبوع ...

احسست دمي يتجمد في عروقي ؛ انه لا يفهم ان اقتراحه يدميني ، وانني أوثر الف مرة الانفصال النهائي على هذا الموت البطيء .

نظرتَ اليه ، كان ينظر الى يديه ... تأملت في انامله ... لا ... لن ألعن فنه ؛ احب هذه الانغام التي تنساب من اصابعه ؛ ولن اكون انانية : سأضحي ، وبقدر الامكان سابتعد عنه ... :

– زياد ... سأذهب غداً مع رانية الى بيت خالي نقضي عندهم بضعة أيام

– لا بأس ... ريم ارجو ان تكوني فهمت ان هذه ليست سوى تجربة ... محاولة ... في سبيل الفن ... كي ننتج نحن الاثنان ...

واقترب مني ، واحتواني بين ذراعيه ، وقال برقة وطفولة :

– ثم تتركيني طويلاً ... انت تعلمين أنني احبك اليس كذلك ؟

تمتمت ، وقد اغرورقت عيناي بالدموع :

ـ زياد ... انا احب فنك ... احب الحانك ...

ـ انت عظيمة يا ريم ... ولكن ... هل تبكين ؟ هل تبكين يا ريم ؟ ريم ... ريم ... اعود عن كل ما قلت ... ساراك غداً ... وبعد غد ... وكل يوم ... لا اريدك ان تبكي ...

حاولت بجهد ان ابتسم :

ـ لا ... زياد ... لا ... انـا لا ابكي ... انه دخان سيجارتك في عيوني ...

٥

خائفة ...
خائفة ... من رجوع الشتاء ...
خائفة ... في الليالي الطوال ... الطوال ... في ليالي الصقيع ... من عويل السماء ...

ثلاثة ايام وانا الوب في هذا البيت ؛ ثلاثة ايام وانا اتخبط في الفراغ ، في الفراغ المليء بطيف زياد ... انه يعتقد انني في بيت خالي ، وانا هنا وحيدة ... حاولت ان ادرس واقرأ فرأيته بين السطور ؛

حاولت ان اكتب فرأيته في الحرف ، وابى الحرف الا ان ينوح في اشعاري ...

وحاولت ان اشرد في عالم الموسيقى ، فترنحت الدمعة في عيني ، وصارت تنتظر وقف الايقاع ، لتتهالك صرعى على اصفرار الخدود ...

انا خائفة ...

لقد عاد الشتاء ، وانهمرت الأمطار هذين اليومين مع دموعي ؛ وكأن الطبيعة أرادت ان تشاركني ألمي ، فزادت في اضطرابي ويأسي ؛

ان الأمطار ترسم ... وتضيّق حدود وحدتي ، والعاصفة تخيفني ، والرعود توقظ في نفسي شعوراً حزيناً ، حاجة ملحة ويائسة الى الهرب ، الى الاختباء بين ذراعين قويتين ...

انا في حاجة الى زياد . انا في حاجة الى رجل يقيني العاصفة ، والرعود ، والدنيا ... انا خائفة ... ووحيدة .

حاولت عبثاً ان اخمد الصوت الذي كان ينخر اعماقي :

« يجب ان تبتعدي عنه ... انه لا يحبك ... »

ولكن ،

الم تكن هذه الفترات الجميلة التي قضيناها معاً سوى لهو بالنسبة اليه ؟ والوعود التي اضاءت ، واشعلت قلبي ، اكانت وعوداً ككل الوعود ؟

نعم ... كل ما قاله لي وكل ما وشوشه في اذني ... كل شيء لم يكن الا ... كلمات ... كلمات ... كلمات ...

كلمات عطرت وحدتي ... كلمات زينت فراغي ...

كلمات بنيت منها وجوداً ... كلمات لم يفهمها هو ...

كيف لم يشعر بأنني احيا الوعود ... واهوى الكلمات ؟

مرت ثلاثة ايام ... مرت ثلاثة دهور ...

وارتميت على الديوان الأخضر يائسة ؛ يجب ان اخابره ، لم اعد استطيع الانتظار ... يجب ...

وفجأة اخترق صوتَ الرعود زعيقُ الهاتف . ارتجفت . لا ... لا اريد ان احدّث احداً ؛ ولكن هذا الرنين مخيف ... ركضت نحو الآلة ورفعت السماعة منزعجة ، واغرورقت عيوني « بالفرح » وانا اسمع صوته :

– ريم ... يا اهلاً ... متى عدت من بيت خالك ؟ هل انت مشتاقة الي بقدر استياقي اليك ؟

لم اردّ ، فقد لجم الفرح لساني .

– ماذا بك ؟ الست مشتاقة اليّ ؟

ضحكتُ ، وانطلقت الكلمات من فمي ، مسرعة ، ناعمة :

– اذا كان الشوق مرضاً ... فانا في حالة خطرة ... واذا اعتبرناه عذاباً ، فانا في اعماق جهنم ... واما اذا كان أملاً ، فقد عشت لهذا الامل ... اين انت ؟

ضحك بدوره :

باقية في البيت ؟ سامرّ بك حالاً ...

*

– هيا اخبريني ، ماذا فعلت في هذه الأيام الثلاثة ؟

اقتربت منه بطفولة :

– زياد ... انا لا استطيع ان افعل شيئاً وانت بعيد عني .

شعرت بانه تضايق من كلماتي :

– ما هذا الضعف ؟ انا لا احبك تائهة ... ضائعة ... لا تربطي حياتك وشخصيتك برجل ... لا تكوني ضعيفة ...

– انا لست ضعيفة ... ولكنني احبّك ... احبك يا زياد

– وانا احبك يا ريم ، ولكنني احبك بعمق ، وحبك انت جنونيّ لا يقدر شيئاً ... ويمنعك عن تذوق الحياة ... انتِ لا تحبّين بفن !

– ولكن يا زياد ، لا معنى لوجودي دونك ... وجودي تافه !

تأجج غضبه :

– لماذا ... لماذا ...؟ ومن اكون انا ؟ انا رجل ككل الرجال ... انا رجل عابر في حياتك ...

احسست بطعنة خنجر في صميمي ؛ « رجل عابر » هذا الرجل العابر ... ليته يدري انني افديه بعيوني !

تابع :

– ضعي هدفاً لحياتك يا ريم ... أدرسي ، اكتبي ... اكتبي ... هل تريدين ان تكوني امرأة عادية تتزوج وتنجب كل سنة طفلاً ؟

– ولكنني امرأة عادية يا زياد ...

قال محتدماً :

– اذن تزوجي ! لماذا ترفضين ألفريد ؟ لماذا ترفضين هذا الثري اللبناني الذي يطلب يدك ؟

كيف لا يفهم انه محور حياتي ، وانني لا استطيع ان اثبت وجودي الا بين ذراعيه ؟

وهذه الجملة : « رجل عابر » !

يا لها من طريقة مهذبة يشرح لي بها انني انا العابرة في سجل مغامراته :

– اريد صالحك يا ريم ... اريدك قوية ... انت خلقت كيما تكونين فنانة ؛ لماذا لا تكتبين ؟ هل نضب نبع الهامك ؟ استفيدي من مواهبك ، اكتبي ... استثمري حروفك ... ضحي من اجل فنك ، واجعلي من الفن حياتك لا من الحب ! الحب ! الحب عاطفة سخيفة ، وزائلة ...

– انت لا تحبني !

– لا تفهمي كلامي خطأً ، ارجوك ! انا احبك حباً عميقاً ، عميقاً جداً ؛ ولكن هذا الحب الذي تتحدثين عنه ، انا لا اؤمن به اصلاً ...! يا ريم ، الفن وحده يخلد وكلّنا الى زوال ، الفن يبقى بعدنا ؛ لكن الفن يحتاج الى تضحية ؛ انا احب فني ... حاولي ان تفهميني ؛ انا مطارد صور وصياد انغام ... الفن بحاجة الى مواد اولية ، وانت لا تقدرين ذلك ؛ ان حبك الجنوني يحد من حريتي كفنان ... انا احبك ، ولا اريد فتاة غيرك ... مطلقاً ... انا معك

دائماً ... ولكن ... ارجوكِ ... افهمي فيَّ ...

قضيتُ ليلي مسهدة ، أتقلّب في سريري . ان زياد يضيق بحبي ؛ انه بحاجة الى وجوه جديدة ... الى « مواد اولية !... »

انه يأتي اليّ دائماً ، لا لأنه يحبني ، ولكن لمجرد انه بحاجة الى امرأة ... وانا ... انا ... يا انا ... انا امرأة ، يعرف انها دوماً في انتظاره ؟!

وشعرت بشيءٍ من الذلّ .

*

عوّدت نفسي الاّ أراه كل يوم ، وبالعادة يسهل المقصود ؛ ولكنني اصبحت اتألم من وجهتين : لانني لا أراه دائماً ، واتألم اكثر لان نفسي تقبلت ذلك ، وتعودته !

ارتميت في احضان المجتمع ؛ صرت ارافق ليلى الى السينما ، وألبي دعوات الصديقات الى سهرات في بيوتهن ، وارافق احياناً ناديا الى نادي الشرق ، حيث الهي نفسي بلعب الورق ...

ولكن ... في الحقيقة ، كان هدفي من كل ذلك ان أسترد نوعاً ما مبعثرات قوتي وان استثير زياد . كنت اذهب الى السينما لأخبره عن « فيلم » جميل شاهدته ؛ واسهر مع الأصدقاء ، واعتني بمظهري وشكلي لعلمي ان احدهم سيخبره

في اليوم التالي انه رآني في تلك الحفلة ، او في النادي ، وانني كنت جميلة .

نعم كان كل هدفي ان اثير غيرته ، لكنني لم انجح ؛ على العكس ... لم يبال وكان يرحب بنشاطي الاجتماعي !

واشقاني عدم غيرته ...

لا ... لا ... ليست ثقة عمياء تلك التي تجعله غيرَ مبال ... الست جميلة ؟ الست مغرية ؟ الست شابة ؟ الست زهرة يحوم حول عبيرها الرجال ؟

ثقة عمياء !

هذه الثقة العمياء تثير نقمتي ... وتستفزّ غروري ! هل اخون زياد لانتقم من ثقته القاتلة ؟ ولكنني بذلك اكون قد انتقمت من نفسي ... لا منه ...

لماذا لا يغار زياد ؟ لماذا ؟ انه حتماً لا يحبني ... ولن يحبني الا اذا فقدني ... لانه ، يومها ، سيتعرف عليّ ؟

بلى ...

يجب ان اتركه ... لأبقى معه ...

*

واستيقظت ذات صباح على صوت دنا :

— آنسة ريم ... رسالة ... وصلتك الآن من خطيبك

— خطيبي ؟

عجبتُ ؛ لماذا يتذكرني ألفريد الآن ؟

وجلستُ في فراشي ، أمزّق الغلاف ، لاقرأ بالفرنسية :

« ريم ...

انا في مزيد الشوق اليك ... الى رانية ... والى شمس دمشق . وبما ان الدروس ستتوقف في الجامعة بعد اسبوع لمناسبة اعياد الميلاد ورأس السنة فقد فكرت ان أقضي العطلة معكم في دمشق . هل انت باقية في دمشق ؟ اكتبي لي في اسرع ما يمكن ؛ هل انتم بحاجة الى شيء من هنا ؟ قابلت خالنا سمير ويظهر انه لن يعود قبل شهرين او ثلاثة ... وهو يهديكم السلام .

سلامي الى الجميع ؛ قبلاتي لك ولرانية .. وانا .. احبك .. »

ألفريد ...

ذهلتُ !

هذه الكلمات المقتضبة تحمل معاني ومعاني ... لماذا يريد المجيء الى دمشق ؟ ليرى خطيبته ؟ انا لست خطيبته ! وهل هو فعلاً يحبني ؟ لماذا ؟ وكيف يحبني ؟

ودخلت رانية مسرعة :

– ريم ... ماذا يقول ألفريد ؟

– يقول انه بشوق اليك ...

سألتْ بطفولة :

– اذن ... لماذا لا يأتي اليّ ؟

غرس سؤالها البريء في قلبي حنيناً الى ألفريد ، لماذا لا يأتي ؟ انه قريبي على كل حال ، ويحمل رائحة امي وذكرى

أبي ...

نهضت من الفراش حالاً ، وخططت اليه بضع كلمات اخبره بأنني دائماً في دمشق ، لانني قد تسجلت في الجامعة ، وانني ورانية وناديا نرحّب بقدومه .

وفي المساء ، اخبرت زياد وليلى وكانا عندي ، عن رسالة الفريد ، فقال زياد ببرود :

ـ هذا حسن يا ريم ... ربما تتفقين معه هذه المرة وتتزوجينه ... يجب ان تفكري في مستقبلك ...

جرحتني كلماته !

كيف ... كيف يريدني ان اتزوج غيره ؟ قلت بتحدٍ :

ـ انا لا اريد الزواج !

فانبرت ليلى تقنعني بان الزواج ضروري لان الأطفال هم الشيءُ الوحيد الذي يعطي للوجود معنىً ...

ضحك زياد وقال :

ـ الأطفال ؟ الأطفال اكبر ازعاج في الوجود ... وجود الأطفال فناء لوجود الأهل ...! اما الزواج فهو بحدّ ذاته انتحار !

نظرت اليّ ليلى تسألني رأيي :

ـ انا اعتقد ان الزواج مقبرة الحب

التفت زياد الى ليلى وقال هازئاً :

– ان ريم لا تؤمن الا بالحب ! لكنها ستفهم في يوم من الأيام ان الحب زائل ، الحبُ سخافة ، وان الفن وحده يخلد ...

ابتسمتُ ولم اردّ .

انا اعلم ان الفن يخلد ، لكن زياد سيقدّر يوماً ما ، ان الفن بدون حب عظيم لا يكتمل ...

٦

لم يصلني اي خبر من ألفريد في الأيام التالية ، فبتّ اعتقد انه عدل عن المجيْ .

اما زياد فقد تأكدت في الأسبوع الذي سبق الاعياد ، انه يتعمد ايذائي ، بآرائه وبكلماته ...

ولاول مرة في حياتي لم استطع ان اتخذ موقفاً حاسماً تجاهه ، فقد ضيعتني تصرفاته المتناقضة .

حاولت ان افهم لماذا يريد ان يقنعني بانه لا يحبني ، الأنه فعلاً لا يحبني ؟ ام لأنه يحبني ، لكنه لا يريد ان يستسلم لطغيان هذا الحب ، فيحاربه بكلمات وافعال تجرحني ؟

لم ادرِ .

وجرّفني ضياعه ، فاصبحتْ نفسيتي انعكاس تصرفاته

واياميٍ صدى وجوده .

وصبرتُ ، آملة ان يجد زياد نفسه ، فاجد حينداك نفسي .

•

وذات يوم علمت ان احدى دور السينما تعرض شريطاً رائعاً ، فقررت ان اشاهده مع زياد ، ودخلت غرفتي ، اخابره .

وَلْولَ الحقد في عينيّ ، وزمجرت النقمة في شفتيّ ، وهرولت سماعة الهاتف تبتعد عن يدي الخانقة ، وتقرقع في سقوطها على الآلة الجامدة .

« لا ... ليس موجوداً ... سافر اليوم الى بيروت ... سيعود غداً ... »

كلمات ...

ونبرات صوت كئيب مجهول حملتها اليّ الأسلاك .

كيف ...

كيف يسافر زياد بعد ان أخبرني قبل يوم فقط ، حين طلبت اليه ان يصطحبني الى هناك ، انه لا يودّ مغادرة دمشق !

كيف يكذب عليّ زياد ؟ كيف لم يتجرأ على الأعتراف لي بأنه سيسافر لكنه لا يودّ اصطحابي ؟

كيف لا يفهم ان الكذب سلاحُ الضعفاء ؟ لماذا لا تقف شخصيته سنداً لتصرفاته عوضاً عن ان يتهرب من التصريح بآرائه ؟

الا يملك ثقة بنفسه ؟ هل هو ضعيف الى هذا الحد ؟

هل يريد ان يبرهن لي ... ان يذكرني بانني امرأة ، ومعناها في بلدي ، انني لا املك حق التدخل في امور الرجل ؟ وبذلك يعيدني الى حدودي ؟

او ... هل يريد ان يبرهن لغروره انه ما زال طائراً محلقاً ، لا يعترف بحقوق الورود ؟

سافر دون ان يخبرني ، وسيعود غداً ، وسيأتي غداً من توه اليّ ! انا متأكدة من ذلك . ومن واجبي كامرأة ، ان ارحّب به ، وأقفل فمي ، وكأن شيئاً لم يحدث !

اذن ... انا نغمة اضافها الى نغماته ، ويتسلى بعزفها حين يلذّ له !

اذن ... انا وتر من اوتار قيثارته يستبدله بآخر حين يطيب له !

اذن ... انا غصن يغرّد عليه الطائر المستهتر حين يشاء ...

اذن ... انا لست سوى انثى !

لا ... لا ... ولا !

انا الألحان بكل تموجاتها ... انا الطبيعة بكل عنفوانها ... انا الحياة بكل انتفاضاتها ...

انا لست انثى ! انا انسانة صديقة تريد المشاركة ، المشاركة في كل شيء ، والاّ ، فلا اريد شيئاً اطلاقاً ...

نعم ...

سيعود اليّ غداً ... ولكن ... غداً ، لن اكون بانتظاره !

وفي مساء الغد خابرتُ ناديا وطلبت منها ان تمرّ بي ، كي ارافقها الى النادي ، وبقيت في البيت انتظرها . ورن جرس الباب ، فخرجت من غرفتي ، اسأل دنا : من القادم ، واذا بي وجهاً لوجه مع زياد !

– الله كم انت جميلة ! الى اين ذاهبة ؟

قلت ببرود :

– الى سهرة ما ...

– وصلت الآن من بيروت ، وجئت تواً اليك ...

أجبته بلهجة لئيمة :

– الحمد لله على سلامتك !

– ماذا بك ؟ ولم هذا اللوْم ؟

لم اردّ .

– اخبريني هل انت غاضبة لانني ذهبت الى بيروت ؟

– انا لا اعاتبك يا زياد ...

– عاتبي ... انا اكره اللوْم . الى اين انت ذاهبة ؟

– زياد ... اعتقد انه من الأوفق ان تكون علاقتنا مجرد صداقة ، فالأصدقاء لا يتدخلون في امور بعضهم البعض ، وهذا ما تريده انتَ ... ان حبي يزعجك ، وانت لا تفهم الحب ...

انفعل ، وقال ببرود لاذع :

– وانت ؟ هل تفهمين انت الحب ؟ الحب في رأيك ان يوضع الرجل في زجاجة تخفينها في جيبك ! انت لا تحاولين

تفهم حياتي ؛ وماذا بها اذا ذهبت الى بيروت ؟ لقد طُلب مني في الشركة ان اذهب ، وكان الطقس حسناً ... فسافرت .

– وهل كان يتعبك ان تخابرني ؟

– لم افكر في ذلك ... كلها ليلة واراك بعدها . لكنك تثورين وتغضبين !

– انا لا اثور ولا أغضب ، لكنني اعتقد انه من الأوفق ان نظل صديقين . مجرد صداقة ...

نطق مغتاظاً :

– كما تريدين ! هل انتهيت من نسخ مقطوعتي الأخيرة ؟

– لا ... غداً ...

– اذن ... سأمرّ غداً كي آخذها ...

وانصرف منزعجاً .

*

جلست في نادي الشرق العب الورق مع بعض الاصدقاء .. كانت نفسيتي محتدمة ، وكنت اضحك ضحكة عصبية تزيد في تمزّق اعماقي . وكان تفكيري في زياد يلهيني ، ويمنعني عن الانتباه للعبة .

لقد ذهب زياد الى بيروت فقط ليكيدني ويبرهن لي انه حرّ ! لماذا ؟

وبين رسوم اوراق اللعب نُقشت الاسئلة الكثيرة ؛ هل يشكو زياد من عقدة نفسية ؟ هل احبّ في شبابه امرأة شرقية

غبية ، أسرته ولم تترك له مجالاً كي يتنفس ؟ حتى بات يعتقد ان كل امرأة شرقية لا يهمها سوى خنق الرجل بحصارها ، واصبح يتمسك بحريته ويستميت من اجلها ؟

اخبرني مرة في الصيف ، انه في الماضي البعيد ، كان يعرف امرأة ويحبها ، وانها كانت تغار حتى من موسيقاه ، وفنه ! هل هذا منبع تصرفاته الغريبة معي ؟ هل هذا سبب اعتقاده بان الفن والحرية متلازمان ؟ انا متأكدة من انه سافر الى بيروت ، لا لأن الشركة طلبت منه ذلك ، سافر فقط كي يفهمني ، نهائياً ، ان لا حق لي بالتدخل في اموره ! ولكن لماذا ؟

لماذا يعتقد انني اضع الحدود حول حياته ، وانا لم اتدخل مرة في شؤونه الخاصة ؟ ولماذا تظهر نتائج عقدته النفسية معي انا ؟

وبينما كنت غارقة في افكاري ، اذا بصوت يقول :

– آنسة ريم ... لقد احترقتِ للمرة الثالثة ، هل تريدين ان تتابعي ؟

وسألني احد الاصدقاء ضاحكاً :

– اين انت يا ريم ؟ انت لا تنتبهين للعب ؟

قلت في ضحكي :

– معك حق ... كنت أحلم بانني عالمة نفسية عظيمة !

وعاد السؤال :

– هل تتابعين ؟

فاقتربت مني ناديا ، وقالت :

– هل خسرتِ ايضاً ؟ سأشاركك !

ابتسمت .

– نعم ... ساتابع ... والآن سأربح !

وفكرت ، ان زياد سيزورني غداً ... ساحاول مرة اخرى ان افهمه ، والآن يجب ان احصر افكاري في اللعبة .

*

في اليوم التالي لازمني هيجاني النفسي ، فرحت العب مع رانية . وكنت ابدو جد مرحة ولكن « الطير يرقص مذبوحاً من الألم » ...

وجاء زياد في المساء ، فادخلته دنا غرفة اخي ؛ وقف على عتبة الباب يحدجني بانظاره وانا ارتدي البنطال ، واتربع على السجادة ، ابني بيوتاً من اوراق اللعب ! رفعت رأسي وقلت :

– اهلاً زياد

هزّ رأسه مستنكراً وقال :

– انت طفلة ...!

ضحكت :

– وانت استاذي ... الكبير ...

– هل انتهيت من نقل المقطوعة ؟

انتصبت واقفة دون ان اردّ . وخرجت الى القاعة احمل

الأوراق . تبغي ... جدياً ، وجلس يلقي نظرة على النوتات المنسوخة . قلتُ :

– زياد ... ان هذا المقطع لا يعجبني ...

قال متحدياً :

– انت دائماً تنتقدين ! وهل تفهمين انت الموسيقا ؟

– لا ... انا جاهلة بالتأليف ؛ ولكنني كمستمعة عادية اعتقد انك يجب ان تغيرّ هذه النوتة ... هنا ... ان حدّتها تجرح سمعي ولا تتناسب وبقية اللحن ... على كل حال هذا رأيي ... وطبعاً رأيي لا قيمة له فانا تلميذتك يا استاذ ...

ظل يتأملني ، ثم طوى الأوراق ووضعها في جيبه .

– لا شك انك طفلة !

وتابع بلهجة هادئة :

– متى سيكبر عقلك يا ريم ؟ متى ستفهميني ؟ متى ستفهمين حبي لك ؟ متى ستفهمين ان الحب ليس في ان آتي كل ليلة ، واقوم « بسيرناد » تحت نافذتك ... متى تفهمين ان الحب لا يُقدّر بعدد المخابرات الهاتفية التي افتحها لك ! انا لا افهم الحب هكذا ... ان حبي عميق ! افهميني ... يزعجني جدّ الازعاج ان اعطي تقارير عن تصرفاتي ؛ انا احبك ... ولكن لا تحاولي ان تضعي حدوداً حول حياتي ...

كان يتكلم ، وكنت احاول ان اقارن بين كلماته وتصرفاتي : أانا اضع حدوداً حول حياته اذا طلبت منه

الاّ يكذب عليّ ؟ وما هو هذا الحب العميق الذي لا يريد ان يبنيه على التفاهم والصداقة ؟

حب عميق !

ان هذا الحب العميق يقتلني لانني اتقاسمه مع اثاث بيته ! أفلا يحب زياد مقعده حباً عميقاً ؟ لقد رفض ان يبيعه في الاسبوع الماضي لانه متعلق به ! وخزانته ... ومكتبته ... وفنجان قهوته الكبير !

انه لا يشرب القهوة الا بهذا الفنجان ، ولا يسمح له بان يتدخل في شؤونه ، وليس بحاجة الى ان يعطيه تقارير عن تصرفاته !!!

وتابع ضجراً :

ـ انت لا تطاقين ... اذا لم اخابرك كل يوم فانا لا احبك ، واذا كنت تعباً ، فانا لا احبك ... واذا سافرت الى بيروت لليلة واحدة فانا لا احبك ... وتقولين إنك تفهمين الحب !

فكرت ،

قد اكون انا مخطئة ، ربما انا فعلاً لا افهم زياد ... ربما هو يحبني ... على طريقته الخاصة ، ربما الرجل في سنّ الأربعين يحب بهذه الصورة ...

ـ انا احبك كثيراً يا ريم ... واريدك ان تفهمي ذلك ...

سألته وانا احاول ان تبدو لهجتي غير مكترثة :

ـ هل تسهر معي الليلة ؟

تردد قليلاً :

– لست ادري ... هل تودّين ذلك ؟

بقيت صامتة ، فقال ·

– سنسهر معاً مساء الغد في مطعم الكزانوفا

– غداً ؟ آه غداً ... ليلة عيد الميلاد

وتذكرتُ اننا منذ اسابيع قررنا ذلك ، وتابع :

– اعتقد انه من الأوفق اذن ان انام باكراً الليلة . وانا اشعر بثقل في رأسي ... ما رأيكِ ؟

لم الحّ :

– كما تريد ... اما انا فقد اسهر في نادي الشرق

تمنيت لو يقول ، لو يأمرني ان ابقى في بيتي ، لو يُشعرني بسيطرته ، لكنه قال بغير اكتراث :

– لا بأس ... الى الغد ...

٧

في نادي الشرق ...

أحاطتني نظرات النساء الفاحصة ... الناقدة ... وعيون الرجال الملتهمة ...

واقترب احدهم من طاولتنا ، والقى بالسلام على ناديا ، وجلس الى جانبي وقال :

ــ انت كل يوم اجمل من اليوم الذي سبقه ...

ثم اردف همساً :

ــ اليس من الحرام ان تحبّ فتاة مثلك رجلاً واحداً ؟

شعرت برخصه ... وباشمئزاز ! والتفتّ حالاً الى السيدة التي سألتني اذا كنت اريد لعب الورق واجبتها :

« بكل سرور ... » وابتسمت ناديا .

وقفتُ ، وسرت نحو غرفة اللعب ، وانا اشعر بأن نظرات حاقدة تذيل مشيتي . طبعاً : « اليس من الحرام ان تلعب بالورق فتاة مثلي ، وتترك رجلاً جائعاً يجترّ وحده تصريحه الرخيص ؟ »

جلستُ وراء الطاولة ، وأخذت العب بصورة «اتوماتيكية» . لم انتبه مطلقاً لأوراقي ، بل صببت كل اهتمامي في مراقبة الأصابع الطويلة الصفراء ، وهي تمتد ... حذرة خائفة ... مرتجفة ... على الساحة الخضراء ، وكأنها عقاربُ مليئة بالسم ، تعقص الأوراق ، وتحاول التهام الأموال المتراكمة ، المغرية ...

ثم ترتدّ خائبة ...

فيتسرب الأصفرار والامتقاع الى الأذرع ، ليكسو الوجوه القلقة .

وابتسامة الطمع الشرهة ، تتمايل على وجه واحد من اللاعبين : الرابح ، ثم تتركه ، لتستولي على شفتي آخر .

وهكذا من وجه الى وجه ، والأصابع الصفراء تمتد دائماً مرتجفة ... وتعود خائبة ...

شعرت بملل ، وبشيء من الخوف ، واخذتْ مخيلتي تخطّ بين الأصابع ما قاله لي زياد منذ اسابيع :

« كنت اؤمن بمواهبك ... كنت اثق بانك ستصبحين

شاعرة كبيرة ، ولكنك تضيّعين اوقاتك باللهو ... باشياء تافهة ، انك تخيبين آمالي ... »

وأفقتُ من تأملاتي على صوت احدهم يسأل :

- « هل نلعب دوراً ثانياً ...؟ ؟

لا ... لا ... انا لا اريد ان اضيّع اوقاتي باللهو . اريد ان اعود الى بيتي ... اريد ان اكتب ... سأبرهن لزياد انني قادرة ... قادرة ... قادرة ...

اعتذرت شاكرة ، واتجهت نحو الباب .

وعلى مدخل النادي التقيت بالاستاذ مروان ، وكنت اعرفه منذ زمن بعيد فقد كان صديق والدي .

مدّ يده وصافحني :

- اهلاً ... يا اهلاً بك ... هل انت ذاهبة الى البيت ؟

- نعم ... وانت ؟

- جئت الآن الى النادي ، ولو عرفت انك هنا لاتيت منذ بدء السهرة ...

حدقت الى وجهه ؛ كنت في الماضي أراه كثيراً عند والدي ولكنني لم اكن اشعر بوجوده ؛ والآن أتنبه فجأة على جمال طلعته .

- لماذا تنظرين اليّ هكذا ؟

احمرت وجنتاي ، وتمتمت :

- عفواً ... لم اركَ منذ زمن بعيد ...

قال بصوت هادئ رزين :

– انا دائماً أراك يا ريم ... واتتبع اخبارك ... هل تأمريني بخدمة ؟ هل تريدين ان اوصلك الى البيت ؟

– شكراً ... سيارتي هنا ...

فكرت ، وانا اخرج من النادي ، انه قد يسرّني ان اجلس مع مروان بضع لحظات ... وابتسمتُ ؛ انا ، ككل كائن بشري ، معرضة دائماً للاغراء ! ولكن هنا ، في هذه الحالات بالذات ، تظهر قوة الانسان الذي يصمد : فلا يبيع شخصيته بنظرة ثاقبة فاتنة ، او ببضع كلمات دافئات ...

ثم ، مجرد وجودي مع شخص يعجبني ، يبعدني خطوة عن طيف زياد ، وانا اريد ان ابقى متلاشية في طيفه .

ان زياد نائم الآن .

كم وددت لو أراه ، فأخبره ، مستجدية كم انا بحاجة اليه ، ليحميني من النظرات الملتهمة ... من الأصوات الهادئة الرزينة ... ومن الأصابع الصفراء ...

كم انا بحاجة اليه ليقول لي انني جميلة ، وانه يريد ان يحافظ على جمالي له ... فيحيطه باسوار غيرته ...

ولكنه تعب ونائم وقد ازعجه لو مررت به .

وكالعادة ، قدتُ سيارتي ، واخذت الطريق الذي يمرّ من امام منزله . كان دائماً يلذّ لي ان امرّ امام منزله حتى لو كان هو ، الى جانبي في السيارة .

وفجأة ، بلجمت سيارتي بقدمي !

اين سيارته ؟

إنها تنام كل ليلة هنا ، امام الرصيف ... لا بد ان زياد قد خرج من البيت . واول فكرة تبادرت الى ذهني هي انه قد ذهب الى بيت اخته ، او الى بيت بعض اقربائه .

اذن لقد شفي من الم رأسه وأستطيع ان أراه دون ان ازعجه ! يا الهي كم اودّ رؤيته ... ستسرّه المفاجأة حتماً . كم اودّ ان أراه لأخبره فقط انني احبه ...

كيف أفهمه انني بحاجة ملحة الى عطفه وحبه ورعايته ؟ يجب ان أراه الآن ، لارتمي بين ذراعيه ، لأبكي على كتفه ، وأشعر بنفسي صغيرة ، طفلة ، في احضانه ... هل انتظره امام بيته حتى يعود من سهرته ؟ هل اعود الى بيتي ... واخابره ؟

وقدت سيارتي ، وقلق الفرح ، وتساؤل الانتظار يملآن نفسي ...

وصلت الى منتصف الشارع . لا ... لن استطيع ان اذهب الى بيتي دون ان ارى زياد ، ان دخول بيتي يخيفني . سأعود اليه ، سأنتظره امام بيته ، مجرد رؤيته يشعرني بأمان ... انا خائفة ... يجب ان أراه ... ان نقمتي عليه في غير موضعها ؛ وماذا بها اذا ذهب الى بيروت دون علمي ... ماذا بها ... ماذا بها ؟

وكنت غارقة في حديثي مع نفسي ، واذا بانظاري تتسمّر على سيارة صغيرة رابضة هناك قرب الرصيف في

شارع الصالحية .

عجبتُ ... ماذا يفعل هنا زياد ؟

ماذا يوجد في هذا الشارع سوى علب الليل وبعض المطاعم ؟ ولكن زياد لا يرتاد هذه الأمكنة ، ربما اخوه او احد اصدقائه قد دعاه الى هنا ...

وراحت عيوني تبحث في العناوين المضاءة ، علّها تكتشف فيها ايحاءً .

وصفقت أهدابي لعنوان « الكزانوفا » ، وشعرت بسرور ؛ سآتي غداً مع زياد الى هنا ؛ لقد اخبرونا أنه مطعم جميل ، وقد رفض زياد ان يرافق أخاه اليه ، قائلاً إنه يريد ان يسهر فيه لأول مرة معي ...

وابتسمتُ ، كيف اعتقدت ان زياد لا يحبني ؟

وفجأة ...

جمدت الابتسامة على شفاهي ، واتسعت عيوني ، وصعقت ... مذعورة !

كان زياد يخرج من المطعم ذاته ، ولم يكن الى جانبه اخوه ، ولا صديق من اصدقائه ... بل فتاة جميلة لا اعرفها ...

نعم ... كان الى جانبه وجهٌ جديد !

امتقع حين شاهد سيارتي ، ثم اقترب ، وانحنى على النافذة ، وقال بصوت خافت :

— اهلاً ... انت هنا ؟

لست ادري حتى الآن كيف استطعت ان احتفظ

بابتسامتي ... وهدوئي ، وقلت :

– انني عائدة من نادي الشرق ، ما هذه الصدفة ؟

قال متعجباً :

– لكنك مبكرة ... الساعة الحادية عشرة والنصف ... هل تريدين ان اعرفك بالآنسة ؟

قلت بسخرية

– اذا اقتربتْ ...

ناداها ...

فتبخترت صوبي ... وانحنت بدورها على النافذة . قال ، وخيل اليّ ان صوته غدا شريطاً شاحباً :

– الآنسة سوزان ... الآنسة ريم ...

من اول لمحة تأكدت انها حلوة . قلت ببساطة تامة :

– اهلاً وسهلاً ... لقد سمعت بانك جميلة ، ولكنك اجمل مما وصفوا ...

رفرفت أهدابها بصورة مصطنعة ، وهزت رأسها بغنج فتطايرت خصلات شعرها القليل ، وجاءت ابتسامة مدروسة تشدّ شفتيها الجميلتين ، وقالت بصوت حاد رفيع ، زعزع من ثباته غرورُ الثناء :

– اشـ ... اشكرك ...

تابعتُ بصورة طبيعية جداً :

– هل تسمحان بان اوصلكما ؟

أجاب زياد :

– سيارتي معي يا ريم ...

– اذن ... تصبحان على خير ...

وابتعدتُ .

وحالاً ...

انهارت اعصابي ... شعرت بالدنيا كلها تدور ... تدور ... امامي ، وشخصت عيوني ، ولم استطع ان احولها عن هذا الدوار الأسود المخيف ...

واخذت ساقاي ترتجفان بصورة هستيرية ، حتى ان سيارتي صارت تقفز قفزات غير منتظمة ... وكنت عاجزة عن لجمها !

لم استطع ان ابكي ... لم استطع ان افكر ... بل كنتُ اتحمل بصورة طوعية ارتجاف جسدي كلّه ، واتألم من تفجر ذراتي ، اسى ومرارة ...

وددت لو انني متّ ... متّ في تلك اللحظة ...

لا ...

لن اعود الى بيتي ! سأذهب ... سأذهب ... لست ادري الى اين ... يجب ان اهرب ... ان ابتعد بأية طريقة عن هذا الدوار الذي يكاد يبتلعني ...

سأذهب ... ولكن ... الى اين ؟

هل اعود الى هذا الرجل الرخيص في النادي ، لاهمس في اذنه بدوري ، انه على حق ، وانه من الحرام ان تحب فتاة ... رجلاً واحداً ؟

اين مروان ؟ لماذا لم ابق معه ؟ انا لست قوية ، بل غبية لانني صمدت امام اغرائه ! هل اذهب اليه الآن لارتمي بين ذراعيه ... سكرى ... مخمورة ؟

ما همّه اذا كان سكري بالخمر ... ام بالألم ؟

الى اين اذهب ؟ وقد سُدّت الأبوابُ في وجهي ، وازدرد كل آمالي ، هذا الدوار الأسود المخيف ؟

لا ... لن اعود الى البيت ... يجب ان اهرب ...

وادت المقود ، وبصورة لا شعورية ، عدت في الطريق نفسه . وحين وصلت الى مفرق شارع بيروت اذا بسيارة تتبعني ... تقترب مني ... تلامس سيارتي ؛ خففت السرعة ، واذا برأس زياد يطلّ من النافذة ويسأل بصورة طبيعية :

– الى اين ذاهبة من هنا ؟

جاءني صوته بعيداً ... بعيداً ... من وراء القبور ...

فحملقت به ، لم ارَ تقاطيع وجهه ! اين زياد الذي كان يحميني ؟ هذا الرجل غريب ... لماذا احدثه ؟ اين زياد القديم ... كي اهرب اليه من هذا الرجل ؟

وتعجب من تعابير وجهي الغريبة المروّعة ، فاعاد سؤاله :

– ريم تمهلي ... الى اين ذاهبة ؟

اجبت بصوت مثلج :

– لست ادري ...

فهم ... فانقلبت سحنته وقال :

– انتظري ... انتظري لحظة ...

واوقف سيارته الى جانب الرصيف ، ورأيته يسرع صوبي ؟
لماذا انتظرته ؟ لماذا لم اهرب ؟

الاني ضعيفة ؟ الاني كنت متلفة الأعصاب ، وبحاجة الى احد يأمرني فاتبعه دون ادنى مقاومة ...؟

الاني فهمت انني لن اجد الدواء ، الا في سبب الداء ذاته ؟

ام لانني اردت ان اقنع نفسي بان زياد الذي احب ليس زياد الذي شاهدت هذه الليلة ؟

لماذا انتظرته ؟ لست ادري ...

وفتح الباب الأمامي ... وكان الى جانبي :

– ماذا بك يا ريم ؟

تجسمت اللوعة في وجهي ، ولم يسعني الا ان اقول :

– اهكذا ... اهكذا ... يا زياد ...

– ماذا بكِ يا ريم ...؟

ورحت اهزّ رأسي والحسرة تقطع صوتي ... :

– اهكذا ... اهكذا ...؟

– ماذا ؟ قولي ماذا بك ؟ ريم ... قولي ما بك ؟

– كذبت عليّ ... لماذا ... لماذا يا زياد ؟ لماذا كذبت عليّ ؟ لماذا لم تخبرني ؟ لماذا كنت تمثل طيلة هذه الأيام ؟ لماذا ؟ لماذا يا زياد ؟

كانت لهجتي آسفة لا معاتبة ، وكان ينظر الي مرتاعاً ... قال بسذاجة :

– ريم ... ريم ... انا لم اكذب عليك ... هل أزعجك

انك شاهدتني مع سوزان ؟ هل ازعجك ذلك ؟

– ليتني متّ قبل ان أراك تدوس حبنا ... ليت الأرض ابتلعتني يا زياد ...

كان صوتي يبكي ... كانت كلماتي تبكي ... كان وجودي يبكي ... لذلك خجلت عيوني من تفاهة دموعها ... فجفّت !

– ليتني متّ قبل ان أراك تقتل هذا الحب الذي سقيته من مآقيّ ...

اختلجت عيناه ، وتهدج صوته :

– ارجوك ريم ... حبيبتي ... لا تقولي هذه الكلمات ريم ... لم اتخيل لحظة انك ستنزعجين ... ريم ... استمعي اليّ ... كانت تنتظرني ، وطلبتْ مني ان أرافقها الى المطعم لانها لا تودّ ولوجَه بمفردها ولا تعرف هنا احداً غيري ... صدقيني ... لم اكذب عليك ... لم اكن ادري انها في انتظاري .. هل تريدين ان نذهب اليها الآن ونسألها ؟ والله يا ريم ... لم اقدّر انني قد اسيء اليك ... ريم صدقيني ... كيف ابرهن لك عن ذلك ؟ هل تريدينني ان استقيل غداً من الشركة ؟

جمجمت بسخرية حزينة :

– وما الفائدة الآن ما دام حبنا قد ولّى ؟

– ريم ... اتوسل اليك ... استمعي اليّ ... لقد اعتبرت الحادثة طبيعية جداً ، ولم ادرِ انني قد اوذيك ... اما الآن

فانا اعتذر ... انا فعلاً اعتذر ... ريم ...

لم افهم ما كان يقول ... ومرت لحظات ثقيلة ... بطيئة ، وانا في شبه غيبوبة ، اقود سيارتي على غير هدى .

كانت الدنيا باكملها قصوراً تتحطم فوق رأسي ، وكان الوجود دواراً يحملني ... يدوّخني ... يرهقني ... ويأبى ... يأبى ان يُفنيني ...

وكان زياد بجميع الطرق يحاول ان يعتذر حتى انني رأيت دموعاً تتحدّر من عينيه ، لكنه كان كشخص غريب يتحدّث عن ميت عزيز ... شخص غريب لا اكرهه ، ولكن ... هل كان بامكانه ان يردّ لي الشخص الذي مات ؟ هل كان بامكانه ان يصلح الكأس الثمينة التي هشم ؟

لم اشعر بنقمة عليه ... لم اشعر بغضب ... كنت فقط حزينة ... حزينة ... حزينة الى درجة الجمود ...

حزينة لانني فقدت شيئاً في اعماقي ... شيئاً بريئاً طاهراً قد اسميه ايماناً ، وطفولة ...

وشعرت فجأة بانني كبرتُ ... واصبحت هرمة ...

– ريم ... يجب ان تعودي الى البيت ... يجب ... ريم ... ارجوك ... قاربت الساعة الثانية والنصف وانت تعبة ...

– ساوصلكَ الى سيارتك

– وانتِ

– وبماذا اهمك انا ؟

– ريم ... لا تكوني مجنونة ... ساذهب معك واطمئن على انك في بيتك ثم اعود ...

– لا ... شكراً ...

واوقفت سيارتي قرب سيارته ، فنزل وهو يردّد باصرار :

« ساتبعك كي اتأكد من انك وصلت ... »

فكرت الا اعود الى بيتي ... ولكن لم لا ؟

وماذا أجني من الهرب ما دمت لا استطيع الهرب من عذاب نفسي ؟

وعدتُ ، وفي عيوني انقاض نظرات شباب ...

*

منذ الساعة الثامنة صباحاً كان زياد عندي . قال ضاحكاً :

– ان صباحك اجمل صباح في الدنيا ... لم اذهب الى الشركة اليوم كي أقضي يومي كله معك ...

سخرت في اعماقي من كلماته ! هل يعتبر مجيئه اليّ تضحية كبرى ؟

– انا تحت تصرفكِ ... مريني بما تشائين ... وأنفّذ ...

لم اقل شيئاً ، وماذا اقول لهذا الرجل ؟ وهو يعتبر المرأة دمية من « عجين » ، يؤذيها ، يرميها ، فيمحو معالمها ... ثم بقليل من الجهد ، يعيدها الى شكلها الاول !

إنه لا يفهم ان نفسيّ كإناء من « الكريستال » الرقيق ،

تكفيه نقرةٌ جافة كي ينصدع الى الابد ... لا ... انه لا يفهم ان جهود حياته باكملها لن تعيد الاناء الى نقائه الاصلي !

بقي عندي طيلة النهار يحدثني ، يحاول ان يكون مرحاً ، يحاول ان يظهر لي حبه ! لكنني في اليوم كنت بحاجة الى شيءٍ واحد ، ما عاد يملكه : الشعور بانني ربيبته الصغيرة ... الشعور بحمايته !

لم يعد زياد ذلك الانسان الذي كنت اركض اليه لاختبىء من الدنيا ... من الامطار ... من الوحدة ...

كان معي ، يحدثني ، يدعي حبي ، لكنني لأول مرة ، وانا معه ، شعرت بنفسي ... وحيدة ...!

وفي المساء ذهب الى بيته ليغيّر ملابسه ؛ ومع انني اخبرته انني لن اسهر هذه الليلة ، الا انه اصرّ على ان يبقى معي ! فقررت ان نبقى في البيت .

لبست ثوبي الأسود ، وكان شحوبي يضفي على وجهي النحيل لحناً حزيناً رقراقاً ، وكانت عيناي الذابلتان تلمعان خلف الدموع المكبوتة ، وتبدوان اكبر مما هما ...

تأملت نفسي في المرآة ، وشعرت بحزن ...

لمن هذا الشباب ؟ لمن اعتني بنفسي ؟ الجمال يستطيب الرفاهية ، ويتطلب العزة ويستحق السجود ، وانا افني شبابي مع رجل لا يقدره ... ولا يقدرني ...

*

حاولت طوال السهرة ان اكون مرحة ، ان اتناسى ... ونجحت نوعاً ما ؛ ولكني ... حين اقترب مني ... وامسك بيدي ... وقبلها ... ثم احتواني ، فجأة ، بين ذراعيه ... شعرت بانزعاج ! شعرت بنفسي مبتذلة ... رخيصة !

لا ... لا ... انا لست لحناً يعزفه حين يشاء ...

كان حبنا « سمفونية » جميلة لا تكتمل الا بالتحام مقطعيها ... اما الآن ... فالالحان الناشزة قد دمّرت السمفونية ، واصبحنا ... غريبين !

نفرت من بين ذراعيه ، وعدت الى الوراء وانا اقول بذعر :

– زياد ... زياد ...

– يا ريم ... اما رضيتِ بعد ؟ انت تحمّلين الأمور اكثر مما يجب

– لا يا زياد ... شيءٌ قد تحطم في داخلي ...

– أانت لا تحبينني ؟

– ليس هذا مهماً ... بلى احبك ... ولكن ... اصبح شيءٌ يبعدك عني ... هاوية تفرق بيننا ...

سأل مستعطفاً :

– هل ... هل تريدينني ان انصرف ؟

هززت رأسي إيجاباً ...

فامسك كأسه وجرعه دفعة واحدة ، واشعل لفافة وحاول ان يحرق انزعاجه مع التبغ ، لكن وجهه ظل ممتقعاً تعبس

في تقاطيعه المرارة والحقد ، وغمغم بلوْم :

– لم تفهميني للأسف ... ظننتك ستتصرفين على غير هذه الصورة ... لكنك خيّبت ظني ... لا ... لم تفهميني ... تريدين ان نقطع علاقتنا ... على كل حال انا لا الومك ... تصبحين على خير ...

٨

تمتزج روحي احياناً بأنغام العذاب ، فتصبح لحناً يائساً يتطاير في فضاء البيت ، يسكب في كل ركن فيه جواً ، هادئاً حزيناً ... ويهيم باحثاً بين الحروف ، عن ذراع رؤوف ، يرتمي عليها ... باعياء ...

ولكن الحروف خانتني في ذلك اليوم ، وشعرت بالوحدة تمتصّ جراحي ...

خانتني الحروف لأنها لم تثق بحبي لها ... وفي الحقيقة هل احببتها انا كما يجب ؟ ألم أهملها من اجل زياد ؟ ألم اسخرها جميعها لخدمته ؟ ألم انثرها كلها نجوماً في سماء عينيه ؟

لا ... لم احب الحروف ... ولم ارعها ...! لو احببتها لما سمحت لزياد بان يطفئ بريقها ... لو احببتها ، لما

خانتني ...

وتضايقت من وحدتي ، مع انني كنت ادري ان زياد سيأتي اليّ في المساء مع بعض الاصدقاء ، وكان قد تواعد معهم منذ اسبوع على زيارتي ، وكنت اعرف انه لن يتجرأ فيتخلف عن الموعد ...

لكن فكرة مجيئه هذه المرة لم تعطّر يومي ، فصرت أروح واجيءُ في البيت ، ارحّب بكل طيف زائر ...

وانتفضت من الفرح حين دلفت ليلى الى غرفتي وهي تقول :

– لقد قابلت ناديا في الطريق وقالت انها ستمر بك بعد قليل ...

ناديا ...

احسست بشوق عميق اليها ... وكأنني لم ارها منذ سنين وتذكرت جملتها : « في ظروفك الحالية انت لا تفكرين فيّ يا حبيبتي ... »

كيف نسيتها ؟ كيف نسيت انها صديقة امي ، وانها تحمل في نفسها كل الأخلاص للغالية التي تركتني منذ سنين ؟ كيف نسيت انها كانت دائماً الى جانبي ، في احلك أيام يأسي

قالت ليلى :

– ان شكلك اليوم يدل على انك شاعرة ... هذه الابتسامة التائهة الحزينة على شفتيك ... وهذا الشرود في عينيك ... وبالمناسبة ، لقد رأيت زياد ايضاً ، وقال انه سيأتي في المساء ...

ومن الغريب ان شكله كان يشابه شكلك الآن ... فالضياع الحزين اليائس كان يبدو في عينيه ؛

وضحكتْ وهي تتابع :

– اتعلمين ... لقد ذكّرني منظره اليوم بابن جارتنا الصغير ... حين توبّخه أمه ...

دهشت من ملاحظتها ، وحملتني كلماتها الى ليلة البارحة ، حين جلستُ انظر الى البعيد ، وجلس هو بالقرب مني على الديوان يقول بطفولة :

« اعذريني ... اذا اتيت ذنباً ... اعذريني ... لم يخطر ببالي ان ذلك قد يؤذيك ... »

كيف انقم على زياد ؟

كيف لا اعذر طفلاً يتوب عن ذنبه ، بل لا يدري اصلاً انه قد اتى ذنباً ؟ كيف لا اصفح عن طفلٍ يصفعني لامباليا وهو لا يدري ان يده الصغيرة توجع عيوني ؟

وجاءت ناديا ، فركضت اعانقها :

– ما سبب هذا الحب الفجائي يا ريم ؟

ضحكتُ :

– انا احبكِ دائماً ... اما شوقي فهو خط بياني ترسمه الظروف ! وفي ظروفي الحالية – وهذه جملتك – انا مشتاقة اليك ...

التفتت اليّ ليلى وقالت :

– ما هذه الجمل الهندسية ؟ حديثك بحاجة الى ترجمان !

حدقتني ناديا ثم هزت رأسها :

ــ ماذا في الجو ؟ شوقك اليّ لا بد ان له سبباً ! هل ازعجك احدُهم ؟

تأملت وجهها الهادئ الجميل وعينيها الدعجاوتين المبللتين دائماً :

ــ لم يزعجني احد ... يا ناديا ... ولكن ... لكنني حزينة ، لانني فقدت شعوراً جميلاً ... شعوراً بحماية رجل ...

استنكرت كلماتي ، ساخرة :

ــ ارجوك ريم ... ارجوك لا تتكلمي عن هذه العواطف البدائية ! هل تشعر فتاة ذكية ، مثقفة ، بأنها محتاجة الى حماية رجل ؟ ما هذا الكلام ؟

فانبرت ليلى تدافع عن وجهة نظري :

ــ ولكن المرأة كي تحب رجلاً ، يجب ان يكون عندها شعور بأنه يحميها ...

ــ هذا خطأ ! الحب الصحيح يقوم على التفاهم ، على التآلف ، ولا يمكن ان نبنيه على الضعف !

ــ ولكن المرأة ضعيفة يا ناديا

ــ ابداً ... المرأة الشرقية ضعيفة لانها ما زالت تئن تحت سلاسل القيود الثقيلة ... لأنها كسلى ، لا تتجرأ بمفردها على شقّ طريقها في الحياة ... نعم انها كسلى ! انها تمشي وراء الرجل تتستّر بظله للتهرب من مجابهة مشاكل الحياة بمفردها ...

لا ... ارجوك ريم ... هذا ضعف ... انعدام شخصية ...

تمسكّت بآراء ناديا ؛

هل انا اتهرب من مجابهة مشاكل الحياة ؟

نعم ... انا اتهرب من كل شيء ، انا اخاف كل شيء ... انا لا استطيع حتّى ان اكتب الشعر وانا بعيدة عن زياد ، لانني اخاف الوحدة ، لانني اخاف الفراغ ، لانني لا افهم ... لا افهم معنى الوجود .

نعم هذا ضعف ! لماذا لا اكوّن شخصيتي بنفسي عوضاً عن ان تكون حياتي انعكاساً لأشعة عيونه ؟

لماذا لا املأ وجودي بطيفه عوضاً عن ان يتلاشى وجودي في وجوده ؟

لماذا لا اجد سعادتي في افكاري عوضاً عن ان تكون سعادتي على شفتيه ؟

نعم ... هذا الشعور بالحماية بدائي ... انه تلاشي الشخصية !

ومع ان النتيجة التي توصلت اليها ليست لصالحي ، إلا انني شعرت براحة : انا لست بحاجة الى الشعور بحماية زياد كي احبه !

قالت ليلى فجأة :

– ريم ... اسمعي ... في المذياع ...

فهمت انها مقطوعة لزياد ، وشعرت بارتباك ؛ كنت لا احب ان تأتي على ذكره امام ناديا وهي لا تحبه ؛ لكنني قلت بصورة جعلتها طبيعية :

– انها المقطوعة الأخيرة ، وهي رائعة ... عدا مقطعاً لا يعجبني ...

وانصتنا الى الألحان البديعة التي اعرف . وفجأة احمرت وجنتاي وبرقت عيوني ، وسألت ليلى :

– اي مقطع لا يعجبك ؟ كلها رائعة .

دمدمتُ :

– نعم ... تعجبني كلها الآن ...

وابتسمت بحنان ، ان زياد ككل مرة في الماضي قد غيّر المقطع الذي لم احب ...

•

وصل زياد قبل الاصدقاء ، ودخل شارداً ... تائهاً ... فاستقبلتُه ضاحكة :

– اهلاً زياد ...

هزّ رأسه بفتور مجيباً تحيتي ، ثم سأل ناقماً :

– الم يأتوا بعد ؟

– سيأتون بعد قليل ...

– ولماذا تأخروا ؟

– وهل يؤذيك تأخرهم ؟ هل يزعجك ان نبقى وحيدين بضع لحظات ؟

– ولماذا ابقى معك بضع لحظات ؟

– لسبب بسيط جداً ، وهو انه يلذ لي انا ان ابقى معك ...

قال بلهجة طفلٍ حارد :

– لا ... هذا غير صحيح ... لقد قلتِ ان شيئاً أصبح يبعدك عني ... فلم التمثيل ؟

ما اردت ان اضعف فقلت مؤكدة :

– فعلاً ... اصبح شيء يبعدك عني ...

اخذ يروح ويجيء مستاء ... وجلست انا أراقبه ؛ قال متذمراً :

– لقد تأخروا ...

– وبعد ؟

– لن انتظرهم سوى بضع لحظات واذا لم يأتوا فسأنصرف ...

سألت ببرود :

– هل يمكنني ان افهم لماذا تحقد ؟

– انا لست حاقداً ... لكن ... يجب ان انصرف فلديّ بعض الاشغال ...

فهمت انه يكذب ...

وسكتّ ، انتظر فوران حقده . ظل يروح ويجيء ثم قال :

– لقد خيبتِ ظني ... يؤسفني انك تتصرفين كامرأة عادية . ظننتك متحررة ... ظننتك تختلفين عن سائر النساء ..! لا ... كلكن نساء والغيرة تقتلكن !

لم تجرحني كلماته بل اثارت نقمتي ؛ وتابع :

– نعم ... نسيتُ انك فتاة شرقية !

فتاة شرقية ؟ ما هذا المنطق ؟ وهل المرأة الشرقية وحدها

تشعر بالكرامة؟ وهل الشعور بالكرامة عيب؟ وهل يريدني ان اكون كهؤلاء الفتيات الرخيصات الكثيرات اللواتي تعرّف بهن في اوروبا ، واللواتي كنّ مثله ، يعتبرن الحب لهواً ومادة؟ قلت منفعلة :

– نعم انا شرقية ... انا فخور بكوني شرقية ...

قاطعني :

– نعم شرقية ... ككل نسائنا الشرقيات ... تعمي عيونهن الغيرة !

– انا لا اغار ولكنني احب الصراحة واكره الكذب ...

– لا تحاولي تبرير غيرتك ! انت تغارين ... تغارين من خيالك ... انا اعرفك تماماً الآن ...

يعرفني ! ليته كان يعرفني ... ليته فهم ان سهرته مع سوزان جعلتني اشعر بحزن لا بغيرة ... ليته عرف ان نفسي اصبحت كئيبة لا ناقمة ...

غيرة ... غيرة ...!

هل يعتقد انني اغار من سوزان او احسدها او انقم عليها ؟

هل يعرف ان الغيرة بمفهومي هي الاشمئزاز من نوتة ناشزة في مقطوعة رائعة ، ثم الأسف على هذه المقطوعة ؟

هل باستطاعته ان يقدّر ان كلمة كذب بالنسبة اليّ خيانة ، لأنني اعتبرها تفعيلة خاطئة تكسّر ابيات حبي ؟

واردف :

– نعم ... مبعث كل تصرفاتكِ الغيرة

قلت مغتاظة :

– انا ككل النساء ، بل اسوأ من جميع النساء ... انا اغار ... اغار كثيراً ...

– اعرف ذلك ! انت لا تريدين مرافقتي الى بيروت الا لمراقبتي ... انت لا تخابرينني الا لتتأكدي من انني في البيت ... انت لا تودين ان تسهري معي وتبقيْ معي الاّ لتملكي كل وقتي فلا تدعينني أتنفس ...

ذهلتُ !

اهكذا اذن يفهم حبي الكبير ؟ ان هذا الرجل مريض نفسياً ، مريض ... مريض ... لاشك الآن ، ان غيرة امرأة شرقية في الماضي البعيد ، كوّنت في نفسه هذه العقدة القبيحة ... انه يهين حبي ... هذا الحب الذي اضحي من اجله بحياتي ، ويخفض من قيمته ... ويعتبره : غيرة ! انه مريض ...

شعرت بالاسى يمزقني ، ومددت يدي بعصبية آخذ لفافة ، فصدمت المنفضة وأوقعتها .

وعلى صوت ارتطامها بالأرض تنبهت ، فجأة ، للهجة جدالنا ؛

اين ذلك العطف الذي كان يهفّ من كل كلمة نقولها ؟ اين ذاك التفاهم الذي كان يغزل اجواءنا ؟ اين ذلك الفنان النبيل ، وتلك الفتاة المتفانية اللذان كانا يتلاشيان في خيال واحد ؟

نحن الآن لسنا سوى شخصين عاديين : رجل وامرأة ! رجل ضعيف ، يصيح الجوع في عينيه ! وامرأة تافهة تحقد وتعاتب وتلوم !

وشعرت بنفسيّ كلها تنتفض ؛ كيف تدهورنا الى هذا المستوى ؟ انا الملوم ... فزياد مريض ، وضعيف ...

لقد اساء التصرف معي ، وحقدتُ . ولكن هل من القوة ان احقد ؟ كل امرأة تحقد ، والقلب الكبير ، القلب النبيل وحده يسامح ... والعفو اقسى على المذنب من العقاب ...

وفوراً ، انقلبت نفسيّ وشعرت بحاجة الى الضحك ، ضحك على انفسنا . قلت :

– زياد ... ارجوك افهمني ...

– ماذا افهم ؟ انك تريدين الاّ اتحدث مطلقاً مع فتاة غيرك ؟ ان من واجبي ان اغمض عيوني حين تمر فتاة امامي ؟

ابتسمت بهدوء :

– يا سيدي ... انا لم ولن اطلب منك ان تجافي سوزان او غيرها ... انا لا اطلب شيئاً سوى ان تكون صادقاً معي ...

صرخ محتجاً :

– انا لم اكذب عليك .... متى تفهمين ذلك ... انا ...

قاطعتُه :

– لننس هذا الموضوع .... اقترب مني ، اريد ان اقول لك شيئاً ...

نظر إلي متعجباً ، متسائلاً :

ـ ماذا ... ماذا تريدين ؟

ـ لماذا تسأل ؟ اقترب ، سأقول لك ما اريد ...

حدجني ... مستفحصاً ؛ ثم حملته قدماه ، بالرغم منه ، صوبي . فوقفت قبالته ، والضحك يهزج في عيوني :

ـ ماذا تريدين ؟

ـ قبّلْني !

ذهل :

ـ ماذا ؟

ـ قبلني !

سأل ، حرداً :

ـ ... ولماذا ؟

ـ لانني اعرف انك تودّ ذلك ...

ـ لا ... لا ... انا لا اودّ ذلك ...

ضحكت من كبريائه وقلت :

ـ اذن ... انا اودّ ذلك ...

ـ قلتِ ان علاقتنا ستكون مجرد معرفة سطحية مجرد صداقة ... لماذا تغيّرين رأيك ؟ لماذا ...

قاطعته بخبث :

ـ انا لا اغيّر رأيي ... ولكن ... هل هناك مانع كي يقبل الصديق ... صديقته ؟

ومع انه حاول ان يظل جدياً الا انه لم يستطع ان يمنع

انبساط اساريره ، وغمغم :

ـ انت لا تطاقين ... انت مجنونة ...

وفي هذه اللحظة انبأنا الجرس بقدوم بقية الاصدقاء ؛ ابتسمت . لا بأس ، لن يبقوا طويلاً ، ولن ادع زياد ينصرف معهم .

سأبقيه عندي ...

سأخمد نار الحقد في عينيه ،

سأبرهن له ... ان فانوسي الأصفر الصغير لا تطفئه العاصفة ، وسأبرهن لنفسي ... انني قادرة على التناسي ... وعلى السماح ...

٩

سامحت ... فجرح السماح عزّة نفسي ؛

وتناسيت الحوادث المؤلمة ... فصار التناسي يحزّ قلبي وكأن الذكريات السود افاعٍ سامة ترفض ان اخنقها بالسلوان ...

وظل زياد يزورني ، لكن ضياعه المتزايد يوماً بعد يوم ضايقني واكد لي أنه لا يحبني ... وصرت انكر حتى عطفه الماضي ، وهل كان هذا العطف سوى اهتمام اظهره لي حين كنت وجهاً جديداً بالنسبة اليه ؟

كان يحدثني احياناً باقتضاب عن سوزان التي يقابلها في الشركة ؛ وكنت اعلم انه لا يحبها ، ولكنها كانت الوجه الجديد الذي قد يوحي اليه بشيءٍ ...

وكنت اشعر ، حين يكون معي ، بأن حرباً تقوم في

اعماقه ؛ كانت عواطفه تتضارب ، لكنه لم يتجرّأ على الاعتراف ، بل لم يدرك تماماً سبب ضياعه ...

اما انا ففهمت :

اصبح يشعر بمسؤوليته نحوي وهو يكره المسؤولية ...

اصبح ينوء بحبي الكبير لانه يعتقد ، خطأ ، ان مثل هذا الحب يحد حريته ، وهو يعبد حريته ! ويؤمن ان القوة تكمن فيها ... وان الفن يعظم فيها ...

كل هذه النقاط فهمتها ، ولكن نفسي ابت ان تتقبلها ! انه لا يفهم ان القوة انما هي العمق ، العمق في كل شيء ، وان سطحية الأحاسيس تجعل الفن سخيفاً سطحياً ، تبقيه كساقية جافة ...

انه لا يفهم ان الفن بحاجة الى حب عظيم ليصبح عظيماً وكالبحر ، كبيراً ، صاخباً ، هادئاً ، ملوناً بالوان السماء ...

ولكنني لم اشرح له الصواب ؛ فانا وحدي لن ادرك ما عجزت دونه تجاربُ الأيام .

برغم ذلك ،

كان يزورني كل يوم وكأن حاجة لاشعورية تدفعه اليّ ...

وكانت زياراته تؤلمني ، وكأنها قضبان حديدية تسطّر تحت آرائي خطوطاً مؤكدة ، وتنخز جروحي .

كان يسألني احياناً بغير مبالاة :

ـ ما اخبار ألفريد ؟

ـ لا شيء ... لم يكتب ...

فيقول :

– انا واثق من انه لن يأتي ...

وتجرحني كلماته ، وأعُضّ على شفتيّ وكأنني احاول هرس الاهانة بأسناني ...

واغيّر الحديث .

وفي ذات مساء جاء اليّ ، وكنت اعلم انه لم يأت إلاّ لأخذ كتاب نسيه عندي :

– اتريد قهوة ام شاياً ؟

– شكراً ... ليس لدي الوقت الكافي ... مررت لاراك بضع ثوان ... فأنا مدعو عند صديق لي للعشاء ...

– كما تريد ...

وجلست ، احاول باحاديث تافهة ان اخفف من ثقل الجو الذي يلفنا ؛ جوّ نسجه ضياعه ... ويأسي ... ودخلت دنا تقول :

– آنسة ريم ... وصلت برقية ...

امسكتُ البرقية بيد مرتعشة ، وقرأتها بصوت مرتفع :

« سأكون في بيروت في السابع من كانون الثاني وسأقيم معكم بضعة اشهر ، قبلاتي لرانية ولك ...

ألفريد »

وقعت كلمات البرقية علينا وقوع الصاعقة !

ألفريد ... في السابع اي بعد خمسة أيام ؛ قلت متهكمة

والابتسامة الصفراء تزم شفتي :

– نعم ... انتهى كل شيءٌ ...

غمغم بانزعاج :

– ولكن ... بضعة شهور ... لم نكن نتوقع ذلك ! كان المفروض ان يأتي لبضعة أيام !

وامتقع وجهه ، ثم ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة وقال :

– ارجوك ... الآن ارحب بفنجان من القهوة !

سررت قلبياً لانزعاجه ، ورحبت بقدوم ألفريد لعلمي انني سأقاطع زياد ...

هذه القوة التي لا اجدهـا في نفسي ، قد اجدهـا في الظروف التي ستحيطني ...

وانتهى من شرب القهوة ، فانتصب واقفاً وهو يقول :

– لا بأس ... لا تنزعجي ... دعي الأمورَ تسرْ في مجراها الطبيعي ... هذا قدر ...

وجّه الي هذه الكلمات ، لان غرورَهُ ابى عليه ان يعترف بأنها موجهة الى نفسه ؛ وهزّ رأسه ... ومشى متثاقلاً نحو الباب ...

وقفت وحيدة ، واشعلت لفافة ، ثم اخذت ادور على غرف بيتي . سيعود ألفريد ، سيرى البيت مثلما تركه منذ سنين ، ولكنني أراه تغير كثيراً : هذا المقعد الأخضر ، مقعد زياد ... وهذه اللوحة التي يحب ... وهذا الفانوس

الأصفر في فجوة الطاولة السوداء ، في الركن ... هذا الفانوس الذي ظل وحده واعياً اجمل أيامي ...

والقيثارة ؟ لقد اعتنيت بها وكأنها طفلتي وحبيبتي واملي ...

كل هذه الاشياء مرتبطة بزياد ، وزياد بعيد عني ...

شعرت بنفسي وحيدة ؛ ناديت رانية وضممتها الى صدري ؛ سيعود ألفريد ، سيحمل اليّ الامان ، وسيرد لي كرامتي التي جعلت منها لعبة في يديّ زياد .

لا ... لن اعترف له بشيء ؛ سأحاول ان اجد فيه الصديق والرفيق ؛ يا مرحباً برجوع ألفريد؛ انه يعود في الوقت المناسب .

قاربت الساعة الثامنة ، فولجت غرفتي ، احاول القراءة . ولكن انفعالي الداخلي منعني من تفهم اي شيء ، وسرح تفكيري الى البعيد ؛ سيعود الرجل الذي يحبني ، وسيذهب الرجل الذي احب !

وابتسمت بسخرية ، ورددت بيت الشاعر بصوت مرتفع منعني من سماع طرق خفيف على الباب :

« جننا بليلى وهي جنت بغيرنا ... »

وانتبهت لدخول دنا ؛ قالت بتعجب :

— هل تحادثينني ؟

ضحكتُ :

— لا ... احادث نفسي ! ماذا تريدين ؟

— الاستاذ زياد في القاعة ينتظرك ...

– زياد ؟

اسرعت اليه :

– لماذا لم تخبرني انك ستعود ؟

سكت قليلاً ... ثم قال :

– لانني لم اكن ادري انني سأعود !

واخذ يروح ويجيء ... بعصبية ، ثم وقف وقال :

– ألا ترحبين بي ؟

ضحكتُ :

– اهلاً وسهلاً بك دائماً ... انت تعلم ذلك ... ولكن ... في اية ساعة ستذهب الى سهرتك ؟

– سهرتي ؟ آه ... مع الاصدقاء ... لقد نسيت ! ذهبت الى البيت ودخنت سيجارة ، وعدت الى هنا دون تفكير ... حقاً ... يجب ان اذهب الى السهرة ... ولكن ... لا ... انا لا اود ان ارى الاصدقاء ... لا اودّ ان ارى احداً ...

وفعلاً ...

نسي سهرته ، ونسي حتّى ان يعتذر ، وبقي جالساً على المقعد الأخضر ، يفني افكاره في لفافاته المتلاحقة ... ويقول بين الحين والحين بلهجة المزاح المصطنع :

– اذن ... سيعود الرجل الثاني ...

فأردّ ضاحكة :

– عرفته قبل ان اعرفك يا زياد ...

واخيراً ، وقد ضايقني ضياعه ، وأتلفني دخان شعوره

في دخان اللفافات ، اقتربت منه ... ورفعت يدي امسح جبينه ، واحاول ان أمزق غشاء الضياع الذي يحجب تعابير وجهه . قال

– ريم ... انت على مقربة مني ، لكنني اشعر بأنك اصبحت بعيدة ... اشعر بأنك شبح يهرب مني ... اشعر بأنك تتسربين من خلال اصابعي ، ولا استطيع ان افعل شيئاً وكأنني امسك رمالاً ، ولا استطيع ضمّ انامِلي ...

ليته فهم ان الرمال تتسرب من اصابعه لانه لا يملك القوة والارادة لضمّ هذه الأصابع . وكيف يضمها وهي عطشى الى رمال جديدة ؟

سوزان ، هي الرمال الجديدة التي ستنضم عليها الأنامل لمدة ... لتنفرج حين تجد غيرها ...

وفكرت في سوزان ؛ انها احسن مني . انها جميلة ، ومثقفة ، وتتبوأ مركزاً مرموقاً في المجتمع ...

انا لم اكمل دراستي ، انا لا اعمل ، وحياتي كلها ريشة تتقاذفها نظرات زياد ؛ تعليها الى السماء ، وتقذف بها الى اعماق الجحيم ...!

ولكن ...

هل يتركني زياد ، انا التي افهمه ، لأن سوزان احسن مني ؟

لا ... لا ...

ليس من الذكاء والقوة ان يحب الرجل امرأة احسن من التي عنده ؛ فاجمل امرأة في العالم تجد من هي اجمل منها ،

واذكى امرأة في الدنيا تجد من تفوقها ذكاءً ... هي سلسلة لامنتهية ... بل دائرة لا تتصل وتصعد دائماً ،

الذكاء والشخصية هما ان يعرف الرجل كيف يحتفظ بالتي تناسبه ، وان يضمّ انامله بشدة على الرمـال التي تفاهمت وبشرة يديه ...

وزياد لن يقدّر ذلك الا حين يفقدني ...

فبعدي ... كل الرمال ستخدش راحتيه ...

انا مسرورة لرجوع ألفريد ...

*

جاء في اليوم التالي ، وكنت في المَطْبخ اهيئ فنجاناً من القهوة .

جلس على الكرسي الصغير :

ـ اتعلمين يا ريم ؟ سافتقد هذا المطبخ الأليف

واردف بعد لحظة ، وكان في صوته لحن حنين :

ـ ان الأيام التي قضيناها كانت جميلة ...

ثم وقف واقترب مني ، وانحنى يهمس في شعري :

ـ لم احب فتاة مثلما احببتك ... ان عاطفتي نحوك غريبة جداً ... غريبة ... لا أفهمها ...

وابتعد فوراً ، وكأن اعترافه ازعجه ، ثم دمدم حزيناً :

ـ بعد مجيءُ ألفريد لن يتسنى لي ان اراك ...

– كيف ؟ انت صديق يا زياد ، هل سأمتنع عن رؤية اصدقائي ؟

– لا ... انا لن ازورك يا ريم ... انا لا استطيع ... لا ... انا لي كبرياء ...

شعرت فجأة بكره لألفريد . لماذا يعود ؟ الم اخبره من قبل بأنني لن اتزوجه ؟ انا لا استطيع ان اتخلى عن زياد ... انا بحاجة الى عطف ، وزياد هو الذي يستطيع ان يعطيني مثل هذا العطف ؛ ونسيت يأسي ، نسيت ان زياد لا يريد ان يحبني بل يحارب حبّه ، نسيت شوقه الى الوجوه الجديدة ، نسيت ذكرياتي السود ، نسيت كل شيء ولم اعد اذكر سوى ذلك العطف القديم ...

وارتميت مرتعدة بين ذراعيه ، وتمسكتْ يداي الصغيرتان بكتفيه ، واغرقت رأسي في صدره واجهشت بالبكاء ؛ ارتبك :

– ريم ... ريم ... لا تبكي ... من يدري ؟ قد تتفقين وألفريد،وتسعدين ... لا تيأسي ، استقبلي الظروف بابتسامة . فقد تحمل لك السعادة ...

كم تمنيت لو يقول لي :

« لا تستقبلي ألفريد ... اخبريه انني احبك ... انا دائماً معك ، ولا يستطيع احد ان يفرق بيننا ... »

لم يقل شيئاً من هذا ، وازداد بكائي ، ولم يفهم :

– ريم ... ارجوك ريم ... ما معنى هذا البكاء ؟ يجب

ان تكوني قوية ، يجب ان تتابعي دراستك ... وتكتبي الشعر ... لا تقتلي مواهبك باليأس ثم ... حاولي ان تتفقي مع ألفريد ... ربما سعدت ...

ليته علم ان نصائحه تجرحني ، وانها جعلتني في تلك اللحظة اكره الفن ... الفن الذي غدا رخيصاً ... الفن الذي زاحمني وربح حبّه ... الفن الذي جعل من هذا الشخص إنساناً معدوم الشعور ...

ليته شعر بأن هذه اللحظة كانت ملكاً له ، وفهم ان باستطاعته ان يتصرف بها وبحياتي مثلما يشاء ...

لحظة لم يشعر بقدرتها ...

فرصة ولت ، ويوم مضى ، وكل شيء الى زوال ...

١٠

ـ انتِ تسعلين ... انت لا تعرفين كيف تعتنين بصحتك ! يجب ان تبقيْ في فراشك ...

ضحكت :

ـ انه التهاب الجيوب ، وزكام بسيط ... مرضي تافه لا يستطيع ان يلزمني الفراش ... ثم ... هل اظلّ في الفراش يا زياد ، ولم يبق لنا الا ثلاثة ايام نقضيها معاً ؟ سنشرب « الشامبانيا » وسنسهر كل يوم حتّى الفجر ...

قال بغير اكتراث :

ـ انا مسافر غداً الى بيروت ...

فغرت عينيّ منزعجة ، ثم تذكرت . قال :

ـ الم اخبرك منذ اسبوع ان موظفي الشركة كلهم مدعوّون

الى حفلة ساهرة في بيروت ... هل نسيت ؟

نعم اخبرني ! وهل انسى خبراً اسهد ليالي ؟

اخبرني . وأبت كبريائي ان اظهر انفعالي وانزعاجي ؛ وكيف لا انزعج وانا اعلم ان زياد سيذهب الى السهرة خصيصاً ليجتمع بسوزان ؟

نعم اخبرني ، وظللت آمل أنه سيضحي بسهرته معهم ، من اجلي ...

قلت متلعثمة :

ـ اذن ... لن أراك بعد اليوم ؟

تنحنح وقال :

ـ ما هذا الكلام ؟ طبعاً ... طبعاً سأراك ...

غلت افكاري ؛ انا سأذهب الى بيروت بعد ثلاثة أيام لاستقبال ألفريد ، ما الذي يمنعني من الذهاب قبل هذا الموعد ؟ مرضي ؟ آراء الأهل ؟

طبعاً يجب ان اهيئ بيتي لاستقبال ألفريد ، ويجب ان احتمل وجود الاصدقاء عندي هذه الأيام الثلاثة ، ففكرة رجوع غائب تجمع دائماً أفراد الأسر ...

ولكن ...

ما همني مرضي ؟ ما همني ما سيقول الأهل ؟ ما همني انتقادهم ؟ لم يبق سوى ثلاثة أيام ... ثلاثة أيام فقط اقضيها مع زياد ...

لا ... سأرمي الدنيا ... سأسافر الى بيروت ... وليحل

الخراب في حياتي بعد ذلك ...

قلت بفرح وطفولة :

– زياد ... الحفلة ستكون في مساء الغد ، سأذهب انا الى بيروت بعد غد ، ونقضي اليومين الباقيين معاً ...

ورفعت نحوه نجلاوتين زاد في صفائهما سرورُ الطفولة ، سيقدر تضحيتي ، سيرحب بفكرتي ، سيفرح مثلي ... ولكن ...

حلّ الذعر مكان الفرحة في عينيّ ، وذهلتُ حين صرخ في وجهي :

– لا ... لا ... انت مروّعة ! لماذا لا تتركين لي حرية في تصرفاتي ؟ انت تضعين حولي الدوائر ، تحاولين صياغة حدود لحياتي ... لماذا تريدين ان تضيّعي عليّ الفرص الذهبية ..

تفجرت ذرات جسدي بالاسى ، وتقلصت شفتاي ، وغدت عيوني صلاة ... ورجاءً ... واستجداءً ... :

« ارجوك زياد ... استجديك ... لا تدس آخر حجر من هيكل كبريائي ، رميته عند قدميك ... استجديك ... لا تحطم هذا التمثال الرائع الذي بنيته لك في قلبي ... ارجوك ... كفّ عن الكلام ... لا تدعني أر هذا الاله الذي عبدتُ ، يهوي الى مستوى احط البشر ... ارجوك ... اشفق على آمالي ... وترفق باحلام سقيتها من عيوني ... استجديك زياد ... »

لم يحسّ ، ولم يفهم ، وظل يتابع بصوته الفاتر ولهجته

الباردة القاتلة ، وكأن ما يقوله شيّ عاديّ وكلام طبيعي :

ـ انت لا تقدرين انني فنان ، انك تحطمين في بوضعك الحواجز حولي ... من يدري ؟ قد تخلق لي الظروف اشغالاً ... في بيروت ... قد ... قد لا استطيع ان أراك مطلقاً هناك ... انك تختلقين خططاً كي لا تدعيني أتنفس ... انت انانية ، لا تفكرين الا في لذّتك الخاصة ، يجب ان تتفهمي الحياة ... لكل منا مشاغله ... سيعود ألفريد ، وستذهبين في طريقك ، فلماذا لا تدعينني اذهب في طريقي ؟

كانت كل كلمة يتفوه بها تهوي كالمطرقة على اعصابي ؛ كلمات وكلمات ....

بنيت له عرشاً في قلبي فطوّحت به كلماته ، ورأيت الاله يهوي الى التراب ، ويتحطم ، ويصبح رماداً ... رماداً قذراً ...

لا ... لا استطيع ان اصدق ! ان زياد غير هذا الرجل الذي يتكلم ؛ زياد نبيل ، زياد مرهف الحسّ ... وهذا الرجل رخيص ... رخيص .... رخيص ...

اردف بنفس اللهجة الفاترة :

ـ وانت مريضة ، لكنك لا تفكرين في شيْ ولا حتى في صحتك ... الطقس بارد جداً ، يجب الاّ تغادري فراشك

حاولت بلحظة ان أُلمِم كل اعصابي ، وبجهد جبار جمعت فتات ارادتي لاقول بلهجة لم استطع برغم جهودي ان اجعلها طبيعية تماماً :

– لكَ الحق ... الأحسن الاّ اذهب الى بيروت .

ونسي محاضرته القيمة ، ولم يحس بأن كلماته هشمتني ، وقال :

– انتبهي لصحتك يا ريم ... لا تدخني ... ولا تعرضي نفسك للبرد . لن ابقى في بيروت سوى ليلة واحدة وسأراك حال عودتي ... تصبحين على خير يا ريم ...

وخرج من غير اكتراث ، ونظرت الى الباب يطبق ، ساحقاً اغلى امانيّ ...

بقيت واقفة ، عاجزة عن عمل اي شيء ؛

هذا الرجل الذي ضحيت من اجله بكل ما عندي ، كان يجب عليه على الاقل ان يكون مهذباً ...

وفجأة ، اخذت ابكي بكاءً عصبياً ، وارتفع عويلي وكأنني اردت ان املأ الغرفة والبيت بأساي . كان قلبي اضعف من ان يحمل وحده هذا الألم ؛

وفي الحقيقة لم اكن ابكي على زياد ... بل على نفسي ...

لست ادري كم من الوقت بقيت على هذه الحالة ، وجاء الليل بسواده وهدوئه وعذابه يضمني ؛ الليل يضخم دائماً كل شيء ، ويطول ... يطول على اليائسين ؛ وازدادت حالتي سوءاً ، وازدادت اوجاع صدري ورأسي ، وجفّ سعالي ، وزاد في مرضي الجسدي ، كرهي لشخصي ؛ كرهت عاطفتي لأنها جعلتني رخيصة ؛ كرهت ضعفي ، لأنه ادمى كبريائي

واذلّني ... كرهت خيالي ، لانه صور لي الحقيقة على غير ما هي ... وكرهت نفسي لأنها تدنت ، وانزلت الحب الى مستوى مفاهيم هذا الرجل ...

ومرّ عليّ الليل الأليل ، كانت ثوانيه طويلة ، ثقيلة ، مرهقة ، كنت اغط في سبات عميق ، واستيقظ فجأة ، مرتجفة ، مذعورة ، هلعة ...

وفي الصباح ، فتح باب غرفتي ، ودخلت ناديا :

– ما بك ؟ اخبرتني دنا انك مريضة ... يا الهي ... ماذا جرى لعينيك ؟ هل انت تبكين ؟

– لا ... انا مريضة ...

واخترق السعال كلماتي :

– ماذا فعلتِ بنفسك ؟ هل جاء الطبيب ؟

– لا ... لا اريد طبيباً ...

وضعتْ راحتها على جبيني :

– حرارتك مرتفعة ...

واقتربت من الهاتف وادارت رقماً وتكلمت ، وعادت لتقول :

– سيأتي الطبيب بعد قليل ...

– لا اريد طبيباً يا ناديا ...

– ريم ... انهضي ، واغسلي وجهك بمياه باردة ، ثم اخبريني ماذا جرى ؟

رفعت نحوها عينين اضناهما السهد والدموع ، وقصصت

عليها لاول مرة بصراحة تامة الحوادث الأخيرة ؛

استمعت اليّ بهدوء ، ثم قالت :

– ومن اجل هذا تتركين المرض يستولي على جسدك ؟ اين عقلك ؟ اين منطقك ؟

– يا ناديا ... اشعر بأن هناك سكاكين تقطع قلبي ...

– انت تتألمين لاشك ، ولكن ... لا بأس ... الالم يبلور الشخصية ... ستقويك الجراح ، وستصبحين امرأة ناضجة ، تعرف وتفهم ما تريد

صرختُ :

– ولكنني لا اريد ان اصبح قوية وناضجة ...

– ارجوك ريم ... لا تتكلمي كطفلة غبية ... هذا ضعف ، وانا لا احب الضعفاء ... هيا انهضي ، واغسلي وجهك ... يا ريم ، حين يتألم الانسان يعتقد ان مشكلته هي اكبر مصيبة حلت في الكون ... ومشكلتك انت تافهة ... مشكلتك تجري كل يوم وكل ثانية في بلادنا

واردفتْ متأسفة :

– هي قصة شرقنا ، ومشكلة شرقنا بكامله ...

نظرتُ اليها متسائلة ، فشرحتْ :

– نعم ... هي قصة الفتاة الشرقية التي لا تعرف شيئاً من الدنيا ، فتنقاد لعاطفتها ، وتصب حياتها في وجود رجل ! الفتاة التي تحب بكل قلبها وروحها وجسدها ، فتعيش حلماً لمدة وجيزة ، وتستيقظ فجأة ليصدمها الواقع ... الفتاة التي

ترى حبيبها كما يصوره لها الخيال وعندما يظهر الحبيب على حقيقته تسحقها المفاجأة ... نعم ... قصتك هي قصة شرقنا ؛ قصة الرجل الذي يعاني الحرمان ...

قاطعتها محتجة :

– ولكن زياد ليس محروماً ... لم يكن يوماً محروماً

هزّتْ رأسها وقالت بهدوء :

– ريم استمعي اليّ ، وافهمي ما اقول ؛ ان زياد مثال الرجل الشرقي ... انه ليس محروماً لانه يريد ان يعتقد انه ليس محروماً ! ان رواسب الشرق تنخر في اعصابه ؛ وليس ضياعه ، ومغامراته الكثيرة الا نتيجة ذلك ... انه تائه ، يركض دائماً ، باحثاً عن وجوه جديدة ، لانه في الحقيقة ، لا شعورياً يحاول ان يهرب من نفسه ... يحاول ان يبرهن انه ليس محروماً ... لانه يعرف ان الحرمان ولد معه وفي ذراته ... تقولين انه عاش في اوروبا ، كيف أفهمك يا ريم ان حياته في اوروبا زادت في مرضه ؟ لانه فهم كم يعاني شرقنا ... فهم ان الحرمان هو مرض رجالنا ... نعم ... رأى ... وفهم...

وسكتتْ ، ثم قالت بترفع :

– فهم كل شيْ ، ولكن للاسف ، لم يفهم ان النبل والكبرياء يقضيان بأن يكتم الانسان جوعه ... حتى لو كان خائراً ...

ودخلت دنا ، تحمل القهوة ، فاخذت ناديا فنجاناً وقدمته لي وهي تقول مبتسمة :

– لقد اخبرتك دائماً يا ريم ان مصيبتك هي خيالك الواسع ؛ دعي خيالك للشعر ، وانظري الى الحياة بمنظار الواقع ... اشربي قهوتك ، وابتسمي ... هل يستحق رجل ، ان تمرضي من اجله ؟ ان تيأسي ؟ ان تحطمي نفسك ؟ وزياد ... زياد ... يا الهي ...

– يا ناديا ، لقد اعطاني زياد عطفاً كنت بحاجة اليه ...

صرخت متبرمة :

– اعطاك ؟ واي رجل تعطينه مثلما اعطيت زياد ، ولا يعطيك عطفاً ؟ انت التي اعطيت ... واعطيت ... والمرأة اذا اعطت ... لا تأخذ شيئاً ...

هززت رأسي وقلت بغباء :

– لقد خسرتُ !

– خسرتِ ؟ لا فقد ربحت تجربة ومعرفة ... ثم ... لماذا نتحدث عن الربح والخسارة ، وكأنكما في حرب ؟ انت لم تختلفي مع زياد ... انها مجرد كلمات رماها دون وعي ... كلمات حاول بها ، لاشعورياً ، الدفاع عن نفسه ... كلمات لم يدرك مرماها البعيد ... وهو الذي خسرَ ... لأنه نسي ان هناك حليفة قد تركته ... الا وهي ... الزمن !

– هذا كلام يا ناديا ... انا ضعيفة جداً ...

– انت الآن تتألمين ؛ ولكن زياد اضعف مما تتصورين ... زياد ليس قوياً يا ريم ، ولو كان فعلاً قوياً لما حاول بجميع الطرق ان يظهر بثوب الشخص القوي ... القوة الصحيحة

تنبع من الأعماق ، وليست ثوباً يرتديه الانسان ! ألا ترين يا ريم كيف انه يتمسك بأوهام ، وهم الحرية مثلاً ؟ لانه يعرف انه بدونها ضعيف ... ثقي انه عاجز عن تركك ، واذا كان لابد من الانفصال فانت التي ستضعين الحد الفاصل ...

– ماذا تقولين يا ناديا ؟ انا ارمي الدنيا لكلمة يقولها هذا الرجل ...

– نعم يا ريم ... انت ترمين الدنيا ... انت تضحين بكل شيءٍ ... وانت التي ستتركين ... ومن غير سبب ...

خيل اليّ للحظة ان ناديا قد جُنّت ؛ واردفتْ :

– على كل حال انا لست منزعجة من قصتك او آسفة عليها ... كان من الضروري ان يهزّك بعنف شخص ، لتستيقظي من ضياعك الدائم ... وتجدي نفسك ...

وفجأة ...

رن جرس الهاتف ! التفت للآلة ، مذعورة ... وتحولت نظراتي الى ناديا ؛ لماذا سمحت لها بأن تتحدث عن زياد ؟ لماذا اخبرتها كل شيءٍ ؟ لماذا وسخت اجمل ايامي ، لاخفف من عنائي ... والمي ؟

لماذا ...

ان زياد سيحدثني الآن ، سيؤجل سفره ، سيأتي ليجلس الى جانبي ... ويردّ اللحاف على صدري ... ويضع يده برفق على جبيني ...

وتوالى الرنين ، فطرت الى الآلة ، وسمعت صوته :

– كيف حالك ريم اليوم ؟ لقد التقيت صدفة بصديقنا الطبيب ، وقال انه ذاهب اليك ، وان حرارتك مرتفعة ... ارجوك يا ريم استمعي الى نصائحه ، وانتبهي لصحتك ... انا مُسافر الآن الى بيروت ... ساعود غداً ... انتبهي لنفسك ...

اجبته بلوْم :

– سأحاول ... شكراً لك ...

وقذفت السماعة على مقعدها ، ونظراتي ترجمها بنيران اللوْم والحقد والاسى ...

– أهذا زياد ؟ ألم اقل انه لم يجر شيءٌ بينكما ؟

زممتُ شفتيّ ، ونظرت الى ناديا والشرر يتطاير من عيوني !

مجرد سماع صوته يثير فيّ حاجة الى البصق على نفسي ... ... لا اريد ان يُذكر اسمه امامي بعد اليوم !

١١

قررت ناديا ان تقيم عندي حتّى عودة خالي سمير ؛ ولم يفارقني الأصدقاء ، وظلت حرارتي مرتفعة ، ونفسيّتي مهشمة ، طيلة يومين ...

واخيراً ، تمردتُ على مرضي ، وعلى يأسي ، وقررت ان اذهب الى بيروت بمفردي لملاقاة الفريد .

وصلت الى بيروت مساء السبت ، وكنت ادري ان زياد قد تركها في نفس اللحظة التي تركت فيها دمشق اذ ان الثلوج كانت قد سدت الطريق في اليومين الأخيرين ولم يستطع زياد العودة في اليوم التالي لذهابه كما كان من المقرر .

وحال وصولي ، خابرت عصام ، وطلبت منه ان يأتي

اليّ في الفندق لنأخذ العشاء معاً في احد المقاهي الكثيرة في بيروت .

حاولت ان اقنع نفسي بأنني دعوت عصام لمجرد انه صديق وانني وحيدة في بيروت ؛ ولكنْ صوت في اعماقي كان يكذبني ، ويردد بسخرية : « انت ما زلت تريدين ان تستمعي الى اخبار زياد ... »

وفي الساعة الثامنة جاء عصام ولاقاني بابتسامته الطيبة المخلصة :

– يا اهلاً ... اهلاً بك ...

– اهلاً بك يا عصام ... انا في مزيد الشوق اليك ... كيف حالك ؟

– كيف حالك انتِ ؟ ماذا جرى ؟ انا لا افهم شيئاً ...

– لم يجرِ شيءٌ ... لماذا ؟

حدقني ، متفحصاً مدى صدقي ، وسأل :

– اين زياد ؟

أجبته بغير اكتراث :

– لست ادري !

– انت لا تدرين اين زياد ، وتقولين انه لم يجرِ شيءٌ ؟

– وهل تعرف انتَ اين زياد ؟

– لقد كان هنا البارحة ...

– وهل رأيته ؟

– لا ... كان مشغولاً طوال النهار مع وزير الأعمال ؛

لكنه خابرني اكثر من عشر مرات ليسألني فقط إذا كنت اعرف عنك شيئاً ... فقد كان يعلم انك ستأتين الى بيروت ، وكان يريد ان يراك ...

ابتسمت ساخرة :

ـ حقاً ؟ الحمد لله انك جهلت قبل الآن انني هنا ...

ـ أنا متأكد انه قد جرى شيءٌ بينكما ...

ـ لماذا ؟ وهل اخبرك هو شيئاً ؟

ـ لا ... لكنني فهمت من اسئلته انه يتألم ... كانت لهجته غريبة ، وكانت نبرات صوته باكية ... وحين سألته عنك ، أجابني بالحرف : « يا عصام ... است ادري ما بي ... المرء لا يعرف قيمة الشيءُ الذي بين يديه إلا حين يفقده ... » ولم يعط تفاصيلَ ، بل رجاني ألا اتركك إذا رأيتك ...

حضنتْ افكاري هذه الجملة ، واحبّتها :

« المرء لا يعرف قيمة الشيءُ الذي بين يديه إلاّ حين يفقده ... »

تفجرّت هذه الحروف في رأسي ، ضياءً ...

وفجاة ...

شعرت بأن زياد فعلاً قد فقدني ، وأحسست براحة تهبط على كياني ؛ لماذا أنا تائهة وحزينة ؟ قصتي عادية جداً ، بل تافهة جداً ؛ لماذا أكره نفسي ... واحتقر نفسي ؟ أنا لم ارخص أبداً ...

انا احببت ... وسموت بعاطفتي ...

ولاول مرة ، شعرت بنوع من الصداقة في نفسي ... لنفسي ...

لست سوى امرأة احبت ... احبت بكل قلبها وذراتها وروحها ... امرأة احبت واعطت وضحت وتعذبت ... وببرهة ثانية ، تحول الاشمئزاز الذي يملأني الى حنين وحنو ، واحببت هذا الجرح الذي ينزف في قلبي ...

كان عصام يراقبني :

– فيم تفكرين ؟ وما معنى هذه الابتسامة الهادئة ؟ ماذا جرى ؟ لماذا افترقتما ...؟ ما عهدت زياد يائساً هكذا ...

بضع كلمات لفظها عصام :

« زياد يائس ... نبرات صوته باكية ... لهجته غريبة ... »

جمعت قليلاً من مبعثرات شخصيتي ، وردت لي الكثير من هدوئي ...

– اتعلم يا عصام ماذا قال ماكيافلّي؟ « الفرصة ، امرأة جميلة ، شعرها يتطاير الى الأمام ، ليخفي تحته عنقها ووجهها الجميلين ، فلا يعرفها او ينتبه لها احد من اللذين تتقدم اليهم ... وعبثاً يحاولون اللحاق بها بعد مرورها ، لانها تلبس في رجلها عجلة ... »

كان عصام يحملق فيّ ، متعجباً ، مستغرباً ، وأراد ان يتكلم ، فأوقفته :

– اسمع النهاية ، وستفهم ... حين يسأل ماكيافلّي هذه

المرأة الجميلة : « اخبريني ، من هو هذا الذي يتتبع خطواتك ويركض وراء ظلك دائماً ؟ » تبتسم ساخرة وتجيب : « انها التوبة ... لذلك كن حذراً ... فالذي لا يعرف كيف يمسكني لا يحفظ في قلبه غير الندم ... »

هزّ رأسه

– اعتقد انني فهمت ...

– كلنا بشر يا عصام ، والأقوياء بيننا هم الذين يقدرون الشيء وهم يملكونه ، هم الذين يلتهمون السعادة وهم يعيشونها ، لا الذين يندمون بعد فوات الأوان ... كل لحظة في هذه الحياة تحمل في ذراتها شعوراً خاصاً ، ولها قدرة خاصة ، وتتميز باشعاعها الخاص ؛ فيجب ان نقدر اللحظة في اللحظة ذاتها ، ان نعطيها قيمتها ومعناها الحقيقين ... ان نعيشها ، ونختلط بها ، دون ان ننتظر ... لانها تتغير ، فهي ، ككل شيء في الدنيا ، زائلة ...

جحظت عيناه :

– الله ... الله ... الله ... لقد اصبحت فيلسوفة ... والله حكاية ! تختلفين مع زياد ، فيصبح يائساً ، محطماً ... وتصبحين انتِ فيلسوفة ... هذا شيء مضحك !

ثم سأل بمكر :

– لنعد الى فلسفتك ! هل ... هل تعتقدين ان زياد قد ضيّع ... الفرصة ؟

انا ... انا اقرر إذا كان زياد قد ضيع الفرصة أو لا !

اذن ، في هذه اللحظة ، انا القوية ... انا التي اقرر !
لا ... لن اضعف ! قلت بحزم :

– ما بالك لا تتحدث إلاّ عن زياد ؟ سأخبرك اولاً لماذا جئتُ الى بيروت ... انا هنا لاستقبال خطيبي ألفريد الذي سيصل غداً في الباخرة

خيل اليّ ان عينيه ستخرجان من محجريهما ، وتدلت شفته السفلى ، وجمجم مشدوهاً :

– ألفريد ... خطيبك ؟

– ما الذي يدهشك ؟ انت تعلم ان ألفريد هو خطيبي ...

– ولكن ... ولكن ... لقد اخبرتني من قبل انك لم تعودي مخطوبة اليه ...

– انا لست مرتبطة به ولكن هذا لا يمنع من انه خطيبي ...!

رفع يده باعياء ، وحكّ رأسه متبرماً :

– من المستحيل ان افهمكِ ما حييت ...

– هذا ... من حسن حظك ... هيا بنا ... انا جائعة .

١٢

ماذا تحملين اليّ ايتها الأمواج ؟

لماذا تتخبّطين هكذا ، وتزمجرين ؟ ألا تدرين ان الموت ينتظرك على الشاطئ ؟

مسكينة انت ... ستتكسّرين ، وتتلاشين عند اقدامي وكأنك لم تتخبطي في عرض هذا البحر ...

وشعرت بانقباض ؛

انني اشفق على الامواج ، والاجدر ان تشفق هي عليّ ... انا اتخبط في عواطفي ، انا اكبر ، انا اهرم ، انا ازول ... وهي ؟ هل تموت فعلاً ؟

انها تُقتل كل يوم الوف المرات ، على الشاطئ ، لكنها تعود دائماً ... دائماً ... دائماً ... تائهة ، شاردة ، ساخرة

من البشر ، متمردة على الوجود ...

هذه الامواج ستخطّ بعد لحظات صفحاتٍ جديدة في كتاب زيارتي القصيرة لهذه الأرض ؛

ستخطها بدموعي انا ، لأنها لا تبكي . وهل يبكي من كُتب له الخلود ؟

وضاعت نظراتي في الافق ؛

نقطةٌ سوداء ، تخرج من العدم ، وتلوح هنالك ، في البعيد ... وتكبر ... وتكبر ... لتأخذ شكلها النهائي ؛

وارتعشتُ :

ان ألفريد على ظهر هذه الباخرة ...

ألفريد ...

وامتلأ قلبي حنيناً ، وحزناً ... ان ألفريد وحيد ، مثلي ... سنعيش معاً ، وسيظل كل واحد منا ، وحيداً ...

سأعاني الملل ، وسيملّ هو ولن نستطيع معاً ان نجعل من مللينا ، قلقاً واحداً ...

اعز ألفريد ، ومودتي له تؤلمني ، لانها ستُخنق ، بالرغم مني ، في المغناطيسية التي نشرها حولي حبي لزياد .

لابت نظراتي ، باحثة بين الوجوه البارزة ، خلف سور الباخرة ، عن وجه ألفريد ؛ وتعلقت على منكبين عريضين ، يلفهما معطف « سبور » نبيذي ، وارتفعت مع ذراعه التي اخذت تلوّح من بعيد ؛ ثم اقتربت هذه الذراع من الفم ،

وطُبع على الراحة قبلة ، نفخها ألفريد صوبي .

مددت يدي ، اتلقى القبلة السابحة في الفضاء ، وابتسمت .

اقتربت الباخرة ... واقتربت ، حتى اصبحت على بُعد بضعة امتار ، ورأيتُ ألفريد بقامته الجميلة ، يحملق فيّ ، ويلطم جبينه ، ثم يشير الى شَعري القصير ، مستنكراً ... ويخبئ عينيه بذراعه !

اخذ البحارة يركضون ، ورأيت العمال يشدون الحبال ... ويربطونها ...

واختفى ألفريد من وراء السور ، فتوجهت نظراتي الى السلّم ، ورأيته ينزل بثبات ، ويسرع نحوي ثم يقف ، قليلاً ، متردداً ...

ركضت اليه ، ففتح ذراعيه ، وعانقني ، وقبّل وجنتيّ برفق وقال :

– لم اتوقع ان اجدك هنا بانتظاري ... شكراً لك .

واقترب احد العمال ، يطلبه :

– ارجوك ريم ، انتبهي لهذه الحقيبة ، سأهتم بعملية تنزيل سيارتي الى الرصيف ...

وتركني .

بقيت واقفة ، احمل الحقيبة ، وانظر بغباء الى ما يدور حولي ؛ شعرت بحزن ؛ ان الحوادث تمر بي ، تحملني ، تتقاذفني ، تسخر مني ، وانا لا اندمج بها مطلقاً .

اتحمل سير الحياة بصورة طوعية ، دون رأي ، دون

عمل ، دون انفعال ...

ألانني تركت زياد ، أصبحت اعيش في شبه غيبوبة ؟

الأنني تركته ، اصبحت اعيش على هامش الحياة ؟

زياد ؟

هل انتهت فعلاً قصتي مع زياد ؟ اين زياد ؟ وبحثت عن طيفه ، فامتلأ فكري بالضباب ... وضاع سؤالي ... ولفّف الضباب كل الصور القديمة ...

وسمعت صوت ارتطام الامواج على جوانب الباخرة ... وارتطمت دموعي بالجفون ...

ستمحو هذه الامواج قصتي من الوجود ، ولكن ... هل تستطيع دموعي ان تمحو قصتي في قلبي ؟

والتفتّ ، لارى ألفريد منهمكاً مع العمال ، يعطيهم اوامره ، ويساعدهم في شد الحبال التي تربط السيارة .

اخذت أراقب حركاته ... وتصرفاته ...

تمايلتْ نظراتي امام هذه المشية النابضة كبرياءً ، ورضخت للنظرات الثابتة ، الثاقبة ، وابتسمتْ راضية للشباب الصارخ في كل كيانه ...

ما ابدع طلعته ... وما اجمل هذه الارستوقراطية الطبيعية التي تظهر في كل حركة من حركاته ...

ليتني ... ليتني كنت احبه ...!

وتنبهت على ان السيارة اصبحت على البر ، ودنا مني ألفريد يقول :

– هيا بنا يا ريم ...

وجلس خلف عجلة القيادة ، وألقى نظرة باسمة راضية ، الى وجودي الذي يملأ المقعد الأمامي ، ثم سأل :

– هل نذهب حالاً الى دمشق ؟

– يجب ان آخذ حقيبتي الصغيرة من فندق النورماندي اولاً ، وبعدها نذهب الى دمشق ، لأن ناديا ورانية والجميع ، بانتظارنا على الحدود السورية ...

لم يردّ ، ومدّ يده الى جيبه ، وقال :

– لم يعد معي سجائر

– لا عليك ... سنشتري سجائر ونحن في طريقنا الى دمشق ...

وفي طريقنا الى دمشق ...

– واخيراً ... واخيراً ... انتِ الى جانبي ...

وأخذ سيجارة ، فمددت يدي ، وانفرجت اصابعي ، متلهفة ، لمعانقة الصديقة البيضاء ، وقلت :

– الا تقدم لي سيجارة ؟

قال بصورة عفوية :

– معذرة ... لم انتبه ...

تأملني وانا اسحب اللفافة ، فأزنرها باصبعي ، ثم اقربها من الشفتين المشوقتين ؛ ابتسم بعطف :

– انت تدخنين ...

قلت ، وانا احاول ان تكون لهجتي لامبالية :

– تعلمت اشياء كثيرة في غيابك ...

قال بهدوء :

– علوم التجارب تنفع دائماً ... وكانت تنقصك التجارب

رفعت نحوه عينين معاتبتين ، فاضحكته نظرتي ، وأردف :

– ... واعتقد انها ما زالت تنقصك !

تراءت لي حالاً اشباحُ قصتي ... قصة زياد ، وشعرت بالامتقاع يكسو وجهي ... فحاولت ان اخفي ارتباكي وقلقي ، بضحكة ساخرة ، رنانة ...

دمدم :

– لم تتغيري ... يا الهي ... هذه الضحكة ... لقد كانت دائماً ترنّ في أذني ... والآن ... الآن ... انت هنا ... تضحكين ... منذ سنتين وانا انتظر هذه اللحظة ...

انزعجت .

هل يحبني ألفريد ؟ كنت اعتقد انه قد نسيني ... كيف يحبني ، وانا لم افكر فيه مطلقاً كل هذه الايام ؟ لا ... لا اريده ان يحبني ، لا اريد ان اجرح شعوره ، لا اريد ان احطم آماله ، لا اريد ان يشكل وجودي خيبةً في حياته ...

لا ... لا اريده ان يحبني ، فحبه يُشعرني بانني مذنبة !

– فيمَ تفكرين ؟ لماذا تركتِني وحيداً بين افكارك ؟

ابتسمتُ :

– انا هنا ...

قال بلهجة طفلة :

– ليس من العدل الاّ يجد شوقي اليك ، صدى في نفسك ..

تأثرتُ :

– انا مشتاقة اليك ... ولكن ... اترك لي مجالاً كي اظهر لك شوقي ... انا حتى الآن لست متحققة تماماً من انك الى جانبي ...

ضحك :

– تعاليْ ... اقتربي مني ... فانا ايضاً اكاد لا اصدق انك ... انتِ ... انتِ الى جانبي ...

تصارعت افكاري :

ان ألفريد يطلب اليّ ان اقترب منه ، كما كان يفعل في الماضي ...

هل ارفض ؟ واجرح شعوره ؟

لماذا لا ادنو منه ؟ لماذا لا ادعه يلف كتفي بذراعه ؟ لماذا لا ادع شفتيه تسكبان حرارة على خدي الممتقع ؟ لماذا لا ارمي همي وضعفي ، واخفيهما في هذا الشباب المتحمس القوي ؟ فأجلس الى جانبه ، وننظر بعين واحدة الى الطريق اللامتناهي امامنا ...

دنوتُ ...

فجاءت نظرة عطوف ترحب بي ، وامتدت الذراع تحيط كتفيّ ...

وتوقف مارٌّ عن السير ... ونظر الينا !

ما همني هذا المار ؟ سيرانا الناس ملتصقَين على مقعد السيارة ، وسيبتسمون ! لن ينتقدني احد الآن ! لان ألفريد خطيبي ... لأنهم لا يقدرون انها نذالة ورخص ، ان اكون بين ذراعيّ خطيبي ، وانا لا احب خطيبي !

لأنهم لا يفهمون ان الارتباطات الاجتماعية ليست كافية ، لتولد منها الأخلاق الصحيحة .

انهم يبيحون لي كل شيءٍ الآن ، لمجرد ان المجتمع فهم ان ألفريد خطيبي ... ولن يفهم احد ، انني اخون لا زياد فحسب ، بل اخون نفسي ، ومفهومي للأخلاق الصحيحة ، وانا بين ذراعي ألفريد ...

– خبريني عنك ... خبريني ماذا فعلت كل هذه الأيام ...

اجبته متهكمة :

– حاولت ان اعيش ...

خيل لي ان جملتي تُكتب على خطوط نظراته الثابتة ، وتتلاشى فيها ... ثم سأل :

– وهل نجحتِ ؟

فهمت خطورة الجواب الذي سأعطيه ، فرفعت اكتافي دون مبالاة ، وقلت :

– الحياة تافهة مهما فعلنا ...

– انت دائماً تنقمين على الحياة ... الحياة جميلة ، الحياة لعبة يا ريم ... ويجب كي يعيش الانسان ان يعرف

كيف يلعب ...

– لا ... مهما فعل الانسان ، فإنه يبقى اضعف من قدره ...

رماني بنظرة حنون وابتسم :

– نسيت انك شرقية ... تؤمنين بالقدر ...! انا ما زلت اؤمن بأننا نخلق اقدارنا ...

سكتّ ... فقال مازحاً :

– وهل السكوت من جملة الاشياء التي تعلمتها ؟ كان لسانك لا يركن في حلقك ...

اغرورقتُ بالضحك ، واغرورقت عيناه ... بالحنين :

– هذه الضحكة البديعة ... هذه الضحكة دائماً ... ريم ... انت لم تفارقي مخيلتي قط ... وضحكتك كانت تؤرق لياليّ

ولحظني ، وقطّب وجهه ، معاتباً ، ساخطاً :

– كنت معي دائماً ... ولكن ... كنت معي بشعرك الطويل ؛ لماذا قصصته؟ أليس من الجنون ان يقبح المرء نفسه ؟

قلت ضاحكة :

– سيعجبك بعد أيام ... ستتعوده .

وضاعت ضحكتي في هدير المحرك ...

١٣

كان بيتي يغصّ بالاهل والاصدقاء ، وكان ألفريد يحدث الجميع ويضحك مع الجميع ، ولكن عينيه كانتا تصبان عليّ انا كل اهتمامه ...

واعجبت بحديثه الانيق ، وبصوته الرزين ، وكأنني انتبه لهما لاول مرة .

وحين سمعت جدتي تقول لدنا : « أرأيت ما اجمل طلعته ؟ انه عظيم ... عظيم ... » شعرت بفرح ؛ واقتربت ليلى توشوشني :

– يا ريم ... لو كنت مكانك لتزوجته حالاً ... ان هذا الرجل ساحر ... ساحر ...

كل هذه التعليقات دغدغت غروري ، واطربتني ؛

وتمنيت لو يبقى الاصدقاء معنا ، فنظل ضائعين بينهم ، ولا ننفرد مطلقاً ... ولكن ، حين قاربت الساعة العاشرة ابتدأوا ينسحبون ، واحداً تلو الواحد ، الى ان هدأ الجو ولم يبق سوى ناديا وألفريد وانا .

ومع ان ناديا تعلم بأنني احب زياد ، وان شعوري نحو ألفريد لا يتعدى المودة ، فقد شعرتْ بثقل وجودها فاعتذرت بلباقة ، وانسحبت هي الاخرى الى غرفتها ، تاركة وراءها ... جواً مرتبكاً ...

بذهاب الجميع ، انهار غروري ، وتلاشت مودتي لالفريد :

فجأة ، لم اعد اشعر بظرفه ، بل احسست بانقباض ؛ انا وحيدة مع رجل ! انا مدفوعة ، ومشجعة لأن ارتمي بين ذراعي هذا الرجل ...

ونقمت على ناديا ؛ لماذا تركتنا وحيدين ؟ لاشك انها مرهفة الحسّ ، ولكن ...

أهي ايضاً كالآخرين تعتقد انه شيءُ طبيعي جداً ان اخلو بخطيبي ؟ خطيبي الذي لا احب ؟ اهي ايضاً تدفعني الى ذراعيه لأن الناس لن يروا في ذلك عيباً ؟

دنا مني ... وامتدت الذراعان ، توشكان ان تعانقا كتفيّ ... واحسست بأنفاسه تغمر وجهي ...

لا ... لا ...

لن استطيع ان يقبّلني ... كيف يقبلني رجل لا احبه ؟ كيف احكم على شفتيّ بالفناء في صقيع شفتيه ، وشفتاي

لا تعيشان إلاّ في الدفء ... وهل يوجد الدفء إلاّ في شفتيّ زياد ؟

كيف أرضى ان تلفّني ذراعاه ، وجسدي ينتفض نشوان لطيف زياد ؟

كيف اشعر بنيران شبابه ، وقلبي ما زال محترقاً بذكرى زياد ؟

لا ... لا ... انا لا استطيع ان اجزئ كياني ... انا لا استطيع ان اكون ملكاً لرجلين ...

رجعت قليلاً الى الوراء ، فجاءت الذراعان تعيداني قريباً من الشهوة الضارمة ... وهمس :

– ريم ... اكاد لا اصدق انك انت بين ذراعي .

اذا كان فعلاً يحبني ، فلماذا لا يدع لي مجالاً من الوقت كي يزداد اعجابي به ، فأحاول من جديد ان احبه ... واستقبل قبلاته حينذاك ... بشوق ؟

وبرمت من تصرفه ! ماذا ... ماذا يجول في خاطره ؟ أيعتقد أن باستطاعته ان يقبلني في اية لحظة يشاء لأنني خطيبته ؟

الا يهمه ان يعلم ماذا فعلته خطيبته طوال هذه الايام ؟ هذه الايام التي لم يكتب لها فيها اية رسالة ؟

ألا يهمه ان يعلم اذا كنت احبه ؟

ايعتقد انني امرأة تافهة ، انني دمية اشتراها بهذا العقد الزائف : الخطبة ! دمية وضعها على رف من رفوف مكتبته ، وأهملها ، وترك الغبار تمحو معالمها ، ثم دفعه

الشوقُ من جديد اليها ، فعاد يلهو بها لأنه توهّم ان الخطبة جعلتها ملكاً له ! لانه توهم ان آراء الجميع تُلبس هذه الدمية ثوبَ الطاعة والانقياد !

كيف لا يفهم ان لي كرامة ؟

اذن ، ألفريد يتصرف ككل رجالنا ... انه مثل زياد ! يعتبر المرأة نبعاً عذباً يشرب منه حين يشاء لا حين يفيض النبع ... ويبتعد عنه حين يشاء ، لا حين يشحّ النبع ..؛ ويهيل عليه التراب حين يشاء ، لا حين ينضب النبع !

كيف لا يفهم ان المرأة بحاجة الى رعاية وعناية كي تصبحَ نبعاً فياضاً يعطي دائماً حناناً ... وحرارة ... وحباً ؟

كيف لا يفهم انها وردة يجب ان تُسقى كي تغمر ساقيها بالعبير ؟

ارتعد جسدي ، وارتجفت شفتاي ! لا ! انا لست دمية تشرى بالارتباطات الاجتماعية !

انا لست منهلاً يرشف منه شخص لا أحبه ، لان المجتمع اباح له ذلك !

انا عالم قائم بذاته ... تتحكم فيه عواطفي وآرائي ؛ انا انسانة لي روح وشعور ؛

اريد رجلاً يسكب الدفء في قلبي ، فأغمره بحرارة قبلاتي ...

رجلاً ، يلملم مبعثرات روحي الشاردة ، في قارورة عطفه ، فأشعل دنياه بنيران عالمي ...

لا ... لن يقبلني ألفريد ...!

رجعت بعصبية الى الوراء ، وعلامات الاشمئزاز ، والرفض ، والاسى ، تتتابع على وجهي ...

شُقت الهوة بيننا !

وامتلأت ذرات الجو بالكهرباء ، لكنني لم ابال ، فليكن ما يكون ... لن اسمح له بأن يقبلني !

سيثور ... سيحقد ... سيكرهني ... سيزيد الهوة عمقاً ...

لا ...

لا شيءٌ من كل هذا !

كان لنفوري تأثير غريب على تصرفاته ؛

رأيت امواج الدماء تتخبط على وجنتيه ، لتموت على شاطئ كبريائه ؛ ويكسو الامتقاع الوجه الانوف ...

ثم تتحول النظرات ، التي لم يزعزع ثباتها الارتباكُ ، فترتمي على علبة السجائر ... وتمتد اليد ، لتأخذ بعصبية سيجارة ، تعانقها الشفتان المزرقتان ، فتحرقان معها القبلة الحائرة اليتيمة ...

وامسك عود الثقاب ، لكنه تذكّر ، فقال . والابتسامة الباهتة ، هالةٌ على رأس العروس البيضاء :

– عفواً ... انا دائماً انسى انك تدخنين ...

واشعل السيجارتين ، وسحب نفساً طويلاً ، ثم سأل بلهجة طبيعية وناعمة :

– هل رأيت الاسطوانات التي حملتها معي ؟ هل تودين

الاستماع اليها ؟

احترمته ...

احترمت قوة اعصابه ، وكبرياءه ، وشعرت بالهوة تردم ، ليتمدد بيننا نوع من الصداقة ، فابتسمت وانا اقول :

– بكل سرور ...

وبقينا ساعات نتلف الليل بالألحان ... وبدخان السجائر ...

*

اجبرت نفسي في الأيام التالية على القراءة ، ومتابعة الدروس ، وكانت تساعدني على ذلك روئية ألفريد دائماً منكباً على كتبه ، ودفاتره ، او مجداً في رسم لوحة ، وغارقاً بين الألوان ...

سألته مرة :

– لماذا اتيتَ الى دمشق ؟

اجابني بغير اكتراث :

– لأنني اشتقت الى الأهل ... الى الأصدقاء ... اشتقت الى هذه البلدة ... الى شمسها ... وحتى الى مللها ...

ومع ان جوابه جرح غروري الا انه اراحني ؛ لم يقل « جئت من اجلك ... او جئت لارى خطيبتي ... » ...

واردف :

– وأنا استطيع ان ادرس هنا ، فهذه البلدة مملة الى حد ان المرء يعتقد نفسه مجبراً على الدراسة ! اعتقد انني سأبقى

هنا ... اذا كانت اقامتي لا تزعجك ، ثلاثة اشهر ... اعود بعدها الى اوروبا ، من اجل الامتحان ... وبعدها اسافر لسنتين الى اميركا ...

لم نذكر مطلقاً حادثة الليلة الاولى ، ولكن ، فهم كلٌّ منا في سره ، موقفهُ من الآخر ؛ ونمت بيننا صداقة متينة ، حاولنا ان نقوّيها في تجنب هذه المواضيع .

وابتدأتُ اجد لذة في مرافقة ناديا ، وألفريد الى الحفلات ، والسهرات ، التي يقيمها الأصدقاء .

وكنت اعتني بشكلي ، وجمالي ، وانا ادري ان زياد لن يراني ، ولن يستهويه جمالي ...

وكنتُ كلما فكرت فيه ، غلف افكاري الضباب ؛ ولكن طيفه ظل متغلغلاً في كياني .

ومع انني كنت اقنع نفسي بأن قصتنا انتهت ، الاّ ان فكرة لقائه كانت في اللاشعور مبعث جميع تصرفاتي ... وهدف سهراتي ... وامل اعتنائي بنفسي ...

وفي ذات مساء ، وكان ألفريد قد ذهب الى احدى دور العرض ، مع صديق له ، جلست اقرأ ، واقتربت ناديا من المذياع .

وفجأة ...

امتلأ الجو بلحن ... لحن اعرفه جيداً ...

ارتجفتُ ... وارتبكتْ ناديا ، ومدّت يدها صوب المذياع . نظرت اليها ، وقلت وابتسامة استجداء حزينة تحجب دموعي :

– ارجوك ... ناديا ... لا تقفليه ...

وانسابت يدي ، بحركة لاشعورية ، تبحث عن صديقة بيضاء قديمة ، بنينا على اشلائها اروع خلواتنا .

وارتجفت شفاهي لملامستها ... واعتصرْتها ، لتمتص منها ، آخر ما تبقى من عصارة الذكريات ...

وتسمرت نظراتي على المذياع ، ثم راحت تلوب في الغرفة ... تنقب فيها ... تعاتب زواياها ...

هنا ... على هذا المقعد يجلس ألفريد في اغلب الأحيان ، وهنا ، يتبعثر الأصدقاء كل يوم ...

والمقعد الأخضر ؟ مقعد زياد ... اصبح هناك ، فقد قالت ناديا :

– لماذا لا تضعين هذا المقعد في القاعة الثانية ان لونه يحاكي لون الديوان ... وهو يضيّع رونقه هنا قرب المذياع ...

ونقلتُ المقعد .

وفي الركن هناك ، يئن الكهف الأسود ... يئن من الفراغ ... فقد سلبته الفانوس الأصفر ، ووضعته في حجرة ألفريد تلبية لرغبته ...

لا ...

لم يعد زياد يملأ بيتي ... لم يبق منه سوى هذه القيثارة

التي تتساءل معي ، ماذا تفعل هنا في هذا الجو الغريب ؟

و ... اجهشت بالبكاء .

تضايقت ناديا :

- لماذا لم ترضيْ ان اقفل هذا المذياع اللعين ؟ فهمتُ انك ستبكين ... ريم ... ارجوك ريم ... قصتك لا تستحق البكاء ... ستضحكين من نفسك بعد اشهر ... وستبدو لك كل هذه العاطفة سخيفة ، وهذه المغامرة تافهة ... تافهة جداً ... ستنسين زياد ... اؤكد لك انك ستنسينه ...

وازداد بكائي ...

وتمتمتُ ... وتقطعت كلماتي بالعبرات :

- سأنساه ... سأنساه ... نعم ... سأنساه ... انا متأكدة من ذلك ... ولكن ... كيف لا تفهمين يا ناديا ، انني ابكي لأنني ... سأنساه ...؟

القِسمُ الرّابع

١

تقابلنا ، بعد فراق ...
وتحدثنا ، بعد سكوت مضنٍ ...
وتعانقت نظراتنا ، بعد قلق ، وطول حنين ...

كانت الساعة تقارب السابعة مساءً ، وكان ألفريد وناديا ينتظراني مع بعض الأصدقاء ، عند احد المعارف . وبينما كنت أقود سيارتي في شارع بغداد ، اذا بشخص يشير اليّ ان اقف ؛

اوقفت السيارة ،

واذا بالباب الأمامي يفتح ، واذا به ... الى جانبي !

كنت انتظر هذه اللحظة منذ اسابيع ... كنت انتظر ان

تجمعنا الصدفة ، وكانت مخيلتي ترسم لي هذا اللقاء بألف لون ولون ...

كيف استقبل نظراته ؟ ماذا اقول ؟ هل ألومه على هذا الماضي الجميل الذي لوّث ؟

هل انفجر باكية ... او ابتسم بحزن واقول أنني سامحت ؟

هل أرتمي بين ذراعيه ؟ او ارجوه الاّ يحادثني بعد اليوم ؟

لا !

بقيت صامتة ، وتأملته ... لأرى اذا كانت نظراته تشبه تلك الفترات المظلمة التي قضيت ، وتلك الليالي الطوال ، اليائسة ، التي سهرت ...

تأملته ... بسكون ... ملياً ، لأرى اذا كان شخصه يشبه عذابي ...

قال ، والحزنُ يغشي صوتَه :

– ريم ... ريم ...

– اهلاً زياد ...

رفع نحوي بديعتين زرقاوين لمعت فيهما الدموع ، ونظر اليّ نظرة التائه في الصحراء الى السراب :

– ريم ... كيف حالك ؟ انك لم تفارقي ذاكرتي ثانية واحدة ... انت اعظم ، واحب انسانة عرفتها في حياتي.

وسكتَ ، متأثراً ؛

وساد السكوت برهة ، ثم تابع :

– ريم ... تكلمي ... قولي أيّ شيءٍ ... ريم لقد اخطأت .. وفهمت الآن ذلك ... سامحيني ... اريد فقط ان اقول لك ، انك تعيشين في خلاياي ... نعم يا ريم ، انت معي دوماً ...

كنت اتخيل فيما مضى ، انني لو سمعت مثل هذه الكلمات التائبة ... الدافئة ... تنهمر من فم زياد ، لارتميت حالاً بين ذراعيه ؛ ولكنني فجأة شعرت بفراغ في عاطفتي ، لست تعسة ، ولست سعيدة ... لست غضبانة ، ولست راضية ... لا شيءُ ، لا شيءُ مطلقاً ...

كل انفعالاتي الماضية ، وكل عواطفي التي تضاربت في نفسي أيام وحدتي ، تلاشت في وجوده ، وذابت جميعها في هذه الكلمة : لا شيءُ ...

انه هنا ... بعد هذه الأيام التي خلتها دهوراً ...

انه بالقرب مني ، يتكلم حزيناً ، ويغمرني بكلماته « الانسانية » ، ويرمي غروره عند اقدامي ، وانا ... اهزّ رأسي بشرود ، ولا اشعر بشيءُ !

– ريم ... كيف حالك ؟ اريدك دائماً سعيدة ... هل انت سعيدة ؟

رفعت اكتافي دون مبالاة ، وابتسمت ساخرة ؛

– نعم ... اريدكِ دائماً سعيدة ... ان سعادتك تسعدني ، بل الشيءُ الوحيد الذي يسعدني لأنني ... لانني تعس ... تعس جداً ...

خطر لي خاطر لئيم ان اقول له : « لماذا ؟ انت الآن تنعم بحريتك ... بالحانك ... بالوجوه الجديدة ... » ولكنني لم اقل شيئاً .

شعرت براحة تتمشى في اعصابي ... أحسست بكسل يهوي على اطرافي ... على لساني ؛ ان تعاسته ترضي انانيتي !

قال :

– هل انت مسرعة يا ريم ؟

– ان ألفريد ينتظرني ، مع ناديا عند أحد الأصدقاء ...

– لا اريد ان اؤخرك ... ولكن ... ريم ... يجب ان أراك لفترة طويلة ... يجب ان اجتمع بك ...

كنت انا ايضاً اتمنى ان أراه ، ان اجتمع به لفترة طويلة ، ولكنني سمعت صوتي يسأل بحزن وسخرية :

– لماذا ؟

– ارجوك ريم ، لا تكوني قاسية ... يجب ان أراك ... يجب ... ارجوك ... متى ؟

كنت استطيع ان أراه في اي وقت اشاء ، ولكن ... ابت كبريائي في تلك المرة ان اجيبه كالعادة : « عندما تريد » ، وعجبت من نفسي وانا اقول :

– انت تعلم ان ألفريد هنا ، ولا استطيع ان افارقه الا نادراً ... خابرني ، وسنتفق على موعد ...

كذبتُ ، ولاول مرة احببت كذبي ؛ ان زياد ، كأكثر رجالنا ، يعتبر الصراحة والبراءة ضعفاً وسذاجة ! سأتبنى

آراءه ، ولو انني اؤمن بأنها خاطئة ، وسأبرهن له انني قوية حسب مفهومه للقوة !

قال بقلق :

ـ اخابرك ؟.. و ... ألفريد ؟

كنت اعلم أن ألفريد لا يجيب على الهاتف ابداً ، ولكنني قلت :

ـ يمكنك ان تأخذ اسماً مستعاراً ...

ـ انا أكره ذلك ... ولكن ... ليس هناك طريقة اخرى ... سأخابرك ... ريم ... ريم ... اودّ ان اقول لك اشياء ... واشياء ... ريم ... قبل ان اتركك ، كلمة واحدة : انت دائماً معي ... طيفك يملأ حياتي ...

مددت له يدي ،

فانحنى يقبل هذه اليد بشغف وعبادة ، وخرج مسرعاً من السيارة ، كي لا ارى دموعه .

قرّبتُ يدي ، وارتمت نظراتي على الدمعة الملتمعة التي لم يستطع ان يحبسها ، فجاءت تسقي قبلته ...

وابتسمتُ ...

دموعه اليوم لا تحزنني ، بل تعطيني قوة !

نعم ... وددت لو املأ راحتيّ بعبراته ... ثم احتسيها قطرة ، قطرة ، حتى آخر ذرة ...

أوليس فيها الدواء لكبريائي الجريح ؟

*

جلست بين الأصدقاء مرحة ، احدث الجميع ، واضحك .
قالت ناديا :
– كم انت جميلة اليوم ، ان بريق عينيك لساحر .
يا للسخرية !
ان دموع زياد تروي عيوني ، وتعاسته تسعدني ،
وضعفه يعطيني قوة !
قال احدهم :
– ريم ... اسمعينا من شعرك ...
ضحكتُ ... مستغربة ، انا لا ألقي شعري ، ولكن
ألفريد نظر اليّ راجياً وقال :
– هيا يا ريم ... انا بشوق الى سماع قطعة منك ...
عجبت :
– انتَ لا تحب الشعر .
– انا لا احب الشعر مبدئياً ، ولكن هذا لا يمنع من
انني معجب ببعض اشعارك ؛ اسمعيني مثلاً : « كل شيء
يمضي » احبها كثيراً ...
حملتني هذه الجملة ، سنين الى الوراء ...
كان ألفريد يقول لي : « لماذا تضيعين جمال الحاضر
بالتفكير في المستقبل ؟ لا تكوني رومانتيكية ... ان تفكيرك
الدائم في المستقبل ، سيجعلك يوماً ما تندمين على
الماضي »
في تلك الأيام قررت ألاّ اكون جبانة ... قررت ان

أجابه حاضري ، وعقدت خطبّي على ألفريد
ملأ الحنين محجريّ ،
وتمّم ألفريد بالفرنسية :

— Je te Prie ..,

فالتفتّ الى الأصدقاء :
— سألقي مقطوعة ... قديمة ... قديمة جداً ... مقطوعة بالفرنسية ، من أجل ألفريد ... عنوانها :

« TOUT PASSE »

Pourquoi penser au futur
Et s'en lasser ... ?
C'est la loi de la nature :
Tout doit passer !

Pourquoi craindre qu'un beau jour
Il faudrait fuir ?
C'est écrit, depuis toujours :
Tout doit finir ...

Le présent est beau ... vivons
Sans réfléchir ...
Au moins, un jour, nous aurons
Le souvenir ...

فلم يقل شيئاً ، بل جمع حنينه في ابتسامة ناعمة علت شفتيه ، ثم دمدم بالفرنسية وكأنه يخاطب نفسه :

— *Oui .. j'aime ce poéme ...*

وفي البيت ،

وقف عند باب غرفتي ثم قال :

– قطتي الصغرى ... انا اذهب الى السهرات والحفلات من اجلكِ ... انت تعلمين انني اكره الاجتماعات ، ولكنك ، هذا المساء ، كنت رائعة ... كنت كما عهدتك من قبل ... مرحة ، ضاحكة ... ارجو ان تبقي هكذا دائماً ...

وددت في هذه اللحظة لو يقبلني ، لو يقول لي ، لو يعترف بأنه يحبني ؛ لكنه قال :

– تصبحين على خير ...

ودار على نفسه بسرعة ، ودخل غرفته .

فهمتُ . ان نفوري منه في البدء ، اقام حاجزاً بيننا : كبرياءه ! وأنا احترم الكبرياء ...

دخلت غرفتي ، والتفتّ الى المرآة ، اسائل صورتي عن سبب مرحي ، وعن سرّ عمق نظراتي ...

وتراءى لي زياد ! دائماً زياد !

سأراه غداً ... او بعد غد ... او بعد اسبوع ...

سأراه حين اشاء أنا ! واطربتني الفكرة ؛ لقاؤنا الآن اصبح كقطعة من الحلوى ، اتلذذ بامتلاكها ، وبإخفائها في دوامة غروري ؛ سآكلها ، وسأطعمه منها عندما اشاء ...

لم التسرع اذن ؟ ان امتلاكي لها ، يلذّ لي اكثر من طعمها ، وليذق هو الآن ، معنى الانتظار ، والقلق ، والجوع ...

وتسللت في فراشي ... وارتفع اللحاف يلفف بالرطوبة الجسد المرتعش ؛ ولأول مرة منذ زمن بعيد ، داعب النوم الهانئ ... جفوني ...

٢

نبّهني من نومي ، قرعٌ عنيف على الباب ، فارتفعّت أهدابي ، لأرى ألفريد يندفع الى الحجرة ...

نظر إليّ ضاحكاً ، وقال :

ـ الا يكفيك نوماً ؟ هيا استيقظي ...

ـ ماذا تريد ؟ دعني أنم ...

لم يأبه لما قلت ، بل وقف يتأملني ، ويداه مختفيتان في جيبه :

ـ كم انت جميلة ... كيف تستطيعين ان تكوني جميلة ، حتى عندما تستيقظين من النوم ؟

زفرتُ ، منزعجة ، فتابع مازحاً :

ـ ولكن ارجوك ، ضعي قبعة على رأسك لتخفي هذا الشعر القبيح ...

– كم الساعة الآن ؟

– الحادية عشرة ! وليلى هنا ... انها مع ناديا في القاعة ... يا إلهي ما أقبح شعرك !

ونادى :

– ليلى ... يا ليلى ... تعالي الى هنا ...

جلستُ في الفراش ، متثاقلة :

– ان الكسل من أجمل صفاتكِ ... انا اقرأ منذ الساعة السابعة ، وانت تنعمين بالنوم !.. يا دنا ... اين القهوة ؟

ودلفت ليلى تردد :

– ما هذا الكسل ؟

لن اجد الى مواصلة نومي سبيلاً ، فقلت متذمرة :

– انتِ ايضاً ؟ ان نشاطكما يتعبني ، ويزيد في نعاسي ...

قالت هازئة :

– هل أزعجنا الاميرة الكسول ... في نومها الهانئ ؟ عفواً ...! هناك شخص يريد محادثتك على الهاتف ...

وتابعتْ بمكر :

– سأقول له انك نائمة ...

فهمت ، وشعرت حالاً بنشاط الدنيا يهمي عليّ ... حاولت ان ابدو لامبالية ، ونهضت من الفراش اتصنع الكسل ، وخرجت من غرفتي ، الى القاعة ، وقربت ، بلهفة ، السماعة من اذني ، لاطرب سمعي بالصوت الحبيب :

– ريم ... يا اميرتي الصغيرة ... صباح الخير ... كيف حالكِ ؟

– كيف حالك انت يا زياد ؟

– انا بخير كلما سمعت صوتك ... متى اراك ..؟ اليوم ؟

سمعت صوتاً في داخلي يقول : « اليوم ... نعم اليوم ... الآن ... في كل لحظة يا زياد ... »

وعجبت من نفسي وأنا اجيب :

– اليوم ... لا ... لا استطيع ... سأستقبل ضيوفاً !

كذبتُ .

لكنني اردفت وانا احاول ان أُشعره بترددي :

– ولكن ... سأحاول ... سأعمل جهدي ... ان أراك غداً ... لنقل غداً ، في الساعة السادسة مساءً .

– صغيرتي ... تهمني راحتك قبل كل شيءْ ... ولكني سأعيش دهراً من الآن حتى الغد ... ولكن يا ريم ... اين ... اين سأراك ؟

ما كان اسهل عليّ ان اقول له : « سآتي اليك ، او تعال زرني ، او تعال خذني بسيارتك » .

لكنني قلت جادة :

– هذا موضوع آخر ... موضوع صعب ...

وسكتّ لحظة ، لاقول همساً :

– يجب ان تنتظرني في سيارتك في مكان بعيد عن عيون الرقباء ، والا فستحدث كارثة ... لنقل ... مثلاً ... هناك ،

تكلفها من روحها وآمالها واعصابها ...

على العكس ، يزول تقديره للفتاة نفسها ، ويعتبر حبهما تافهاً ، لان الحواجز زالت ! هذه الحواجز التي يضخمها الكتّاب ، ويطرزون حولها الحوادث ، فيخلقون منها قصة مثيرة !

وزياد ؟ زياد طفل تستهويه الروايات العاصفة ! فلماذا لا استعمل ظروفي التافهة لتكوين قصة ، واقوم بدور البطلة التي يبحث عنها زياد ؟

لماذا لا اجعل من حبنا مغامرة مثيرة ؟ فأوهمه ، بأن كل واحد منا يرسم خططاً جهنمية كي يستطيع فقط ان يحدث الثاني هاتفياً ... واننا نخاطر معاً ، كي نلتقي للحظات ، وان الدمار سيحل بالكون ، اذا اخترقت خلوتنا ، نظرةُ رقيب ..؟

و ... اخترق خلوتي بأفكاري ، نداءُ ألفريد :

– ريم ... ما هذا الحديث الطويل ؟ كم تثرثرين ... بردت قهوتُك ، ومللنا انتظارك !

عدت الى غرفتي ، ضاحكة ، فابتدرتني ليلى بمكر :

– ما هذه العادات القبيحة ! ساعة ... على الهاتف ...

– المخابرة انتهت بسرعة ، لكنني كنت افكر ...

ضحك ألفريد :

– وكتبتِ قصيدة طبعاً !!! هل ذكرتِ في القصيدة اننا ننتظرك ؟

وسألتْ ليلى :

— وماذا تفعلين الآن ؟

— سأكتب

غمغم ألفريد :

— اما أنا ، فسأذهب الى السينما ...

شعرت فوراً بحاجة الى البقاء معه ، فقلت :

— الا تدعوني وليلى ؟

اتسعت عيناه :

— الله ... ماذا جرى لك ؟ لقد ابيت عدة مرات مرافقتي الى السينما ...

— انا لا احب السينما ، ولكنني اليوم اودّ ان ابقى معك ... فهل عندك مانع ؟

وابتسم .

فكرتُ :

ما الذي يدفعني الى مرافقة ألفريد ؟ لماذا كلما تحدثت مع زياد ، شعرت بحاجة الى ملاطفة ألفريد ؟

هل هو الشعور بالخطأ ؟ ولكنني متفقة تماماً وضميري ؛ انا لست مرتبطة بأية صورة بألفريد !

هل هي الشفقة ؟ ولكنني لا اشفق على ألفريد ، بل اقدره ، واحترمه .

ربما ، كان تصرفي نتيجة عملية مقارنة ، في عالم اللاشعور ،

بين زياد وألفريد ... مقارنة تجعلني اؤمن بأن هذا الأخير يستحق صداقتي ، وعطفي ، واخلاصي ...

*

كانت لحظة اللقاء تلوّح لي طوال النهار ، وتدنو ... وتدنو ؛ وكنت اعلم ان ألفريد قد تواعد مع احد الاصدقاء على الذهاب الى السينما ؛

وقفت امام مرآتي ، وساءلتها : هل كنت اشعر بهذا الشوق الجامح الى ملاقاة زياد ، لو لم اكن متأكدة من انه منذ البارحة ، لا يعيش إلا لهذه اللحظة ؟

ومن ابتسامتي الواثقة ، الهادئة ، فهمت انني بشوق الى شوقه ... لا الى لقائه ...!

ومرت ليلى كعادتها كل يوم :

– اين ألفريد ؟

– ذهب الى السينما اليوم ايضاً ...

– ريم ... لقد رأيت سيارة زياد تقف في شارع المزرعة ! ماذا يفعل هناك ؟

قلت بدون مبالاة :

– وما ادراني انا ؟

وساءلتُ ساعتي ؛ لقد سبق الموعد ، ولكنني كنت توقع ذلك ... قالت :

– الى اين انت ذاهبة ؟ لمن تتجملين هكذا ؟

أجبتها ساخرة :

– اتجمل لنفسي هذه المرة ... لارضاء غروري ! وانا ذاهبة معك ...

اطل السؤال من عينيها ، فأوقفته قائلة :

– نعم ... ستقولين انني ذاهبة معك !

هزّت رأسها ، معاتبة :

– انه ينتظرك ! كيف لم افهم ذلك ؟ انت مجنونة يا ريم ... ان ...

– ارجوك ، ليس لدي الوقت لسماع نصائحك ؛ سأمرّ بك بعد ساعة تقريباً ...

والقيت نظرة اخيرة الى صورتي في المرآة ، وقلت :

– هيا بنا ... انتظريني في البيت ...

وخرجتُ مسرعة ؛ ركضتْ ورائي :

– انت مجنونة ... كيف لا تقدرين ان ألفريد يفوق هذا الرجل ذكاءً ورجولة ... كم انت مخطئة ... ألفريد عظيم ...

قلت هازئة ، وانا اطبق باب سيارتي ، وادير المحرك :

– تزوجيه ... يا ليلى ...

*

– عفواً ... تأخرتُ نصف ساعة ، ولكن ألفريد لم يدعني آتي قبل الآن ...

– صغيرتي ... كنت قلقاً ... اتساءل اذا كنت تستطيعين المجيء ...

– انا هنا الآن ...

– وانا تحت تصرفكِ ... هل تودين ان نذهب لنزهة في السيارة ؟

– كما تريد ...

انطلقت بنا السيارة ، حذرة ، في الازقة المعتمة ، وانطلقت الكلمات من ثغر زياد ، نغماتٍ حزينة ... مشتعلة :

– حبيبتي ... حبيبتي ... لا تحسب من عمري ، هذه الايام العشرون التي قضيتها ، بعيداً عنك ... انتِ اغلى ما في وجودي يا ريم ... يا اهلا بك ... يا اهلاً ...

بقيت صامتة .

– ريم ... لماذا لا تتكلمين ؟ تكلمي ... قولي اي شيءٍ ... وبخيني ... انا استحق اقسى الشتائم ... كنت مخطئاً يا ريم ... قولي اي شيءٍ ... تكلمي ، ان سكوتك اقسى ايلاماً من الكلمات

نظرتُ اليه ، وابتسمت بحزن ؛ سأل :

– حبيبتي ، اخبريني قبل كل شيءٍ ... كيف حالك مع ألفريد ؟

هززت رأسي :

– لا بأس ...

حاولَ ان يجعل لهجتَه لامبالية وهو يسأل :

– هل تتزوجينه ؟

– انا لا اريد الزواج الآن ...

– الم يغير مجيءُ ألفريد رأيك ؟

– لا ...

ترمرم ، ولاحظت أنه مرتبك ... ثم سأل فجأة :

– ريم اخبريني ... حدثيني عن لقائكما ... كيف ... كيف أستقبلت ألفريد ؟ وهل ... وهل قبّلك ؟

ضحكتُ ! وتلعثم :

– لا ... لا تضحكي ... اعرف ان هذا سخف ... وانه حتماً قبّلك ... وطبعاً هذا ... من حقه ... هذا شيءٌ طبيعي ... ولكنني لا احتمل فكرة وجود رجل معك تحت سقف واحد ... حتى لو كان خطيبك ...

زياد يغار !

هذا اكثر من ان اصدق ... وكأنه فهم ما يجول في خاطري ، فقال :

– نعم يا ريم ... انا اغار من ألفريد ... وفكرة وجودك معه دائماً تعذبني ... تعذبني ... وتقلق لياليّ

واوقف السيارة ، ومدّ يده بوجل ، يمسك يدي ، ثم رفعها نحو ثغره ، واحنى رأسه ، ليدفن كلماته في راحتي :

– حبيبتي ... حبيبتي ... كيف يقبّلك غيري ؟ لقد قبّلك ألفريد ... لقد ... ان عدم اجابتك تعني ذلك ... ريم ... انا احبك ... احبك ...

وسكت لحظة ، ليتابع :

– هل سامحتِني ؟
– أليس وجودي الآن معك دليلاً ؟
– هذا كل ما اريد ... انا احبك يا ريم ... انا بحاجة ماسة الى سماحك ...

كان صوت ، في اعماق قلبي ، يهمس لي :

« هيا ... ارتمي بين ذراعيه ... كفي عن التمثيل ، اعترفي له بحبك الدائم ... سامحيه ... واذهبي معه الى حيث يشاء ... اخبريه ان ألفريد لم يقبّلك ... اخبريه انك نفرت من قبلاته ... انت تعبدينه ... لم الكذب ؟ »

فيرتفع صوتٌ آخر ، ويعلو ، ويعلو ، ويستفزّ عنفواني :

« هل تضعفين من جديد ؟ انه الآن يحبك ، لأنه يعلم انه فقدك ... انه الآن يحبك ، لانه بعد المقارنة ، وجدك احسن منها ... انه الآن يحبك بعد ان ادمى قلبك ، وداس كبرياءك ... دعيه يتألم ... دعيه يذق قليلاً من عذابك الماضي ، دعيه يتعذب ، ليصبح انساناً ... »

انه الآن يحبني ، انه الآن الرجل الذي تمنيته دائماً ان يكون ، ولكن حبه اليوم لا يسعدني ، ولا يحملني ، الى هذا العالم الجميل ، عالم الاحلام ، والموسيقى ، والشباب ؛

ان حبه اليوم يرضي غروري ، ويعيد اليّ ثقتي بنفسي .

لم اقل شيئاً ، بل نظرت الى الساعة ؛ لقد تأخرت .

– زياد ... لقد مرّ الوقت بسرعة ، ويجب ان اعود ... الساعة السابعة والنصف ...

– يجب ان تعودي ... نعم ... يجب للاسف ... وتقضي سهرتك مع ألفريد ! كم من الوقت سيبقى ألفريد في دمشق ؟

– شهرين تقريباً ، على ما اعتقد ...

– متى أراك ؟

– لا استطيع ان اضرب لك موعداً الآن ، فانا أبني برامجي على برامج ألفريد ... سنتفق هاتفياً ...

– ريم ... لا تنسيْ انني احبك ... احبك ...

هززت رأسي ، وابتسمت .

– ريم قبل ان تتركيني ، برهني لي انك سامحت ، وقولي ما كنت تقولينه ...

قلت بصورة اتوماتيكية :

– احبك ...

– لا ... قولي الجملة الثانية ...

رددت :

– احبك ... ولا اذكر جملة ثانية ...

– ارجوك تذكري ...

فهمت انه يريد لحني القديم : « انت عيوني ... » ولكنّ لساني ابى ان ينطق بهاتين الكلمتين . لا استطيع ، لا اشعر بذلك ، سأكون كاذبة ، ويا للغرابة ، في هذه اللحظة ، وفي هذا الموضوع ، لم استطع ان اكذب ، فقلت ضاحكة ، وانا ازحف بجسدي خارج السيارة :

– اعتقد انني احبك ، وهذا يكفي اليوم !
واختفيت في ظلام الطريق ...

*

– ريم ... انا لست موافقة ...
– اسمعي يا ليلى ، اعفيني من نصائحك الآن ، واستمعي اليّ ... هناك جملة قرأتها منذ زمن ، تتردد في رأسي الآن ... منذ لحظات ... تذكرتها وانا في طريقي اليك ...
قاطعتني :
– ريم ... انا لست موا ...
– ... فقة على الذي تفعلينه ! فهمت ... سنتحدث عن ذلك فيما بعد ... والآن استمعي اليّ ؛ يقول اندريه جيد :
« ان كل تمنٍّ اسعدني ، وزاد في ثراء نفسي ، اكثر من التملك الخاطئ دائماً لموضوع التمني ذاته ... »
– ما معنى كل هذا ؟ لم افهم !
– عرفت انك لن تفهمي ...! ليلى ، انا اعد الثواني التي تفرقني عن زياد ... وتنحصر مخيلتي وتفكيري وحياتي ، في الطريق المؤدي الى ساعة اللقاء ... ولكن حين ارى زياد ، لا اشعر بشيء ، حتى ولا بسعادة ...
– هل تريدين ان تقولي ان رؤية زياد لا تسعدك ؟
– نعم ...
– اذن انت لا تحبينه ...

– انا اعبده يا ليلى ... ولكن لست ادري كيف اشرح لك ان فكرة لقائه تسعدني اكثر من اللقاء ذاته ...

– آراؤك غريبة ، انا لا افهم سوى شيء واحد ؛ اما انك تحبينه ... واما انك لا تحبينه ... وهذه الفلسفات التي تبحثين عنها لا افهمها ... انت لا تطاقين !

– اعرف ذلك ... لقد سمعته منك من قبل ... قولي ... اوجدي شيئاً جديداً ... وحاولي ان تفهمي بعد ذهابي ما قلته لك .

– لماذا ؟ الى اين انت ذاهبة ؟

– الى البيت ... فانا اشعر بحاجة الى الكتابة

– الكتابة ! الشعر ! انت تقتلين معظم اوقاتك بالكتابة ... وستمر اجمل ايامك وانت دافنة نفسك بين اربعة جدران ، تكتبين ...

– ماذا سأفعل اذا لم اكتب ؟ يا ليلى ... الفن هو الشيء الوحيد الذي يستحق التضحية ...!

لطمت خدها بيدها :

– يا الهي ... انت ايضاً ... من فئة المجانين !

*

جلست امام طاولتي الصغيرة ، وتبعثرت الأوراق تحت يدي ، وراح قلمي يرسم الحروف الملونة ...

ان حروفي لها الوان ؛

النون حمراء ... كنقاط الدم . الياء صفراء ... كدموع الفراق . السين ذهبية ... كالشمس . والواو سوداء ... كلباس الراهب . والهاء شفافة ، كالزجاج ... والألف الرمادية ... واللام ... والجيم

نسيت كل شيء حولي ، وتلاقت نفسي ، وعيوني في رقصة الحروف ...

شعرت بسعادة... سعادة تنساب في اعماقي هدوءاً،وراحة...

ان هذه الحروف تغنيني عن كل شيء ...

وحملني من هذه الغيبوبة اللذيذة ، الى الواقع صوت ألفريد :

– كان الفيلم يا ريم رائعاً ... ماذا ...؟ انت تكتبين ؟ شعراً ؟ وهل في الدنيا شيء اسخف من الشعر ؟

– كيف تتكلم هكذا ؟ وانت رسام ... وانت فنان ؟

قال مازحاً :

– الرسم فن ... هذا صحيح ... لكن الشعر سخافة ! هل ترافقيني الى نزهة في السيارة ؟

رفعت حاجبي ، وبدا الاستياء على وجهي ؛ قال :

– آه حقاً ... نسيتُ ... الشاعرة العظيمة في ساعة وحي ..! يؤلمني انك لا تشعرين بالوحي الا عندما اود مرافقتك !

شعرت بانقباض ، وكأن يداً فولاذية تعصر قلبي ؛ شيء في طباع ألفريد ، لا ادري ما هو ، ينعكس في كلماته ، فتتمدد كالأصابع ، تحاول خنقي ...

ان ألفريد يستطيع ان يتفهم حاجتي الى الكتابة ، لأنه هو نفسه فنان ؛ لكنه لا يريد ان يعترف ، لأنه رجل ، ككل الرجال ، اناني ...!

ما الفائدة من الخصام ، سأكتب فيما بعد .

– سأرافقك !

انطلقت بنا السيارة تنهب الفضاء ، وتسابق الريح :

– ما هذه السرعة يا ألفريد ؟ هل دعوتني الى نزهة او الى سباق ؟

– انت جبانة ... تتصرفين كامرأة عجوز ...

سكتّ .

وفي برهة ثانية ، مرت امام مخيلتي جميع قصص خلافاتي الماضية ، ومناقشاتي مع ألفريد لأتفه الأسباب ؛ شؤون تافهة ، ولكن من هذه الشؤون تُبنى حياة الفرد اليومية ؛

لا ... من المستحيل ان اتزوج ألفريد ؛ ان دنيا تفرّق بيننا ،

يحب الشمس والطبيعة والهواء ، وانا اخضع لجمال الليل ؛ يمارس الرياضة بكل انواعها ، وانا اجد لذة الحياة في الاستلقاء على ديوان مريح ، تمرح عليه الكتب ، في غرفة صغيرة ، تتسرب من زواياها ، ألحان خافتة ، جميلة ...

يحب العزلة ، وانا لا استطيع ان اعيش من غير اصدقاء ؛

يؤمن بأن الوجود ينبع من الانسان ، وانا اؤمن بأن الانسان ألعوبة في يديّ القدر ...

أعز ألفريد ، ولكن تصادم آرائنا يخلق من وجودنا معاً ، جوّاً مرتجاً ، مكهرباً ...

وشعرت بحنين الى زياد ؛ ابن بلدي ... ابن عاداتنا ، ومشاعرنا ، واذواقنا ...

وكنت غارقة في تأملاتي ، فلم الاحظ ان ألفريد قد خفف السرعة ، حتى سمعته يقول :

- لا تعبسي هكذا ... نعم آراؤك خاطئة ، ولكن المضحك ... انني دائماً ... افعل ما تشائين ...

٣

مرّ يومان ... وكان زياد يخابرني كل يوم عدة مرات ، فتحملني مخابراته من هامش الحياة الى اعماق اعماقها ...

وكان اللقاء الثاني ...

وفي المكان ذاته ، كان زياد ينتظرني ، قلقاً ؛

ابتدرني :

– لم اعد استطيع ان احتمل هذه الحالة ... هذا الكتمان الذي يغلّف اجتماعاتنا ... وهذا الحب الذي اصبح محرّماً علينا ...!

– للظروف احكام يا زياد ... انا لا اريد ان اسيْ الى ألفريد ...

– هل انت سعيدة معه يا ريم ؟ على الأقل ؟

– سعيدة ؟ ما هي السعادة ؟ هي لحظات قصار جداً ... متقطعة ... السعادة نيزك ... بريقها سهم يلمع ويختفي فوراً في الظلام ، ولا يمكن ان يكون الانسان سعيداً دائماً ...

– هذا صحيح ... انا في هذه اللحظة سعيد ... ريم ... انا احبك ... قد اكون اخطأت معك ... بل اخطأت فعلاً ... ولكنني في لحظتها ما كنت اظن أن تصرفي قد يسيء اليك ... ريم ... انت حساسة جداً ؛ انا ما عرفت امرأة مثلك من قبل ، ولا تعودت مداراة شعور اية امرأة ، لأنه ما من واحدة كان تصرفي يسيء اليها ... لذلك ، اعتقدتُ ان ما فعلتُه ليس به شيء يسيء اليك ...

نظرت اليه ، مترفعة ، معاتبة ؛ قال :

– ريم ... انا اعرف الآن أني اسأت اليك ، لا بالاعمال ... ولكن بالطريقة التي شرحت بها اعمالي ... كان تصرفي خاطئاً ... لكني اودّ ان أخبرك ... احلف لك انه لم تكن بيني وبين هذه الفتاة اية علاقة عاطفية او جنسية ...

انتفضت ، منزعجة :

– انا لا اسألك شيئاً يا زياد ، ولا اودّ ان اتحدث عن الموضوع !

– لكن ... يجب ان تعلمي ...

قاطعته بحزم :

– ارجوك زياد ...

ومع ان هذا الموضوع ، في الحقيقة ، كان ينغل في

قلبي ، ومع ان فضولي كان يطلب ايضاحاً وتأكيداً – وأي امرأة لا يهمها ان تعلم ... وتعلم ، مدى علاقة حبيبها بفتاة اخرى ؟ – الا ان كبريائي ابت عليّ ان ادني نفسي ، واستمع الى هذا الحديث .

وسكتَ زياد ، وفكرتُ :

ومن تكون هذه الفتاة ؟ سأعطيها انا قيمة اذا اعرت موضوعها اهتمامي ؛ انا لا تهمني هي مطلقاً كشخص ؛ كان من الممكن ان تكون فتاةً اخرى ؛ والذي يهمني هو تغير زياد حين وُجدت . لم تكن سوزان سوى دمية تمثل الفتاة بوجه عام . نعم ... لم تكن الا حجراً حكّ عليه زياد ، فتبين معدنه الحقيقي ...

قال :

– ريم ... انا احتقر هذه الفتاة ، وألعن اسمها ... انت لا يمكنك ان تتخيلي انها مجرد جارية تتهالك كممسحة تحت أقدام الرجل ...

شعرت باشمئزاز ؛ كيف يتحدث زياد عن فتاة صادقها ، مهما كانت اخلاقها ، بهذه الصورة القبيحة ؟ كيف يشرب من بئر ثم يقول عنها عكرة ؟

– لا ... لا يا زياد ... يؤسفني ، ويسوءني ان اسمعك تتحدث عنها الآن بهذه اللهجة القاسية ، ومنذ ايام فقط ، كنت معجباً بها ، وصديقاً لها ...

صرخ :

– معجباً بها ؟ انا ؟ كم انت مخطئة ... انا لم اعجب بها قط ... هي التي كانت تلاحقني بشكل مستمر ، واذا كنتُ لم اخبرك بكل ذلك ، فاعلمي الآن انها هي التي كانت تدعوني لأخذ فنجان من القهوة ، هي التي كانت تطلب ان أوصلها بسيارتي ، هي التي كانت تخابرني ... وفي تلك الليلة المشؤومة ، هي التي كانت تنتظرني في بيتي وألحّت ان أرافقها ...

بالرغم مني ، شعرت بنفسي مضطرة الى مناقشته ؛

قلت ببرود :

– يا زياد كل ذلك لا يمنع من انك كنت معجباً بها ! فالفتاة لا تلاحق شاباً الا إذا كان قد ترك لها مجالاً ، لتعتقد انه يرحّب بملاحقاتها ...

– يا ريم ... انا لم اعجب بها ، لكنها كانت وجهاً جديداً بالنسبة اليّ ...

قلت ، والابتسامة المُرة تقذف كلماتي :

– نعم ... وجهاً جديداً ... رميت من أجله الوجه الذي اضاء بك ... ولك ...

– انا رميت ؟ انا ؟ ما هذا الكلام ؟ متى ستفهمينني ؟ انا احبك يا ريم ... انا اعبدك ... حاولي ان تفهميني ... ان في بحاجة الى اشياء جديدة ... بحاجة الى مواد اولية ... ان الفن ...

الفن ... الفن ...

لم اعد استطيع ان اكبت آرائي ؛

لم اعد استطيع ان اقف مكبلة اليدين امام هذه الآراء المغلوطة التي تصفع مفهومي للنبل !

شعرت بالاشمئزاز يغلي في كياني ، ليفور كلمات قاسية محرقة على الشفتين :

– ارجوك زياد ... بل استجديك ، لا تستعمل كلمة « فن » عندما تريد ان تقول « رخصاً » ... لا تستعمل الفن كستار للافعال الدنيئة ، السافلة ... انا احب الفن ، فلا تخفضه الى هذا المستوى المنحط ...!

صبغت كلماتي وجهه بألوان مخيفة ، وعبست تقاطيعه وكزت اسنانه ، تعضّ الاهانة ؛

وتمدد الصمت بيننا ، وغمرنا ، وثقل على كاهلينا ؛

جاوزتُ حدود المناقشة ! قسوت على زياد وهو ضعيف ، وجرحته وقلبه مضنى ؛

ان من الجبن والدناءة ان استعمل قوتي وسلاحي مع شخص يستسلم ، ويعتذر ...

كيف اسمح لنفسي ، وانا اصعد جبل القوة ، ان اقذف حجارة على انسان اصبح في السفح ؟

اخطأت !

لكنني لم اندم ، فأنا طبيعة بشرية تتأثر ، وتغضب ، وتثور ، وتحقد ، ثم تفرغ عصارة حقدها في كلمات جارحة ؛ وترتاح من كابوس يرهق اعماقها ...

وفي صمتي ، استيقظتُ فجأة من غيبوبة التمثيل ؛ لماذا

اريد تعذيب زياد ؟ انا احبه ... لم الكذب ؟

اقتربت منه ، ورفعت يدي ألمس برفق خده ، فارتدّ اليه لونه الهارب الحقيقي :

– زياد ...

لم يجب

– زياد ... كلانا سخيف ! يقذف كل واحد منا روحَ الآخر ، بسهام غضبه ، وغروره ، ولا يدري ان هذه السهام ، هي شظايا نفسه المحطمة ... هل نعتقد اننا نبدع شيئاً جديداً ، ونحن نسيءُ الى بعضنا بعضاً ؟ هل نعتقد ان هذه الأحاديث نوع من التجديد ؟ نوع من الفن ؟

صاح العتاب في عينيه ، لكنه قال ببرود ، والكلمات تتكوّم عنفواناً في لهجته :

– اذا كنت الآن تنظرين اليّ ... الى شخصي ، من هذه الزاوية الضيقة المعتمة ، فلماذا تجتمعين بي ؟ لماذا تحدثينني ؟ انا لا اعترف بصداقة لا تقوم على التقدير

– انا اقدّرك يا زياد ، وهذا لا يعني انني اوافقك على كل آرائك ! ان استهتارك ببعض المعاني الرفيعة هو الذي أجْبرني على الدفاع عنها ... لانني احترمك ، اطلب اليك ان تحترم فنك ، فنك الذي تعبد ، فنك الذي علمني ان احب الفن ...

واندفعت شفتاي تهمسان في أذنه :

– انا احبك زياد ... الى متى نزوغ عن الحقيقة ؟ الى

متى نظلّ تائهين ؟ ومتى سيعترف كل منا بأنه وجد نفسه حين وجد رفيقه ؟ انظر اليّ زياد ... انظر اليّ ...

رماني بلفتة زاجرة ،

ثم لانت نظراته امام الحب العاصف في عيوني ؛ فانسحبت يده اليمنى من مكانها على عجلة القيادة ، لتقترب من رأسي المتكئ على كتفه ، وتداعب برفق وحنان شَعري القصير ، وكأن هذه اليد ، تعودت دائماً مسحَ فروة القطة المُظفرة ...

دندنتُ :

– زياد ، في ظروفنا الحالية ، لا نستطيع ان نبقى دائماً معاً ، فلماذا نعكّر صفو اللحظات التي تجمعنا ؟ لماذا في هذه اللحظات لا نعمر من وجودك ووجودي دنيا نحصر فيها جميع احاسيسنا ؟

– نعم ... لننس الماضي بما فيه من دموع وبسمات ، ولننظر الى المستقبل ...

وساد السكوت ، وامتدت نظراتنا في الطريق الطويل الذي يضيق ويضيق ، لتلتقي في زاويته الضائعة في الأفق ...

وحين عدنا سأل :

– متى أراك ؟

قلت فوراً وانا افتح باب السيارة :

– غداً ... في السادسة مساءً ...

اختلط الفرح بالدهشة في عينيه ، وسأل :

ـ هل انتظرك في المكان ذاته ؟

قلت بثبات :

ـ لا ... انتظرني في البيت ...

وتابعتُ ، ردّاً على نظرته القلقة :

ـ لا تخش شيئاً ... انا اعرف كيف اتصرف !

وابتسمت بمكر ...

٤

انبأتني اعقاب اللفافات المكوّمة في المنفضة ، على حافة النافـذة ، عن قلق زياد ، طوال ساعات قضاها في انتظاري ...

سكرتِ اللهفة في عينيه ، وترنّح الفرح في اساريره ، وهو يقول :

– انت ... انت يا حبيبتي ... يا اهلاً بك ... انا لا استحق ان تزوريني ... لكنك عظيمة ... انا لا اصدق انك هنا ...

وقفت في وسط الغرفة ، غارقة في سيل الترحيب ، ثم ، وعيت ما حولي ...

يا الهي ... ماذا جرى ؟

اين الستائر الملونة ؟

اين الديوان الأحمر الذي كانت تختلج قضبانه مع دقات قلبينا ؟

اين اللوحات المتراكمة ؟

اين الكتب المكدسة التي اخفت بين صفحاتها اسرار ليالينا ؟

اين ... اين ... اين ذكرياتي ؟

ونبت الذعر في عينيّ ، ماذا تفعل هذه المقاعد الخضر المخملية في الركن ؟ ولماذا استُبدِل ديواننا الأحمر بهذا الديوان الخشبيّ ؟

كان زياد يتتبع نظراتي ، فقال شارحاً :

ـ نحن بحاجة الى غرفة لاستقبال الضيوف ، وهذه الغرفة واسعة ، لذلك اضطررت الى ان انقل جميع ما كان هنا ، الى الغرفة المجاورة الصغيرة ... وكما ترين لم ننته بعد ... انا آسف يا حبيبتي ان استقبلك اليوم والفوضى تعمّ هنا .

بردت أطرافي ... برد جسدي ... برد قلبي ...

احسست بصقيع يهرب من الجدران ، يهجم عليّ ، يغلفني ، يكبلني ، يوجعني ...

وددت لو ابكي ؛

حتى هذه الغرفة ... هذه الغرفة التي اعتبرتني ابنتها ، واخبأتني في احضانها ...

حتى هذه الغرفة التي غمرتني بدفئها ... تغيرتْ !

ضحك زياد :

– لا بأس يا ريم ... انا ايضاً تأثرتُ وانا أراهم ينقلون كل شيءْ ... لكن الغرفة المجاورة ستعجبك ... هيا اخلعي معطفك ، واقتربي من النار ...

خلعت معطفي المبلل بالأمطار ، وجلست حذرة ، على حافة الديوان الجديد ، وتشتتت نظراتي في ألسنة النار المتصاعدة .

هذه النار تهديني الدفء والحياة ؛ هي اليوم كما كانت هذه الغرفة في الماضي ...

وغداً ...

غداً ستصبح هامدة ... باردة ... غداً ستصبح مثل هذه الغرفة اليوم !

ياللسخرية ... كل حرارة ... تزول ! كل شيءْ يزول ...

كان زياد يضع قليلاً من الترتيب حولي ، ثم اقترب مني ، وقال ، وهو ينظر الى النار :

– ريم ... ان فضلك عليّ كبير ... كبير ... انت اول فتاة ، بل اول انسان يعرفني بقيمة نفسي الحقيقية ... بنذالة نفسي ... انا سافل ... سافل ... ولم اكن ادري بذلك ! ان ماضيّ تاريخ اسود ، احمله على كتفيّ ... ويرهق يومي ... لأول مرة في حياتي ... اندم على ماضيّ ... ماذا فعلت في الماضي ؟ اضعت حياتي في السطحيات ...

شعرت بعطف واحترام لهذا الرجل ، الذي اصبح انساناً ... اليس انساناً كلُ من يتوب ؟

ركع عند اقدامي ، كعبد صغير يائس ، ودفن وجهه

في ركبتي ، وتمتم :

– ريم ... سامحيني ... لقد اسأت اليك ... دون ان ادري ، لأنني كنت اعيش من غير احساس ... سامحيني ... انا عاجز عن الحياة بدونك ...

ثم رفع نحوي الرائعتين الزرقاوين ، وجاءت ابتسامة باهتة ، تضفي على ضراعته كبراً :

– عودي اليّ يا ريم ... عودي اليّ وسأخدمك كالعبد ... عودي اليّ وسأحفظك في عيوني ... انت اميرتي الصغيرة ... وانا فقير معدم ... لا تتركيني ... لا تخلعي عني هذا الثوب الناصع الذي اهديتني اياه ... لا تعيديني الى عريي الماضي ... عري الضمير ... عري الأحاسيس ... انا احبك يا ريم ...

شعرت بأنني ساضمه الى صدري ، وأواسيه كطفل صغير ...

شعرت بأنني سانحني على وجهه ، فألملم بشفاهي دموعهُ المترقرقة بين الأجفان ...

لكنني لم افعل شيئاً ،

ولم ادرِ سبب برودي ، انا التي كنت مستعدة لأن أحشر حياتي كلّها في زرّ وردة ، لو خيل لي ان زياد بحاجة الى عبير ... أهي كبريائي التي عادت تحصن عاطفتي ، وتُملي عليّ تصرفاتي ؟ ام الفن الذي صار يلوّن آفاق حياتي ؟ ام السخرية من الأيام التي جعلته ، هو الرجل المتكبر ، المتعجرف ، يرغب في ان احميه انا !

داعبت شعره بحنان ، ومسحت له الجبين ، وتمتمت:

– زياد ... انا ايضاً احبك ...

– حبيبتي ... انا لك ... اطلبي مني ما تشائين ...

ابتسمتُ ، وقلت فوراً :

– سأطلب منك ان تعزف لي المقطوعة التي احب

ابتسم بدوره :

– هذا فقط ؟

– ارجوك ... اطلب ذلك بالحاح ...

اتى بقيثارته :

– اتعلمين يا ريم ... اصبحت لا استطيع العزف ، لم اعزف منذ افترقنا ... ريم ... اعطيني وقتاً ، سأبرهن لك ... انني دائماً لك ... ومعك ؛ يا ليتك تدركين ... لا شيء غيرك له قيمة عندي ... وفني ... فني الذي كنتُ اقدس ... لم يعد يهمني ... سأتركه من اجلك ، اذا كان يؤذيك ...

تقهقر منافسي في حب زياد !

هوى الملك الذي كان يتربع على عرش حياته ، لاجلس انا على هذا العرش !

بالرغم من هذا ، لم اشعر بسعادة ، بل بخيبة ! كيف ... كيف يتقهقر الفن امام حب زائل ؟

قلت مستاءة :

– تتركه ... تتركه ؟ كيف تتركه ؟ انا اعبد فنك يا زياد !

شكرني بابتسامة ، وتابعتُ :

– ارجوك ... اعزف لي مقطوعتي ...

جلس على حافة الديوان ، وامسك بالقيثارة ، وراح يعزف ؛

تعلقت انظاري على انامله ...

ما اروع فنه ، وما اجمل عزفه ...

كانت اصابعه تستجدي الأوتار ...

عزف كما لم يعزف مرة من قبل ... تشابكت عواطفه ، نداءات تلحّ في انغامه ...

في هذه الحجرة الغريبة ،

انسابت الألحان تحيي ذاك الماضي ... القريب ...

وامتلأت الغرفة ، بجو من الحنين ... حنين الى تلك الأيام ... الضائعة ...

ثم ...

التقت نظراتنا ... فاختلطت بالأنغام ...

وبصورة لا شعورية ،

سلونا القيثارة ...

وعادت ... من تلقاء نفسها ... الحان الماضي ...

*

فكرت وانا عائدة ، ان ألفريد بقي وحيداً طوال هذه الفترة ؛

لماذا تركته يشقى في وحدته ؟ لماذا ذهبت الى زياد وانا

أعلم ان ألفريد لن يغادر البيت ، وسيبقى وحيداً ؟
وردّد تمردي : الست حرة ؟ انا حرة !
ولكن ...
هل يشمل معنى الحرية ، سوءّ التصرف ، وعدم مراعاة شعور الآخرين ؟
ثم ... ما هي هذه الحرية التي ترغمني على الذهاب الى زياد ، منقادة ، طائعة ؟
لا ... انا لست حرة !
بمطلق حريتي ... دفنت حريتي ، واحببت زياد ...
اكاد اختنق ! انا لست حرة ! ان هذا الحب يقيدني ، يكبّلني ، يأسرني ...
تركت ألفريد وحيداً ، اسأت اليه ؛ وهل يستحق زياد ان اضحي من اجله ، بعاطفة شخص آخر ؟
ولماذا اسيء الى ألفريد ؟ هل ألومه لانه ولد في بلاد غير بلادي ، وتشرب عادات غير عاداتي ؟ هل الومه لأن طباعه لا تتجاوب وطباعي ؟ هل ألومه لأنه يمل في بلدي ؟ هل ألومه لأنه « هو » ؟
كم انا مخطئة !
وفتحت الباب بهدوء ، ودخلت البيت على أطراف اصابعي . ماذا سأقول له لو سألني اين كنت ؟ انا لا اخافه ، انا لا اخاف احداً ، لكنني اكره الاساءة الى انسان لم يؤذني !
انه مازال ساهراً ، فالضوء المتسرب من غرفته يخبرني بذلك .

مشيت حذرة ، سألج حجرتي حالاً ، واغرق في سريري . ولكن صوته ضعضع حذري :

– أهذا انت يا ريم ؟ تعالي ...

اضطربت ، ووقفت مترددة . ثم ... دخلت متثاقلة ، وابتدرته :

– لقد تأخرتُ ... لأن ...

لم ينتبه لما قلتُ ، بل لم يرفع انظاره عن اللوحة المنصوبة امامه ، ولم تهتز يده وهي ترسم آخر خط فيها ...

– تعاليْ ... انظري ... لقد انتهت لوحتي ... ما رأيكِ ؟

وقفت وراءه ، اتأمل في هذه اللوحة ؛ يد مبسوطة ، وحبوب القمح في الراحة تبدو كنقاط شمسية تنساب اشعتها صوب شحرور ، يغرد على غصن بعيد ...

– انا ارسم منذ ذهابك ... وكنت خائفاً ان تعودي قبل ان انتهي ... ما رأيكِ ؟

– يعجبني انسجام الألوان ، وهذه الطبقات المختلفة لكل من اللونين ... لماذا ... لماذا اخترت هذين اللونين ؟ الأزرق والأصفر ؟

– لان مجموعهما يعطي اللون الأخضر ، وهو لون الأمل ...

– وهل تمثل الأمل ... هذه اللوحة ؟

– اذا شئت ... انها تمثل الحب ... الحب الذي لا تعرفين . !

رفعت حاجبي ساخرة :

– انا لا اعرفَ الحب ؟

ـ نعم ... هذا الحب لا احد يعرفه في عصرنا ... الحب المجاني ... الحب للحب لا لأخذ مكافأة ! هذا الحب هو العطاء الدائم ... اليد التي تعطي ، وتعطي ... وتظل طيلة حياتها مبسوطة ، تحمل الحبوب ، والطائر لا يكترث لوجودها .

ضحكت .

هل اخبر ألفريد انني افنيت روحي وانا اعطي ؟ لا !

قلت متأثرة :

ـ انت على حق ... الآن ... الآن فقط انا لا اعرف هذا الحب ، كنت اؤمن ان الحب عطاء ، ان الحب تضحية ، ان الحب هبة النفس دون مقابل ... لا والف مرة لا ... هذا ليس حباً ... هذا غباء ...

وتنبهت على ان لهجتي كانت منفعلة ، والتفتَ اليّ ألفريد ، وتأملني ، وابتسم .

ـ لماذا تبتسم ؟

ـ لان ما تقولينه صحيح ! ولكن هذا الغباء جميل ... جميل جداً يا ريم ...

ابتسمتُ بدوري :

ـ ولوحتك جميلة ... جميلة جداً ...

ـ اتعجبك فعلاً ؟ اتريدينها ؟

دهشتُ !

كنت اعلم ان ألفريد يحتفظ بجميع لوحاته ، ويأبى حتى ان يعرضها على جميع الأصدقاء ، وكأنه فهم ما جال في

خاطري ، فابتسم وهو يقول :

ــ انا جاد في قولي ... رسمتها من اجلك ... انها لك ...

رحت اتقلب في سريري ؛ الحب عطاء ... عطاء ... عطاء دائم ... نعم آمنت بذلك في الماضي ، فاعطيت ، واعطيت ، واعطيت ، فماذا كانت النتيجة ؟

أعطيت كل ما في وسعي ان اعطي ، وهل تستطيع المرأة ان تعطي اكثر مما عندها ؟ حطمت نفسي ، وعصرت روحي ، وتفانيت في عطائي .

لم اقدم حياتي فحسب ... بل فديت حبي ، بطموح حياتي ! فماذا كان الرد ؟

كنت ساذجة ، وضعيفة ؛ والضعيف يعطي !

لكنني تعلمت ...

وانا اؤمن الآن ، بأن الحب اخذ وعطاء ، وتفاني روحين في سبيل الأكمل ...

٥

جلست امام طاولتي ، اتساءل :

انا احب الشعر ، لأن الشعر يزين حياتي بالمعاني ...
انا اعطي من وقتي للحرف ، لان الحرف يعطيني لذة ، ورضاءً ، واملاً ...

ودخلت ناديا وابتدرتني :

ـ عظيم ! كيف جرى ان استيقظت باكراً ؟ يسرني ان اجدك غارقة بين أوراقك ...

ـ صباح الخير يا ناديا ...

ـ ماذا تكتبين ؟ يجب ان تكتبي دائماً ...

ـ انا لا اكتب الآن ، بل اسائل الحروف ، واسألك انت : أليس الحب اخذاً وعطاء ؟

– يا ريم ... انت كطفلة في الرابعة عشرة من عمرها !
ألا تفكرين إلا في الحب ؟

– اصبحت احب الحب !

ضحكت متسامحة :

– هذه مصيبة ، لأنك ستتخذين الحبيب كوسيلة الى الحب ، لا الحب كوسيلة الى الحبيب ...

علا ضحكي :

– ما اعمقَ هذه الفلسفة !

– اين ألفريد ؟ هل استيقظ ؟

– انه يدرس في غرفته ؛ تعالي نجلس في الردهة الصفراء كي لا نزعجه بصوتنا ...

– ريم ... عندي سؤال ... هذه اول مرة احدثك فيها بكل صراحة ؛ هل وصلت الى قرار في علاقتك مع ألفريد ؟

– انا اعزه يا ناديا ، ولكنني لن أتزوجه ...

– افهمك ... ان ألفريد عظيم ، ولكن ، قد لا تتفقين معه اطلاقاً ... فانتما الآن ، لا تتفقان على رأي ! هل تفكرين في الزواج الآن ؟

– مطلقاً ... مع انني الآن افهم ان الزواج ضروري ، وانه الوسيلة الوحيدة التي تربط الرجل بالمرأة ، فالرجل لا يؤتمن وهو بطبيعته قليل الوفاء ... نعم الآن افهم فوائد الزواج ولكني ... انا شخصياً لا اريد الزواج ... على الأقل الآن ...

وسكتّ ؛

وفي سكوتي ، نبع سؤالُها مفاجئاً ، صريحاً :

– ريم ... اخبريني ، اما زلت تحبين زياد ؟

لم اكن اتوقع ان يعرض عليّ ايّ انسان مثل هذا السؤال ، فتلعثمت :

– نعم ... لا ... بلى احبه !

ابتسمت وهي تقول :

– مجرد ترددك معناه انك لم تعودي تحبينه !

لم اردّ ؛ لم اقل شيئاً ، فقد عجبت من نفسي ... كيف اتردد ؟ أأنا لست واثقة من حبي لزياد ؟

يعتقد الانسان احياناً انه يفهم موضوعاً معيناً تمام الفهم فلا يفكر فيه مطلقاً ، وحين يطرح عليه سؤال ، فجأة ، بخصوص هذا الموضوع ، يجد نفسه عاجزاً عن الأجابة ، ويتبين له انه لم يفكر مرة في هذا السؤال ، وانه يجهل الأجابة ...

– فيم تفكرين ؟

– كنت ايام الدراسة يا ناديا ، اتعمق في شرح المواضيع الصعبة ، وامرّ بالمواضيع البسيطة مرور الكرام ظناً مني انني اعرفها تماماً ، وكانت تعتريني الدهشة حين يطرح علي الاستاذ سؤالاً من ابسط ما يكون ، فارتبك في الأجابة ! لماذا ارتبكت الآن ؟ لست ادري ...

– ترددت في الأجابة ، لانك لا شعورياً ابتدأت تملينه !

– لا ... انت مخطئة ... انا احبه ... احبه كثيراً ...

ابتسمتْ ... فانزعجتُ :

ـ اؤكد لك انني احبه ... ألا تصدقين ؟

ـ وما قيمة رأيي انا في هذا الموضوع ... اسمعي يا ريم ، تسلمت البارحة رسالة من خالك سمير ، يقول انه لم يستطع ان ينهي اعماله في اوروبا ، لذلك سيأتي الى هنا لمدة اسبوعين ، يعود بعدهما ... وهو يريد ان يصحبني هذه المرة ، ويسألني اذا كنتِ انت تودين مرافقتنا ... فما رأيكِ ؟

ـ الى اوروبا ؟ هذه فكرة رائعة ... انا بحاجة ماسة الى السفر ... انا اتوق الى الضياع في بلاد كبيرة ...

ـ وسيكون ألفريد في اوروبا ...

فجأة ،

فكرت ان ذهابي معناه تركي زياد ؛ لا ... لا ... لن اذهب ؛ بردت لهجتي وانا اقول :

ـ على كل حال ... لدينا الوقت الكافي للتفكير في الموضوع .

ووقفت ناديا ، وخرجت ، فقد كانت على موعد مع صديقة .

ركضت الى الهاتف ، اغرس اصابعي في الدوائر الصغيرة وازرع لهفتي في الأرقام ...

سأقول له انني احبه ... وانني لا اريد الذهاب الى اوروبا ... سأقول له أنني انتظر بفارغ الصبر سفر ألفريد ، لاعيد البيت مثلما كان ، لأخلق من جديد اطار حبنا ، وليتسنى لِي استقباله كلّ يوم ، وكل ليلة ، وكل ثانية ...

سأقول له أنني ...

وسمعت صوته :

– الو ؟ ريم ؟ يا صباح الخير ... يـا اهلاً بصوتك الجميل ...

– مرحباً زياد ... ما اخبارك ؟

– انا اتحرق شوقاً الى رؤيتك يا حبيبتي ... لماذا لم تخابريني البارحة ، حين وصلتِ الى البيت ؟ بقيت طوال الليل ادور في غرفتي قلقاً ...

– لم استطع فقد كان ألفريد ساهراً ، ينتظرني ... وقد ...

قاطعني مستاءً :

– وهل اكملت السهرة معه ؟

– جلست معه لفترة ...

فهمت من صمته انه تضايق ، فقلت :

– زياد ... انا اخابرك الآن ، لاعتذر عن البارحة ...

قال بفتور :

– هل أراك الليلة ؟

– لست ادري ، سأعمل جهدي ... على كل حال سأخابرك مرة ثانية ...

واقفلت الخط ، وبقيت يدي تعتصر السماعة : « اخبريني ايتها الآلة الجامدة ... اخبريني لماذا لم اقل لزياد كل ما لاكته افكاري طيلة لحظات ولحظات ؟

لماذا ... لماذا عند سماع صوته ، وعند رويته ، لا اشعر

بشيءٍ من هذه العاطفة الضارمة ؟

لا ...

انا لم اعد احبه مثل قبل ! لماذا اذن أراه ؟ لماذا اجتمع به ؟ ما الذي يدفعني الى محادثته ؟ ما الذي يربطني به حتى الآن ؟

اهي قوة الأستمرار ؟ اهي العادة ؟ اهي صعوبة بتّر العلاقة وهي في الأوج ؟ أأنا اتخذه وسيلة الى الحب ؟ كما قالت ناديا !

ام انني فقط ...

احاول واحاول عبثاً ان احيي فيه ، وفي اللحظات الحاضرة ، ذكرياتي الجميلة الماضية ؟

فتحت باب القاعة واذا بألفريد يخرج من غرفته ،

– ريم ، يُعرض اليوم فيلم رائع في سينما الدنيا ، هل تودّين مرافقتي ؟

قلت ، ألومه :

– كيف تستطيع ان تذهب كل يوم الى السينما ؟

اجابني هازئاً :

– وماذا يوجد غير السينما في هذه البلدة ؟ هل ترافقينني ؟

خطر لي خاطر ، نفذته حالاً :

– سنذهب غداً اذا شئت ... اما الليلة فأرجوك ان تبقى هنا ... سأستقبل بعض الأصدقاء ... ويهمني بقاؤك ...

استاء :

– انت تعلمين انني اكره الاستقبالات والاجتماعات ، استقبليهم انتِ ، ما داموا اصدقاءك ... اما انا فسأذهب الى السينما ...

رفعت نحوه عينين ، راجيتين ، ملحتين ، وقلت برقة :

– ألفريد ... يهمني ... يهمني كثيراً وجودك معهم ... سأرافقك غداً الى السينما ... اما اليوم فلنسهر هنا ...

جاءت نظراته الثاقبة تنبش في عيوني عن خفايا طلبي ، ثم امرع الحنان في الخضراوين ، وقال بمكر :

– انت لا تطاقين ... لا تطاقين ...

واردف مطاوعاً :

– سأستقبل اصدقاءك ...

اقتربتُ منه بصورة عفوية ، وطبعت على خده قبلةَ شكر خاطفة ، وخرجت مسرعة من القاعة وهو يهز رأسه ويتمتم :

– فعلاً ... لا تطاقين ...

خابرتُ ليلى وبعض الأصدقاء ، وطلبت اليهم ان يأتوا في المساء ، ثم ادرت الرقم المتنفس في أطراف اصابعي ... وسمعت صوته :

– ريم ... انا منذ ساعتين مسمّرٌ امام هذا الهاتف ، انتظر مخابرتك ... هل تأتين اليّ ؟

– لا ... ستأتي انت الينا يا زياد ...

سمعته يشهق :

– هل جننتِ ؟

– ابداً ... سيأتي كل الأصدقاء ... وانت صديق ...

– انا لا استطيع ... لا اريد ان اقابل ألفريد ...

– لا تكن طفلاً يا زياد ... سأنتظرك ... اريد ان يحصل التعارف بينكما ... إن ألفريد لطيف جداً ...

– ولكن ... لماذا ؟ ما الذي يدفعك الى مثل هذا التصرف ؟

جاء جوابي من تلقاء نفسه :

– لانني احب المواقف الواضحة ... لانني اؤمن بكل شيْ افعله ، ولا اريد ان اخفي افعالي ! الى متى نتصرف كاللصوص ؟ اريد ان أراك بصورة طبيعية ... لا تتأخر ... الى المساء ...

٦

جلستْ ناديا ، تتحدث كعادتها ، باتزان ولطف مع الجميع .

اما ليلى ، فقد كانت مضطربة ، لأنها تخيلت ان الحادثة رواية سينمائية ، ولم تحتمل اعصابها فكرة كونها احدى الممثلات

كانت تتبعني انىّ مشيت لتقول همساً :

– انت مجنونة ! كيف تجرأت ودعوت زياد ؟

فأضحك ، وتثور :

– عدم مبالاتك يقتلني !

ثم تعود الى مقعدها ، تفرغ اضطرابها في احاديث صاخبة !

واما انا فلم اكن اشعر مطلقاً بعدم مبالاة ، بل بشيء من الحزن ... والسخرية ...

وامتدت الأحاديث ... وطال انتظاري ... وتململت ليلى في مقعدها ، ثم قالت بغنج مصطنع :

– لماذا لا تقدّمين لنا كأساً من المشروب ؟

ضحكتُ ، فقد كنت اعلم ان ليلى تكره المشروب وقلت :

– انا فقط انتظر قدوم بقية الاصدقاء ...

فالتفت ألفريد يسأل :

– ومن سيأتي ؟

اجبته بهدوء :

– صديق قديم ، لا اعرف اذا كنت تذكره فقد قابلته مرة منذ سنوات عندنا ... وصديق آخر موسيقي ، لا تعرفه ...

لاح السؤال على شفتيّ نادياً ، طبيعياً ، عادياً :

– من هو ؟... زياد ؟

هززت رأسي ايجاباً ، فقالت بلهجتها الجادة الناعمة :

– سيعجبك يا ألفريد ...

واردفت ضاحكة :

– لانه فنان ... مثلك !

أعجبت بترفعها ، واحترمت احساسها المرهف ، وشكرتها بابتسامة ؛

وفي اللحظة نفسها دوى الجرس .

ارتبكت ليلى ... ونظرت اليّ مرعوبة ...

والقى صديق الى ألفريد نظرة جانبية حذرة ...

اما ناديا ، فقد تابعت حديثها مع البقية ، دون ان تأبه لانذار الجرس ...

انسحبت الدماء من وجنتيّ ألفريد ، لتصخب في وجه زياد حين تصافحت اليدان . وجاء صوتي يختم التعارف :

ـ صديقنا الموسيقي زياد ... وطبعاً ... ألفريد

ومرت لحظة ارتباك ، سرعان ما تلاشت ، وانبسطت الأسارير ، وابتسم الاثنان ...

وجلس الجميع . فطلبت من ليلى ان تساعدني في تقديم كؤوس الراح ؛

واضفى حديث ناديا الطبيعي ، ومرح ليلى الصاخب ، ولهاث الخمر ، هدوءاً واسترخاءً على الجو الذي كان من المنتظر ان يكون ثقيلاً ... محرجاً ...

اخذ الكل يتحدثون ويتجادلون ، وسررت حين جمع حديث الفن بين زياد وألفريد ، وشاركتهما ناديا المناقشة ...

جلست شاردة ، اشرب « الويسكي » واغرق نظراتي في كأسي ، لأرى صورتيْ زياد وألفريد تنعكسان ، متراقصتين ، في السائل الذهبي الشفاف ...

بينهما !

انا ... بينهما ...

بين فورة الشباب واندفاعه ... وحياة اثقلتها سنون التجارب

بين جبين شمخ بالطموح والآمال ... وصدغ خطت عليه الذكريات اسطراً بيضاً ...

بين قلب يخفق بصمت خلف أسوار كبريائه ... وقلب انهكه الاستهتار ، ليدميه اخيراً الندم ...

بينهما ...

بين عاطفة عميقة ، لكن انانية ، تحجب عني الهواء ، وتنكر عليّ حق الحرية والفردية ... وعاطفة عابرة ، تنكر عليّ معنى الكرامة ، فتباع وتشرى بخصر مياد ، او بشفتين مكتنزتين ، او بنهدين متمردين ... وتُذلني !

بينهما ...

بين خطيبي ... وحبيبي ...

وشعرت بحاجة الى البكاء ... شعرت بأنني طفلة صغيرة ، بعيدة ، غريبة عن الجميع ... وحيدة في وسط صحراء شاسعة قاحلة ...

وكي اخفي الدمعة المترقرقة في عيني ، جرعت كأسي دفعة واحدة ؛ فوقعت نظراتي على زياد ، وكان ينظر اليّ ، ثم انتقلتْ الى ألفريد الذي دنا مني ، ليأخذ الكأس الفارغة من يدي ، يملأها ، يعيدها اليّ من جديد ، والابتسامة الحنون على شفتيه ...

وددت لو ارتمي بين ذراعيه ، لاستدرّ من شبابه قوةً تحميني من حبي لزياد ...

لكنه ابتعد مع ليلى التي طلبت إليه ان يسمعها الأسطوانات

الجديدة ؛ ثم سمعتهما يناديان زياد ، ليرى هذه الأسطوانات..

فعدت الى كأسي ، وراحت نظراتي السكرى تعمر فيها وجوداً ...

وتضخمت الكأس ، وطفحت الخمر ، وكأنها بحر من الدموع ...

وامتد طريقان ، متعاكسان... في وسط السائل :

طريق زهت احجاره بالمعاني ، وبديع الألوان ...

وطريق ترنحت زهوره طرباً من الحان رائعة ...

وانا ... انا على مُفترق الطريقين ...

فأيهما ... ايهما اسلك ؟

أأسكب دفء حياتي على الاحجار الملونة البديعة ، فأصبح اميرة هذه الأحجار ... واسيرة هذا الطريق ؟ ام أطلب الدفء من النسائم الملحنة الرائعة ، فأبقى حرة ، ولكن ... عابرة ، لا تلتفت الى مروري الزهور ...؟

ايهما اسلك ؟

وفجأة ...

شقت طريق ثالثة ... وامتدت الى اللانهاية ... طريق تلمع في سمائها الرحبة النجوم ، وتنساب الدموع سواقي على جوانبها ، وتتفتح الابتسامات وروداً مبعثرة في مساحاتها ...

ورفعت الكأس الى شفاهي ، فاذا النجوم ليست الا ... حروفاً ... باسمة ...

شعرت حالاً بحاجة الى الاندفاع في هذه الطريق ، لاذرّ

دموعي في سواقيها ، وازرع ابتساماتي في حناياها ... واحلق في سمائها ، فاعانق حروفي ، وابثها اسراري ، واضيع بينها ...

وجرعت من الويسكي ، واذا بصوت ناديا يعيدني الى دنيانا :

– لماذا انت شاردة ؟

ابتسمتُ :

– لست شاردة ، انا اعيش في دنيا كأسي ...

علّق زياد ، وكان قد اقترب منا مع ألفريد وليلى :

– وهل هناك اروع من دنيا الكأس ؟

ثم اردف مازحاً :

– خذينا الى هناك ...

فابتسم ألفريد بمكر ، وقال بهدوء :

– من يدري ؟ قد نكون هناك ...

وارتفع صوت الموسيقى ، ومرت اللحظات ، والتعليقات تتوالى ، والكل يتناقش ، والكل يضحك ...

وبقيت انا شاردة ... اجرع الكأس تلو الاخرى ، واسكرُ ... في دنيا كأسي ... من دمع كأسي ...

٧

ـ ريم ... لقد قررت موعد سفري ... نهار الاثنين ... اي بعد ستة ايام تماماً .

رفعت رأسي الغارق بين الأوراق ، ونظرت الى ألفريد ؛ تابع :

ـ سأذهب عن طريق تركيا ، الى اليونان حيث امكث بضعة ايام ، ومن هناك ، استقل الباخرة الى فرنسا .

ـ وكم من الوقت ستمكث في فرنسا ؟

ـ ستة اشهر ... ثم اطير الى اميركا لسنتين ... ريم ... هل من المنتظر ان ترافقي ناديا وسمير الى اوروبا ؟

ـ لست ادري ... فالامتحانات في الجامعة تبتدئ في حزيران ...

ضحك :

– لا افهم كيف ستتقدمين الى الامتحانات ، وأنت تكتبين الشعر طوال النهار ، ولم تقرئي المواضيع بعد ...

ثم سأل :

– ريم ... ماذا تفعلين الليلة ؟ لقد قاربت الساعة الثامنة ... هل تسهرين مع الاصدقاء ؟

الساعة الثامنة ! ذهلتُ ...

كيف نسيت ان اهيئ نفسي ، فقد وعدت زياد منذ ايام بأنني ساسهر معه الليلة ...

وردّد ألفريد سؤاله ، وانهلّت نبراته الراجية في قلبي ، عطفاً وحناناً ...

– ماذا تفعلين الليلة ؟

– لماذا ؟

– لانني اتمنى لو ترافقينني الى احد المطاعم فنأخذ طعام العشاء ...

وغمغم بطفولة :

– ولا احب ... ان اكون وحيداً ... في مطعم ...

شعرت بحاجة الى سقي حاجته الظامئة ... يرضيني ان ازين فراغ وحدته ، ويسعدني شُعوري الداخلي بأنني اؤنس وحشته ... ولكن ...

لكن زياد ينتظرني ...

وحالاً شعرت بقيود تكبلني ... وبقوة جامحة تدفعني

اليه ... يجب ان اذهب الى زياد ... وانزعجتُ !

الى متّى أظلّ عبدة لعاطفتي ؟ انا التي اطالب بالحرية ، يجدر بي اولاً ان احرر نفسي من عبودية نفسي ...

ونظرت الى ألفريد ؛

كانت عيونه صلاة صامتة ...

كيف اخبره انني سأسهر مع « الأصدقاء » ؟ انا لست خائفة من اسئلته ، او تعليقاته ... فهو لن يقول شيئاً ... انا اعرفه ؛ لن تختلج اهدابه ، ولن ترتجف شفاهه ، بل سيدفن في أغوار قلبه اساه العميق ، ليقول بعنفوان :

« لابأس .. على كل حال ، انا اوثر الذهاب الى السينما .. »

ويبتسم ابتسامة باهتة ويخرج من القاعة ...

لا ... لا ! كيف اقبل ان اجرح ألفريد لأروي من نزفه جرحي انا ؟ كيف ابني سعادة ليلة على اشلاء نفسيته ؟

ثم ... البارحة فقط اجتمعت صدفة بزياد ، وكنت في المكتبة العمومية اشتري مجلات ، فلماذا لا اترك مجالاً من الوقت ، ليزداد شوقي اليه ؟

وسمعت صوت ألفريد ضجراً :

ـ ماذا بك ؟ الا تسمعين ؟

ضحكتُ :

ـ بلى ... اسمعك جيداً ... هل تعطيني نصف ساعة كي اهيئ نفسي ... وارافقك ؟

اعجبتني ابتسامته الشاكرة ،

وسرني بريق الفرح في عينيه ،

واطربني صمته المعبّر ...

فخرجت مسرعة ، وولجت غرفتي ابحث عن ثوب جميل يعانق جسدي ، ويعجب ألفريد .

*

— اذن ... سهرت البارحة مع ألفريد ، وتركتني انتظر ...

— لقد رجاني ان ابقى معه ... فأشفقت عليه ...

نظر اليّ حاقداً ، وقال بلهجة فاترة لئيمة :

— اشفقت عليه ! لماذا لا تقولين انك تحبينه ؟

— انا اعزه كثيراً يا زياد ، ولا اريد ان اوذيه ... لكنني لا احبه ...

— بلى ... انا واثق من انك اصبحت تحبينه ! لأن تصرفاتك تغيرت تماماً ...

— تصرفاتي تغيرت ؟

— بلى ... شيء من البرود اصبح يغشي تصرفاتك ... انت مثلاً منذ يومين لم تخابريني ...

— وهل تقدر حبي بعدد المخابرات التي افتحها لك ؟

— لا ... انت تغيرتِ ...

— يا زياد ... ان الظروف التي تحيط بحبنا تغيرت ، انا لا احب ألفريد ... واذا كان يرضيك ان تعلم مدى علاقتنا فسأعترف لك بأنه لم تكن بيني وبينه اية علاقة ! وهو لم ...

لم يقبلني !

– لا تكذبي عليّ يا ريم ...

– لم يقبلني ... لم يمسّ يدي ...

فتح عينيه مستغرباً ، وتمتم :

– هذا مستحيل !

غاظتني كلماته :

– الأنني سمحت لك بأن تقبلني ، أصبحت تعتقد ان اي رجل باستطاعته ذلك ؟ انا لا احب ألفريد ، واذا كنت لا افارقه هذه الأيام ، فلأنه مسافر بعد خمسة ايام ...

– حبيبتي ... انا ...

قاطعته :

– ان غيرتك في غير موضعها ... حاول ان تفهم ظروفي ... لقد عملت المستحيل حتى آتي اليك اليوم ، لانني لن استطيع ان اجتمع بك في الأيام الخمسة المقبلة ... فانا لا اريد ان اتركه ... انا اعزه ... حاول ان تفهم ذلك ...

– حبيبتي ... ان اعترافك اجمل هدية يمكن ان تقدم اليّ ...

واقترب ، واحتواني بين ذراعيه ، وقال ثملاً بنشوة الفرح :

– حبيبتي ... كيف اقبل ان يسكر من رحيق شفتيك رجل غيري ؟ انا احبك ... احبك ... انا لم اعد اتحمل فكرة سهراتك الكثيرة مع الاصدقاء ... من هم هؤلاء الاصدقاء ... ريم ... انا اغار عليك ... اغار ...

« يغار عليّ ! »

ان غيرته اليوم تغيظني ... وتضايقني ! هذه الغيرة حصار يرسم الدوائر حول حياتي ... ويضيق ... ويضيق ... ويكبلني .. ويخنق انفاسي ...

وشعر ببرودي فقال :

– لكنك تغيرتِ ... انت لا تحبينني مثل قبل ...

– انت تعلم انك الوحيد الذي أحب

– لا ... لا ... أشعر بانك لم تعودي تحبينني

– يا زياد ... ان حبي ما زال كما هو ... لكنه اتخذ شكلاً جديداً ... كنت تضيق بحبي الجنوني ، فها انا اليوم اعطيك حباً هادئاً عميقاً ...

– لقد كنت احمق يا ريم ، ولم اقدر عاطفتك الصافية الشفافة ...

– كانت عاطفتي ساذجة ... انا الآن احبك بفن !

صرخ :

– لا ... لا ... لا اريدك ان تحبيني بفن ... انا بحاجة الى جنونك ... بحاجة الى ان اشعر بأن حبك يغمرني ...

– لكنني احبك يا زياد ... احبك كثيراً ... انا ...

احنى رأسه ، يرشف الكلمات العذاب من شفاهي ، ثم ابتعد عني ليسأل مذعوراً :

– لقد اخبرتني ليلى بأنك قد تذهبين الى اوروبا ... اهذا صحيح ؟

ـ لست ادري يا زياد ... لكنني اتوق الى السفر

غمغم حزيناً :

ـ ماذا افعل لو ذهبتِ ؟

اجبته مازحة :

ـ سأمر بذكراك في بعض الأحيان ...

هزّ رأسه مستنكراً ... ثم سأل فجأة :

ـ ريم ... هل تتزوجينني ؟

ما اقسى القدر !

لو القى عليّ هذا السؤال منذ شهرين فقط ، لارتميت بين ذراعيه ، ولاجابته دموعُ فرحي ؛

لكنني اليوم ارى الهاوية السحيقة التي انزلق فيها لو تزوجته ... سألته بدوري :

ـ لماذا تريد الزواج ؟

ـ لانني احبك يا ريم ... ولا اريد غيرك أماً لأولادي ... انا الآن اتوق الى الحياة الهادئة ... الى الحياة العائلية النظيفة ... اصبحت لا اطيق وحدتي ...

ـ ولكن الوحدة خصبة ... اليست هذه آراؤك ؟

ـ لم اعد اطيقها ... بل لقد صرت اخافها ... واخاف من المستقبل ... لاول مرة اشعر بأنني فعلاً وحيد ... احبك يا ريم ... واريد طفلاً منك ... ولا اريده الا منك ...

قذفني الحنين الى الماضي ، فابتسمت بمرارة ، وحشرجت :

ـ طفلة ... وسندعوها « لنا » ...

– احبك يا ريم ... هل تتزوجينني ؟

اعادني السؤال الى الواقع ، وكأن حنيني لم يكن سوى بريق ، لمع واختفى في ظلام الذكريات ...

هل اتزوج زياد ؟ هل اضحي بكل شيءٍ عندي من اجله ؛ هل اضحي بفني ... بشعري ، لاصبح آلة تعطي اطفالاً ؟ قطعة من اثاث بيت زياد... يستعملها حين يشاء ... ويضيّق ... يضيق عليها الحصار ، دون ان يسمح لها بأن تشاركه حياته ؟

– فيم تفكرين ؟

– يا زياد ... الفن والزواج لا يجتمعان ...

– ارجوكِ ... لا تحاربيني بآرائي ...

– لكنها اصبحت آرائي ... انا مؤمنة بها ... كيف تضحي بفنك وتتزوجني ؟

– اذا طلب مني ان اختار بينك وبين فني فلن اتردد لحظة ... انا لا اريد شيئاً غيرك في هذه الحياة ...

– هل جننت يا زياد ؟ انت تحب فنك ... ويجب ان تعيش من اجل فنك ... ان فنك هو الشيءُ الوحيد الذي يستحق التضحية . نعم كنتُ اريد الزواج ... كنت ارحب بالزواج عندما كنت ضعيفة ... تائهة ... لكنك انت يا زياد حملتني الى الواقع ... علمتني ان احب فني أن اعتني بفني ... ان اعيش للشعر ... وانا الآن مؤمنة بان الزواج والفن لا يجتمعان ...

تأملني ملياً ، وغمغم :

– وتقولين انك تحبينني !

– احبكَ نعم احبك ... ولكن يجب ان نكون واقعيّين ، ونستعمل منطقنا ... كيف تضحي بفنك من اجلي ؟ ان فنك كبير ... عظيم ، وانا امرأة ... امرأة كسائر النساء ، امرأة عابرة في حياتك ... انت تحبني اليوم ، وقد تبغضني غداً ... من يدري ؟ عاطفتنا تافهة مثلنا ... تكبر ، وتهرم ، وتزول ... ولا احد يدري متى ، ولماذا تزول ... اما فنك فسيبقى ...

– تغيرتِ ... تغيرتِ كثيراً ...

– وانتَ تغيرتَ يا زياد ...

– حملتك الى الواقع ... نعم ... علمتكِ ان تعيشي الواقع ... علمتك ان تحبي فنك ... علمتك ان تصبحي قوية ... علمتك ... علمتك ... ففقدت حبك ...

اغرورقت عيناي بالدموع ، وتمتمت حزينة ، يائسة :

– حتى انت ... تعتقد انني لا احبك ... زياد ... انظر اليّ ... لن احبّ انساناً مثلما احببتك ...

امرّ يديه على وجهي ، كما يتحسس الفقير اناءً ذهبياً ، ثم تركه فجأة ، وجاءت ذراعاه تقبضان عليّ بشدة وقساوة ، ووثبت شفتاه تحاولان تمزيق شفاهي ، وكأنه يريد ان يصبّ في شفاهي نقمته من عاطفتي الواقعية ؛

ارتعش جسدي ، وتهدج صوتي في توسله :

– زياد ... قل لي إنك تعرف انني احبك ... ارجوك زياد ... قل لي ...

لم يتّل ، اكنه تمتم :

ـ كنت غبياً ... كنت غبياً ... اكنني لم ادرِ انني ساحبك الى هذا الحد ...

*

خرجت من عند زياد ، واليأس يرهق نفسي ... لماذا يتلاعب القدر بعاطفتنا ؟

ان زياد اليوم كما تمنيته دائماً ان يكون ، اما انا اليوم فكما كان يجب ان اكون ...

نعم ... تغيّرنا نحن الاثنان !

نجحت الظروف في تحويل مجرى عاطفة كلٍ منا ...

نجح شعري وفني ، في ايقاظي على عالم الواقع ، وعجزت ملذات الواقع ان تنسيه حبي ...

اصبح هو الانسان المتدفق شعوره ، وصرت انا ، المرأة الواقعية التي لا تؤمن بالعاطفة ...! يا للسخرية !

وصلت الى بيتي حزينة ... ما همني تأخري ؟ سأعترف لألفريد بكل شيءٍ ...

لقيته واقفاً في القاعة :

ـ اهلاً ريم ... تأخرتِ ... فقد كان عندي صديق يودّ ان يراك ، لكنه لم يستطع ان ينتظرك وذهب منذ لحظات ... ولكن ... ما بك ؟

ـ ألفريد ... اشعر بيأس ...

– قطتي الصغيرة في حالة يأس ؟ تعالي ... اجلسي الى جانبي ، واخبريني ما بك ...

– ألفريد ... يجب ان ... لكن كيف ...؟

– ريم ... لماذا تخافين ان تخبريني بالذي يزعجك ؟ انت تعلمين انني لست سوى صديق لك ... صديق يحبك كثيراً ، ويخلص لك ... ويريد مساعدتك ...

– ألفريد ... لقد ... لقد تعرفت في غيابك بشخص ... واعجبني ... واحببته ...

علت شفتيه ابتسامة حنون وقال :

– اعرف قصتك يا ريم ...

سكتّ ، واستجوبتْه نظراتي فتابع :

– ولا تعجبي ... هل تظنين انه يوجد شخص في هذا البلد لا يجد لذة في الاساءة الى غيره ؟ الناس هنا يعيشون للاقاويل ... ويتغذون بقصص الآخرين ... وقد جاءني اكثر من واحد يخبرني بقصتك ...

وضحك ساخراً وهو يتابع :

– وطبعاً ، كان كل واحد يعتقد انه يؤدي لي خدمة كبرى ...!

– ولكن ... ما همهم اذا عرفتَ قصتي ام لا ...؟

– يا ريم ... يظهر انك ما زلت طفلة ... يجب الا تسدل طيبة قلبك غشاوة على عيونك ، ان الناس هنا يجدون لذة كبرى في اثارة المشاكل ، ويسرهم كثيراً حزن الآخرين ...

وطبعاً كان املهم ان أغضب ، واثور ، واتخاصم معك !

– ولكنني لا اعتقد انني اسأت الى اي شخص يا ألفريد ؟

– متى تفهمين ان كل واحد يشمت بالآخر لمصيبة تحلّ به ، دون ان يكون المصاب قد اساء الى احد ؟ ولكن ثقي ... لقد اخبرت الجميع بأنني اعرف قصتك ، وانني احبك ، واحترمك ...

– ولمَ لم تحدثني بهذا الموضوع ؟ لماذا تجاهلته ؟

– ولماذا احدثك به ؟ انا ليس لي حق التدخل في مشاكلك الخاصة ، فأنت حرة تماماً ، ونحن لسنا مخطوبين كما تعلمين ، وما اردت ان اتطفل عليك فتعتقدين خطأ انني اعاتبك ، او انقم عليك ، او اطالب بشيء ليس من حقي ...

تذكرت حالاً حادثة الليلة الاولى لاجتماعنا ، وكأنه قرأ تفكيري ، فقال :

– يا ريم ... اذا اردتُ ان اقبّلك فما ذلك لانك خطيبتي ، او لأنني اعتقدت انك خطيبتي ... بل لانني احبك ، ولم استطع في تلك الليلة ان اكبت شوقي الصارخ اليك ... والآن اطلب منك ان تعذريني اذا جرحت مشاعرك ...

طفح قلبي بعواطفَ ساميةٍ ، يائسة ... تعانقت ... وتشابكت لتفيض بسكون دموعاً تغسل خديّ ، وقربت رأسي المتعب بحركة فطرية ، لادفن وجهي في كتف ألفريد ...

– ماذا بك الآن يا ريم ؟ ماذا بك ؟

– اشعر ... بوحدة ... غريبة ...

– يا ريم ... اصغي الي ... يجب ان تعلمي انك لن تجدي صديقاً لك احسن من نفسك ! القوة كامنة في اعماقك ... اوجديها ... لا تنتظري ان يساعدك احد في حل مشاكلك لأن الناس ، عند الحاجة اليهم ، يتبخرون ... والاصدقاء يختفون ! كل واحد منا انانيّ ، يركض وراء غاياته ولن يفيدك احد ... السعادة والراحة في نفسك ، وعندما تتفقين ونفسك تصبحين قوية جداً ... هيا ارفعي اليّ هذا الوجه الجميل ... وابتسمي ! ماذا ينفع البكاء ؟ هيا ارفعي رأسك ، وانظري اليّ ... اليس من الحرام ان تبكي هذه العيون ؟

– ما اتفه الحياة !

– الحياة جميلة ... جميلة جداً ، ولكن يجب ان تفهميها لتفهمي وتريْ جمالها ...

وأردف مازحاً :

– انتِ تصبحين تافهة عندما تيأسين ! ومع ذلك انا مستعد الآنَ ، لأن اصطحبك الى نزهة في السيارة ... فاجمل ما في دمشق لياليها ... هيا بنا ... وأعدك ، بأنني لن اسرع ...

٨

وصل خالي من اوروبا ، وعادت ناديا الى بيتها ، فجاءت جدتي تقيم عندي ، لان فكرة بقائي وحيدة مع ألفريد زعزعت كيانها ، ولم تدرك ان وجودها وعدمه ، لا يعنيان شيئاً بالنسبة الى تصرفي مع ألفريد .

وحين شرحت لها هذا قالت كالعادة :

– انا واثقة منك يا حبيبتي ، ولكن ... ماذا سيقول الناس ؟

وضحكت ساخرة ؛

ساخرة من ثقة الأهل العمياء بأولادهم ، ومن هذه الـ « ماذا سيقول الناس ... »

طبعاً ، ماذا سيقول الناس ؟

الناس الذين يشكون في اخلاقي ، بل يحكمون على اخلاقي إذا تجرأت ودعوت شاباً لأخذ فنجان من القهوة في بيتي ... لان تفكيرهم يدور حول محور واحد ، ويصرّون على اعتقادهم بان اجتماع اي رجل باية امرأة ، يجب ان يؤدي الى النتيجة التي رسمها الحرمان في مخيلتهم !

نعم ... ماذا سيقول الناس اذا بقيت وحيدة في بيتي مع رجل لم اتزوجه بعد ؟

ولم احاول ان اشرح لها ، ان احكامي وتصرفاتي يلفظها عالَمُ نفسي ، لا تفكير الناس ... فهي لن تفهم انني كما ازلت ، برغم آراء الجميع ، الحواجز المنيعة التي كانت تفرقني عن زياد ، اقيم الآن ، بنفسي ، الحواجز بيني وبين ألفريد ، برغم مفهوم الناس ايضاً !

ومرت الأيام الخمسة ، وكان زياد يخابرني كل يوم ، وجاء مرة ليودع ألفريد وجلس معه فترة طويلة ، وانسجما في الحديث ، ثم اصرّ ألفريد عليه ان يتناول الغداء معنا ، مما جعل جدتي تحبس نفسها في غرفتها ، وتثور ...

وفي اليوم الأخير ، وكان البيت يعج بالأهل والأصدقاء ، دخلت غرفة ألفريد ، احمل اليه فنجاناً من القهوة :

— هل تريدني ان اساعدك بشيء ؟

— نعم ... اجلسي هنا ... نتحدث

– لكن الاصدقاء ينتظروننا في الردهة ...
– فلينتظروا ...
اسندت ظهري الى الحائط ، قال :
– يا ريم ... نحن لم نتحدث مطلقاً عن خِطبتنا ...
فتحت عينيّ ، دهشة ، ثم قلت بتحد :
– لكننا لسنا مخطوبين ...
لم يتزعزع هدوء لهجته :
– انا وانت متفاهمان على ذلك ، ولكن الجميع يعتقدون اننا مخطوبان ...
– انهم سخفاء ... يجب ان نطلعهم على الحقيقة ، يجب ان يفهموا ان كل واحد منا حرّ تماماً ...
– بماذا تهمك آراؤهم ؟ ولماذا نعرض انفسنا لاقاويل جديدة ؟
– ولكن ، من المستحيل ان ابقى مخطوبة اليك ...
أورق الحنان بابتسامة على ثغره :
– لماذا يا ريم ؟
– لأنني ... لأنني ...
واحمرت وجنتاي ، وتمتمت :
– انت تعرف قصتي ...
قال بحزم :
– انا لا تهمني هذه القصة ، ولا جميع القصص التي قد تجري معك ؛ انا احترمك كثيراً يا ريم ... ولن احاسبك

على ماضيك ... على سنين قضيتها وانا بعيد عنك ... انا لن اطلب منك اخلاصاً ، اذا كنت لن ابادلك انا هذا الأخلاص ... انت انسانة يا ريم ... لك حق في الحياة مثلي تماماً ... ولست سخيفاً كي اطلب ان اتملك حتى ماضيك ... انا الآن لا اريد الزواج ، فأمامي سنون يجب ان اتم فيها دراستي ؛ فإذا كنت لا ترغبين انت الآن في الزواج بشخص آخر ، فلماذا لا نظل مخطوبين ، ونحرم الناس من لذة قصة جديدة يلوكونها ؟ ما رأيك ؟ اما زلت مصرة على ان نفسخ هذه الخطبة ؟

بقيت صامتة ، امضغ آراءه ، واتلذذ بطعمها :

« انت انسانة ... لك حق في الحياة ... مثلي تماماً ... »

« لك حق في الحياة ... لك حق في الحياة ... »

ما اروع هذه الجملة :

انا انسانة لي حق في الحياة ...

هل يتجرأ زياد على التفوه بمثل هذه الجملة ؟ هل يسمح له غروره الشرقي بأن يعترف لي بحقي ... ان يعترف بأنني لست قطعة من اثاث البيت ؟

– لماذا سكتّ ؟ يا ريم ... انا قد لا اعود الى هذه البلاد بعد انهاء دراستي ، ولكن ، من يدري ما سيحمله لنا المستقبل ؟ ربما رست سفينتانا في يوم من الأيام على مرفأ واحد ... فلمَ نقطع آخر خيط في موضوع خطبتنا ؟ لم التسرع ، والأيام امامنا ؟ ليسر كل منا في طريقه ، ربما

اتحدت الطريقان في يوم من الأيام ...

وسكتَ لحظة ، ثم قال بصوت حنون :

ـ هناك شيءٌ آخر ... اريدك ان تعرفيه قبل ان اذهب ...

انصبت نظراتي على شفتيه ، تسحب السرّ العميق ،

فارتعشت الشفتان ... ولمعت العينان ... لكنه تمتم بهدوء :

ـ انا احبك يا ريم ... احبك كثيراً ... وحبي لك اعمق واسمى مما تتخيلين ...

لست ادري لماذا اغرورقت عيناي بالدموع ... وابتسمت برقة ، ولم يسعني الا ان اقول :

ـ انا صديقة دائماً يا ألفريد ... لك الحق ... من يدري ما سيحمله لنا المستقبل ...

وسمعنا طرقاً خافتاً على الباب ، تبعه صوت ناديا :

ـ الاصدقاء ينتظرون !

والتفتُ الى ألفريد ، والتقت نظراتنا ، فابتسمنا ، بحنان واخلاص ، متفاهمين ...

وقال :

ـ هيا بنا ... لقد انتظرونا طويلاً ... وقد حان وقت سفري ...

٩

وقفت وسط حجرتي تائهةً ... أفتش عن صوت او حركة ... افتش في سكون بيتي عن سكون نفسي ...

ولكن الفوضى تعم ... والفوضى تجزئني ... وتفتت افكاري ...

سافر ألفريد ، وانصرف جميع الأهل والاصدقاء ، ورافقت رانية والمربية جدتي ، لتقضيا عندها بضعة ايام ، وبقيت وحدي ...

وحدي في هذه الفوضى التي تتعبني ...

يجب ان اخابر زياد ... اريد ان أراه ... لكنني لا أستطيع ان أراه في هذا الجو المضطرب ...

خرجت الى القاعة ، ثم رحت ادور في بيتي ، ونفسي

تتطاير ، ولا تجد مكاناً اميناً ترتاح فيه ...

ووقفت عند باب غرفة ألفريد ...

وفتحته على مهل ... والقيت نظرة الى الداخل ...

الفوضى تعشش في هذه الغرفة ... تتمدد فيها ... تملأ جوها ...

دخلتُ بحذر ... ومشيت على رؤوس اصابعي ، وكأنني خفت ان ادوس على رماد سجائره المذرور على الارض ، او ان تحفّ قدماي جريدة من جرائده الفرنسية المرمية هنا وهناك ... فتحدث هسهسة تخدش صمت احترامي ...

وعانقت نظراتي كتاباً نسيه على الطاولة ، ثم مددت يدي بوجل التقط ربطة عنق زرقاء لطخت ببقع من القهوة ؛

كان يرتديها منذ يومين ويشرب القهوة ، فدخلت رانية راكضة ، وارتمت بين ذراعيه بطيش ، فاندلقت القهوة ... وحين وبختها نظر اليّ معاتباً ، وقال لي فيما بعد :

« لماذا توبخينها ؟ يكفيها توبيخ نفسها ... الم تريْ كيف ارتبكت وخجلت من نفسها ؟ »

ثم ضحك : « توبيخك على كل حال لن يعيد لي ربطة العنق ... »

تحسستها ... ومسحتها بأناملي ... وطويتها برفق ؛ سأجد لها مكاناً في خزانتي ...

والكتاب ... سأضعه على طاولتي ... وسأحاول ان اقرأه ...

واختلجت عيوني للوحة ، ثم غابت نظراتي في اليد المبسوطة ... اليد التي تعطي ... وتعطي ... وتعطي لوجه العطاء ... اليد التي تعطي دائماً ، ولا تأخذ شيئاً ...

وفجأة ،

طفرت دموعي ؛ وتنبهت على اني تعبة ... لاغبة ... فارتميت على المقعد ... اغسل تعبي بالدموع ...

ومرت لحظات ...

ودخلت دنا تحمل فنجاناً من القهوة وغمغمت بخجل وبراءة :

– فكرت انك قد ترغبين في فنجان من القهوة

رفعتُ رأسي اشكرها ، واذا بالعبرات جدولان على خديها ؛ هزت رأسها ، وهتفت باخلاص :

– الله يوصله بالسلامة ... سنفتقده ...

فاض العطف في قلبي ...

وخيل لي انني ارى ألفريد وهو يصافح الجميع ، ثم يقف مرتبكاً قبالتي ... ان يقول اشياء واشياء ، لكنه لا يتفوه الا بهذه الجملة الطبيعية :

« حاولي ان تأتي الى اوروبا قبل سفري الى اميركا ... فنجتمع هناك لشهر من الزمن ... »

ثم ... يعانقني بسرعة ، ويهمس في اذني :

« لا تنسيْ انني احبك ... الوداع ... »

ليتني جمعت عطفي في قبلة اهديتها الى ثغره ... ليتني وشوشته أنني اعزه كثيراً واحترمه ... ليتني هتفت على الاقل انني سأفتقده ...

لم اقل شيئاً ...

وانا الآن احاول ان اردّ الى اشيائه المتروكة ، قليلاً من التقدير الذي اشعر به نحوه ...

وتمتمت ... :

– نعم ... سنفتقده !

وساد السكوت ... الحزين

وبعد فترة سألتْ دنا :

– هل ابدأ بترتيب البيت ؟

شلت هذه الجملة حالاً تفكيري في ألفريد ، وامتلأ كياني بنشاط جديد :

– طبعاً يا دنا ... سنبتدئ بالترتيب والتنظيف ثم نعيد كل شيء الى مكانه القديم ... القديم ...

وركضت الى الهاتف ادير رقم زياد ؛

سأطلب منه ان يأتي اليّ غداً ...

فغداً ...

سيفوح الهدوء الموحي من كل زاوية ...

غداً ... سيربض المقعد الأخضر الى جانب المذياع ينتظر باخلاص سيده ...

غداً ... ستنعكس اضواء للفانوس الأصفر الباهتة على جدران الكهف الأسود ، لتتسرب الى الديوان الفاتح لنا فراعيه ...

نعم ... غداً ... سيبعث من جديد اطار حبنا ...

غداً ... سيعيش الماضي ...

*

وجاء الغد ...

وغاب في غياب الشمس تعبي ... ونما مع الظلام شوقي الى زياد ...

سيأتي بعد ساعة ...

ودخلت غرفتي ، وفتحت خزانة ملابسي ، ووقفت انظر الى الثياب الملونة ؛

من جديد اسائل نفسي : اي ثوب ارتدي ؟ هذه الأثواب الجوخية قد ولى موسمها ، فالربيع يرقص في سماء بلدتي الجميلة ...

ووقعت نظراتي على اثواب « الكوكتيل » المزدحمة في سجنها ... سجنها الاضطراري ، لأن بلدتي لا تفسح لها طريقاً للظهور ؛ فلا « اوبرا » ، ولا مسرح ، ولا فرق موسيقية ، ولا سهرات باهرة ، وقلما ... قلما تحدث حفلة رسمية ؛

فلماذا لا ارتدي ثوب كوكتيل لاستقبال زياد ؟ اليست

هذه الليلة مناسبة ؟ اليس هو اولى من الجميع بالتمتع بأناقتي ؟

اي لون اختار من هذه الألوان الثلاثة ؟

الأسود ؟

لا ... انا اشعر بشبابي اليوم ، فلماذا احزن على شبابي ؟

الأزرق ؟

لا ... انا لا احب اللون الأزرق !

وامتدت يدي تلتقط الثوب الثالث ؛ اما اشتريته من اجل زياد ؟ الم يقل ان هذا اللون يلائمني ؟

وتسللت في الثوب ، واشرأب رأسي من اعلاه باحثاً عن المرآة ، وتأملت نفسي :

نسي التفتا الأخضر اكتافي ... وحضن برفق نهديّ ... وشدّ ... شدّ على الخصر الرقيق ... ليتدفق بغزارة ، شلالات ربيع على الأوراك ...

الربيع يرقص في بلدي ، وثوبي ، كالعشب مع النسيم ، يتماوج في المرآة ...

لماذا اكره الربيع ؟

انا ما زلت في ربيع عمري ... هل اظل اكرهه حين يخط الشيب شعري ؟

لماذا اكرهه ؟

ألأنه يعود كل سنة ، وانا عابرة ؟

الأنه خالد ، وأنا اسير نحو الفناء ؟

ام لأنه يوقظ في كياني جوعاً الى الحياة ولا اجد في الحياة ما يسدّ جوعي ؟

وشعرت بحاجة الى استنشاق الهواء الطلق ، فاقتربت من نافذتي ، ونظرت الى الغصن المتدلي من الشجرة الكبيرة ...

ان روحي تورق مع الأغصان ... وقلبي يبرعم مع الورود ... وجسدي يسكر نشوان من النسيم العاطر ...

انا اتفتح مع الربيع ...

انا بحاجة الى ان املأ الدنيا بأزهار ربيعي ...

انا بحاجة الى ان اسكر الدنيا بعبير ازهاري ...

انا بحاجة الى فضاء رحب ... الى سماوات جديدة ... الى آفاق جديدة ...

انا اكره الربيع لانه يذكرني بحدود حياتي ...

واكد حدودَ حياتي صوتُ دنا وهي تقول :

— آنسة ريم ... الاستاذ زياد في الردهة ...

عدت الى المرآة اسائلها للمرة الأخيرة عن شكلي ، وابتسمت راضية ، ومشيت ... اليه ...

لم يأبه لوقع اقدامي ، بل ظلّ على الكرسيّ الصغير ، خاشعاً امام الكهف الأسود ، وتمتم ، وبريق عينيه يختلط بأشعة الفانوس الأصفر :

— هذه الغرفة معبدي ... يا ريم ... انني أسجد لهذا

الفانوس ...

ثم التفت اليّ ، فجمد الكلام في فيه ، وانطبقت الجفون على صورتي ، لتتأكد من انها لا تحلم ، ثم ارتفعت الأهداب ، وتحركت الشفاه :

– يا الهي ... لماذا تجملت هكذا ؟

– لاستقبالك !

– حبيبتي ... حبيبتي ... انا احبك كيفما كنت ...

ثم ابتسم :

– لمن اسجد ؟ ألهذا الفانوس ام للاكتاف المرمرية ؟

اقتربت منه ، ونظرت الى الفانوس ، نظرة الأم إلى طفلها العائد ، وقلت بحنان :

– فانوسي الصغير ... كم أحبك !... هل لك يا زياد في كأس من مشروبنا القديم ؟

ظل ينظر اليّ مشدوهاً :

– ريم ... اكاد ألا اصدق ... هذا الجو فوق قدرة احتمالي ... ان بيتك اليوم اعجوبة ... هذا الجو الرائع ... مثل قبل ... مثل قبل تماماً ... كيف لم اقدره من قبل ؟ اعتبرته طبيعياً ... اعتبرته عادياً ... كنت بطراً يا ريم ... الآن اقدره لأنني ضعت حين ولى ... لانني كنت طوال هذه الفترة كالسمكة التي تلفظها الى البر بحيرتها الأنيقة ... نعم ... ارحب بكأس المشروب ...

خرجت من القاعة ، ووقف هو يبحث بين الاسطوانات

عن الحان « شوبان » ... القديمة ... التي احب ...

قدمّت له كأس مشروبنا القديم ، وفكرت في ان اتكوّم عند قدميه ، كما كنت افعل في الماضي ، لكن الفكرة لم تطربني ... وخفت على ثوبي ؛ ستنثني شلالاته الربيعية ، وتتكسر ...

هل اجلس على حافة مقعده ؟ لكنني لن استريح في جلستي ، وستكون حركتي مصطنعة !

لماذا لا اتصرف حسب طبيعتي ، فارتمي على المقعد المقابل ؟

وطاف المقعد بثوبي ... وطاف قلبي بآمال مبهمة ؛ ورُحتُ اتأمل بصورة مجردة كل ما حولي :

هو جالس على مقعده القديم ... في الركن القديم ... وخيّل اليّ ان الأضواء الخافتة المنبعثة من الزوايا ليست سوى الحان لشوبان ...

والفانوس الأصفر ، قمر شاحب ، تنهمر خيوطه الذهبية ، على بحر من الهدوء والحب ... والستائر « البيكاسو » المسدلة تمنع دفء خلوتنا من التسرب الى الخارج ...

نعم ...

الماضي هنا ... الماضي يعيش من جديد ... كل شيء كما كان ... كل شيء ... الا انا !

واغمضت اجفاني متزعجة ؛ الى متى انكر انني تغيرت ؟ ومتى اعترف بأن عاطفتي تجفّ يوماً بعد يوم ؟

وشعرت بانقباض :

هذا الجو المختنق ... يخيفني ... انا بحاجة الى أنوار ... الى أشعة ساطعة ... الى آفاق واسعة ... واسعة ...

ورفعت أهدابي المتثاقلة ، كان يراقبني :

– أأنت تعبة يا ريم ؟

– نعم ... لقد اشتغلت كثيراً هذين اليومين ؛ زياد ... هل ... هل تصحبني في سيارتك الى نزهة ؟ او الى اي مكان استمتع فيه بالهواء الطلق ؟

أحسست بأنه تضايق ، لكنه غمغم :

– طبعاً ... طبعاً ...

ابتسمتُ :

– اذن حين ننتهي من كأسينا ...

ودخلت غرفتي ، أُحضر معطفي ليحمي اكتافي اولاً من رطوبة ليالي نيسان ... ثم ... من نظرات الناس ... اللاذعة ...

١٠

تململت من على مضجعي ، ومددت يداً كسلى تداعب الهاتف ، وتوقف انينه ؛

ووصل الى اسماعي من الطرف الآخر صوت ناديا :

– « الو » ريم ؟ نحن بانتظارك ...

– انا منهوكة القوى يا ناديا ...

– اعرف انك تعبت اليوم ، لكن الساعة لم تجاوز الثامنة بعد ، استريحي قليلاً ولا بأس اذا جئت الينا في العاشرة ، فالأصدقاء كلهم سيكونون عندنا ...

– هل تقرر موعد سفركم الى اوروبا يا ناديا ؟

– نعم ... يوم الخميس ... اي بعد ثلاثة ايام وما زلت آمل ان تبدلي قرارك ، وترافقينا ... امامك ثلاثة ايام ...

وجواز سفرك مهيأ

ضحكتُ :

– نعم ... حتى اليوم الثالث « يخلق الله مالا تعلمون »

وانهت حديثها :

– حاولي الا تتأخري ...

عدت اغرق جسدي في السرير ، استمد من طراوة الفراش لذة الكسل ...

انا تعبة ...

قضيت نهاري اركض شمالاً ويميناً وأبذل جهدي لتكون حفلة عيد ميلاد رانية ناجحة ؛ وزاد في ارهاقي اعتنائي بخمسة عشر طفلاً من اولاد الجيران ، اصدقاء رانية !

ودخلتْ دنا :

– آنستي ... نامت رانية ... هل تطلبين مني خدمة قبل ان انام ؟

– لا يا دنا ... شكراً لك ... سأذهب بعد قليل الى بيت خالي ... تصبحين على خير ...

ومرت لحظات ، وانا مستلقية على فراشي ، وافكاري التي اسكرها التعب ، مبعثرةٌ في « اللاشيْ » ، ونظراتي مضمحلة في بياض السقف ! واخيراً ، نهضت ، وغسلت وجهي بمياه باردة وانا ابتسم ساخرة من نفسي ؛

ما اكسلني !

« الكسل من اجمل صفاتي ... » جملة طالما سمعتها من ألفريد ...

وشعرت بحنين ... من يدري متى اجتمع به مرة اخرى ؟

وارتديت ثيابي على عجل ، وصففت شعري ، واقتربت من الهاتف ، فقد وعدت زياد بأن اخابره عندما يفرغ بيتي من ضوضائه ...

ولكنني فكرت :

« لماذا لا اذهب اليه عوضاً عن ان اخابره ؟ وماذا بها اذا لم احضر سهرة ناديا ؟ ليست هذه المرة الاولى التي لا ألبي فيها دعوة ! ثم ... قد ابقى بضع لحظات عند زياد ، وأذهب بعدها الى ناديا ... »

وركبت سيارتي ، ومن تلقاء نفسها قادتني الى زياد ...

ـ يا اهلاً بحبيبتي ... يا اهلاً ... كيف كانت حفلة رانية ؟

ـ لا بأس ، ولكنني لا اصلح لأن اكون أماً ... فالاعتناء بالأطفال ضياع وقت

ـ لا تكوني عديمة الشعور ... انا احب الأطفال ... وقلبي يهفو لرؤية اي طفل ...

ابتسمتُ :

ليت ليلى تسمع آراء زياد ...

جلس بالقرب مني ، واخذ يحدثني عن الحفلة التي كان قد دعي اليها في الأمس ، ثم تبادلنا الرأي في الكتاب الأخير الذي قرأناه ، واخيراً تكلمنا عن الحياة ، والحب .

ومرت ساعة وبعض الساعة .

وحين وقفت ابغي الانصراف ، خرج من الغرفة ليحضر لي كتاباً قد صدر حديثاً لاحدى الكاتبات ، وكنت قد طلبته منه .

بقيت وحدي في الغرفة الغريبة ، فأشعلت سيجارة وعدت اجلس على المقعد المخملي الأخضر ، وعباراته الأخيرة تتردد في رأسي :

« تسألين ما هو الحب ؟ لا ... الحب ليس عاطفة طارئة كما قد تعتقدين ... الحب الصحيح هو عقل ومنطق ... ومثل هذا الحب لا يموت ... انا احبك ... لكنني اعلم انك عظيمة ... لانك احسن فتاة عرفتها وسأعرفها ... »

ابى تفكيري ان يمر بهذه الجملة دون ان يتوقف ليحللها ... ويتفهمها ... وينتقدها ...

« انت احسن فتاة عرفتها ... أحسن فتاة عرفتها »

تضخمت هذه الكلمات ... وضج بها رأسي ...

احسن من غيري !

وهل هذا كاف لتوليد الحب ؟

انا اريد رجلاً يحبني وهو يعلم ان الكثيرات اجمل مني واذكى مني ... رجلاً يحبني لأن روحي امتزجت وروحه ،

ولان افكاري طابقت افكاره ...

ولا اريد ... لا اريد رجلاً يحبني لانه بعد وضعي في الميزان اكتشف انني احسن من غيري ...!

« الحب عقل ومنطق » ! وهل كنت احببت زياد لو ان الحب عقل ومنطق ؟

وطار تفكيري الى سهرة ناديا ؛ الأصدقاء كلهم عندها الآن ... يشربون ... ويرقصون ... ويمرحون ...

ليتني كنت بينهم ، فأضيع معهم في الدخان ... ويعلو ضحكي ، مع ضحكاتهم رنيناً يختلط بالدخان ... وارقص على الألحان المتلاشية في الدخان ... واسكر من عبير الخمر الممزوج بالدخان ...

لا ... انا احلم ! لم اذهب الى الحفلة ... ولم اعتذر ... وذهبت الى الرجل الذي يحبني لأن الحب عقل ومنطق !

هو الآن ينتصب امامي ، وبيده الكتاب ؛

زحفت نظراتي ببطء وبرود ... فتسلقت قامته المديدة ... وتوقفت ، غريبة ، عند ثغره ... ثم راحت تنبش في عينيه ... وتبحث فيهما عن شيء ، عن اي شيء ... عن اثر من احساساتي الماضية ؛

ولكن عبثاً !

هذه العيون التي كانت تشعّ ، وتوحي اليّ بالوف المعاني تبدو فارغة ...

وهذه الشفاه التي كانت تصب الحياة في وجهي وفي

مقلتيّ ... تبدو متدلية ... تدل على السذاجة ...
هذا الرجل المنتصب امامي ...
طالما وددت ان اتلاشى في ظله ... طالما تمنيت ان اضمحل بين ذراعيه ... يبدو مترهلاً ... عادياً ...
اني انظر اليه وكأني أراه لأول مرة ...
أيمكن الا اشعر نحوه بشيءٍ ؟
أيمكن ان يهدأ الحب المتضرم في مدى لحظة ؟
أهكذا تخمد النار الآكلة في ثوان ؟

أانا الآن لم اعد احبه ؟ ام انها عملية طويلة حبكت في اللاشعور ، وتنبهت عليها الآن فقط ؟

تمثل الظفر الحزين بابتسامة هادئة علت شفتيّ :
– لا شيءْ ... شكراً ... على الكتاب ... وعلى هذه السهرة ...
ووقفت ، ومشيت نحو الباب ؛
تبعني يقول :
– ارجو لك ليلة سعيدة ...
ثم اقترب مني ، واطبقت ذراعاه على خصْري ، وجمع حبّه في قبلة حارة تلقمتها شفتاي وتمتم :
– انت حياتي يا ريم ... انت « عيوني » ... يا ليتك تدركين كم احبك ... تصبحين على خير ... الى الغد ...

لم يحس التغير في نظراتي ... لم يشعر بالصقيع في شفاهي ... ولا مرّ في باله انني في هذه اللحظات كنت اشهد تشييع حبي الكبير ...

ولماذا يفكر في كل ذلك ؟

وهل قال شيئاً يؤلمني ؟ لا ... ابداً ...

ولكن اللاشعور عندي كان ينتظر اقل كلمة يتفوه بها زياد ليتخذ منها حجة لقتله !

« احسن فتاة عرفتُ ... احسن من غيرك ... »

لا يوجد في هذه الكلمات ما يجرح شعوري ، بل يمكن ان تعتبر هذه الجملة اطراءً ... لكنها ، في سلسلة الحوادث ، الجملة الكافية ، والذرة اللازمة كي تطفح الكأس المليئة ...

شؤون صغيرة ... وكلمات مثيرة ... وذكريات مؤلمة ... تراكمت ... وتراكمت ... وتراكمت ...

وفي اللاشعور كونت مرارة ... ثم حقداً ... ثم كراهية ...

وقتلت في الحقيقة شيئاً فشيئاً حبي الكبير ...

*

تنبهت على انني اجتزت مسافة بعيدة وانا أقود سيارتي واستعيد الذكريات ...

ونظرت الى الأمام ...

ضوء القمر يسيل على الطريق ... ولولا النجوم المتلألئة ، الضاحكة ، لاختلطت في ناظري السماء بصحرائنا المترامية ، هنالك عند الأفق ...

ليتني الآن في طريقي الى بلاد بعيدة ...

ليتني أقود سيارتي في طرقات مجهولة ... وتحت سماوات غريبة ...

ليتني التقي بوجوه جديدة ...

يجب ... يجب ان اوسع آفاق حياتي ...

ونما التمني في قلبي ... وترعرع ... وملأ جوانحي ...
وفجأة ،
نبع في فكري سؤال واحد ، يرويه :
لماذا ... لماذا لا أرافق خالي وناديا الى اوروبا ؟
لا شيء يستدعي بقائي الآن في دمشق !
سأصحب رانية معي
سنشاهد بلاداً جديدة
و ... سأرى ألفريد ...
اريد ان ارى ألفريد ...

وادرت المقود ... وعدت متجهة الى بيتي ...
ومررت تحت نافذة غرفة زياد ، فرحت اسائل نفسي :
« أيمكن الاّ أشعر نحوه بشيء ؟ »
« كيف ... كيف يموت الحب الكبير ؟ »
ولاول مرة ، فهمت جملة قالها « ساشا جيتري » :
« لا يكون الحب حباً كبيراً ، إلاّ إذا كان له بداية وتفتح ... ونهاية » ...
وابتسمت ،
نعم ... لقد كان حباً كبيراً ...

واخترقت سيارتي شارع بغداد ؛
الشارع خالٍ من المارة ... وانا وحدي في السيارة ...

وسكون الليل يخيّم على بلدي الحبيب ...

فراغ ... يحيط بي ؛ فراغ ... في قلبي ؛ في الجو فراغ ...

وبرقت عيوني :

ما ابدع الفراغ !

لاول مرة في حياتي اجد في الفراغ معاني جديدة :

كأس جميلة من الكريستال الثمين ... نمسكها بيدنا ...
زجاجها يشع بالوان الأمل ، والقلق ، والتساؤل ، والانتظار .

نملأها احياناً بمشروب لذيذ ... فهل يزول الفراغ ؟

نعم ... لمدة !

المدة الكافية لاحتساء هذا المشروب ، ثم تعود فارغةً ،
وترجع الألوان الموحية تتراقص على زجاجها ...

لذلك ...

سأملأ كأسي برحيق الفن ؛ فالفن نبع فياض ، دفقُ
وجودٍ لا ينضب ...

مهما غرفنا منه ، يظل يغرقنا بالجمال ... ومهما نهلنا
منه ، يظل يسكرنا بالآمال والحب ...

سأهب حياتي للحرف ؛

سأجعل منه الهي ورفيقي ، وعبدي ...

فآمره ، ساجده ... واعبده ، سيدة ... واشكو اليه
همومي كانسان حبيب ...

نزلت من السيارة نشطة ، ودخلت بيتي ؛

وشعرت بسرور عميق وانا ارتمي في احضان عشي الصغير ...

واقتربت من الطاولة ، ونظرت شيّقة الى اوراقي المبعثرة ... والى الحروف الباسمة ، صديقاتي ...

وزخرف الفراغَ نداءُ الهاتف ...

نظرت الى الآلة ؛ رنينُكِ اليوم نغمةٌ حائرة ... تنساب سؤالاً في هذا الفراغ الجميل ...

تهافتّ عليها ، فاذا بصوت ناديا ، غاضباً ، معاتباً :

– اين انت ... اين كنت ؟ لماذا لم تأتي الينا ؟ لقد خابرتك اكثر من عشر مرات ... الأصدقاء كلهم ينتظرونك ... سيسهرون حتى الفجر ... هل تأتين ؟ سيذهب خالك تواً اليك ...

قلت بمرح :

– نعم ... نعم سآتي ... فانا ايضاً أريد وداع الأصدقاء ... قررت ان أرافقكم يا ناديا ...

– هل انت جادة ؟ ماذا جرى ؟

– لا شيءُ ... لا شيءُ مطلقاً ... سوى انني اتوق الى الضياع في بلد كبير ... اريد ان اكتب ... وفني بحاجة الى تجارب جديدة ... الى مشاهد جديدة ... الى وجوه جديدة ...

– هذا عظيم ... سيذهب خالك فوراً اليك ...

بقيت واقفة انتظر خالي ، وبقيت احلامي تتراقص حولي ...

سأسافر ...

نعم ... انا بحاجة الى تجارب جديدة ... الى وجوه جديدة ...

وحملتني هذه الجملة على التفكير في زياد ...

زياد كان على حق ؛

الحب يزول ، والفن وحده يخلد ...

زياد ؟ وتراءى لي طيفه ... فابتسمت له بحنان ؛

زياد ...

لم يبق منه شيءٌ ، سوى لوحة جميلة في معرض ذكرياتي ...

لوحة ادين لها ...

وسأحنّ اليها دائماً ...

لأنها كانت ينبوع هذه الحروف ...

*

اشكر الصديق الفنان

عصمت رضا

الذي أبدع رسم الغلاف

انتهى طبع هـذه القصة على
مطابع دار الكتب في بيروت
بطريقة مونوتيب .
١٩٦٠

١٩٦٠-١٢-٢١١







www.ibtesama.com